الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير: صالح ياسر

مجلس التحرير

صادق البلادي حيدر سعيد

رائد فهمي زهير الجزائري

سامي خالد سعدي يوسف

عزيز سباهي كامل شياع

الفريد سمعان هادي محمود

مهدي محمد علي

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

345

اغلق تحرير العدد في 14 تموز 2011

السعر :2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6أعداد) : 50 دولار أو ما يعادلها و 100 دولار للمؤسسات.
ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد – شارع ابو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781
يمكن تحويل مبالغ الاشتراك على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
***أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.**
*** ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.**
*** ان تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.**
*** يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الألكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.**
*** لاتعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.**
*** بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الألكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.**
*** للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.**

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والاعلان

محتويات العدد

5- **كلمة العدد**

ملف العدد:

8- الشهيد عبد الرحيم شريف..... (الثقافة الجديدة)

9- محطات في حياة الشهيد عبد الرحيم شريف.....ماهر شريف

16- خواطر وذكريات تجاوز عمرها الستين..... عبد الوهاب احمد الحسك

19-عندما كان الشهيد عبد الرحيم شريف مبعدا في بدرة.....فاضل عباس البدراوي

مقـــالات

22- أهمية تبني إستراتيجية التربية والتعليم لتنمية الطاقات البشرية المستدامة.... سمير حسن ليلو

31- التدريس المعماري في العراق الى أين ..... موفق جواد الطائي

35- هو والزعيم .....عقيل الناصري

47-العولمة والديمقراطية ....بتول قاسم ناصر

57- "نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي"عرض لكتاب الأستاذ كريم مروة.....حاكم محسن محمد الربيعي

نصوص قديمة

66- بمناسبة الذكرى 25 لثورة تموز المجيدة خواطر وذكريات .....عامر عبد اللّه

طاولة مستديرة

86- واقع الصناعة الوطنية العراقية

نصوص متـــرجمة

111- الولايات المتحدة الأمريكية المفلسة: ميخائيل كريتكه.....ترجمة: رشيد غويلب

حـــــوارات

124- حوار مع المؤرخ والباحث ناجح المعموري .....حاوره : سعدون هليل

أدب وفـــن

حوار:

136- عن المسرح الشعريّ (حوار مع عبد الكريم كاصد).....أجراه: خالد السلطان

شعر:

140- اعتقني من مهزلة فقدانك.....علي ابو عراق
144- سويعات الرحيل .....غالي الخزعلي
147- يوم آخر..... نضال القاضي
148-"تراتيل ... لها"..... قاسم العزاوي
150- مقتبل الأسى (محمد درويش وداعاً)..... عبدالزهرة السوداني
152- وصايا لكلكامش.....جواد وادي

قصص قصيرة:

156- الأستاذ .....محمدعباس على
160- خربة (حسن قولو).....فاضل ناصر كركوكلي
164- غفوة أخرى.. لحلم.. لم يكتمل.....بلقيس خالد

لوحة الغلاف الاول: جدارية للفنان فائق حسن.

لوحة الغلاف الاخير : الفنانة ساجدة المشايخي، فنانة عراقية لها الكثير من المعارض الشخصية والمشتركة.

كلمة العدد

يعاني المشهد السياسي في بلادنا من حالات استعصاء متكررة، وهو **مقيّد** بالعديد من المحددات، التي تجعل منه **مجالا مغلقا** الى حد بعيد، **يعيد إنتاج نفس الأنساق السياسية القائمة**، لكن بفاعلين و "نخب جديدة" وبتأسيس لتجارب تدعي أنها أجرت قطيعة مع التجارب السياسية السابقة في إدارة الشأن العام، وتؤسس لتجربة نوعية، لكنها على مستوى العمق لا تقدم، لحد الآن، جديدا نوعيا.

ويرجع **الاستعصاء السياسي المتكرر**، إلى جملة أسباب من بينها **غياب** الإرادة السياسية لدى القوى المتنفذة في بلادنا، وفي غياب اعتماد مبدأ تداول السلطة واقتسامها على قاعدة الديمقراطية، بعيدا عن نظام المحاصصات المعروف، هذا إضافة طبعا الى خيار (الحرب) الذي أدى الى إزاحة النظام الدكتاتوري ولكنه جلب الاحتلال وما تلاه من تداعيات واستحقاقات لا تخفي على أحد، وأيضا نشاط القوى الإرهابية والتكفيرية.

لقد أعطت التطورات السياسية التي عرفتها بلادنا منذ 2003/4/9، وعبر كل التجارب الانتخابية التي جرت بدون رهانات سياسية واضحة، **ديمقراطية ناقصة، مشوهة وغير متوازنة**، لأن طبيعة السلطة في العراق والتوازنات التي تحكمها تجعل منها غير قابلة للتداول بالمعنى الديمقراطي الصحيح.

إن **المجال السياسي العراقي** الناجم عن **نظام** المحاصصات المعروف، جعل من حكومات "الوحدة الوطنية" أو "الشراكة الوطنية" المتعاقبة، حكومات غير قادرة على الفعل والمبادرة على الرغم من الحديث المتكرر عن تحقيق "انجازات كثيرة". فقد تحولت الى أجهزة تنفيذية **لإدارة** الأزمة البنيوية ولم يطرح أي منها برنامجا حقيقيا قادرا على تجاوز تلك الأزمة فعلا، رغم خطاباتها السياسية الصاخبة في صياغاتها وعمومية إجراءاتها. وبسبب **تضارب** المصالح الناجمة عن طبيعة العملية السياسية وتعقيداتها وموازين القوى الناظمة لها، و نشاطات القوى الإرهابية، **وعدم وضوح** إستراتيجية الحكومات بهذا الشأن، ونتيجة الاختلالات التي تطال مستويات وبنى النظام السياسي الراهن، فقد **أصبحت** الحكومات، خلال مختلف المراحل، **فاقدة** الى الآليات المؤسساتية القادرة على منحها قدرا من الاستقلالية، وحضورا سياسيا وقانونيا أقوى. لهذا فإنها تبدو في الواقع الفعلي مجرد حكومات لإدارة الأزمة وليس تجاوزها. فالخلل يكمن إذن في بنية نظام المحاصصة وفي طبيعة المشاريع والاستراتيجيات التي طبقت بعد 2003 والتي لا يمكن أن تنتج غير هذه البنية.

لقد استطاع ائتلاف القوى المتنفذة في شكله الملموس (الطائفي/القومي) أن **يخرج** النظام من أزمة هيمنته السياسية على المدى القريب، عبر **التغلب** على "منغصات العمل" باعتماد سياسة "تبويس اللحى" من خلال الاستخدام السيء لفكرة التوافقات التي يفترض أن تنقل الأوضاع الى الأحسن وليس تأبيد هيمنة القوى المتنفذة بإعادة توزيع للمغانم والمكتسبات والسلطة والنفوذ. ذلك أن لهذه الديمقراطية، في صيغتها الملموسة، وكما تفهمها القوى المتنفذة، وظيفة أساسية **تتمثل** في **توفير** الغطاء السياسي والإيديولوجي والمؤسساتي لهيمنتها. ونظراً لان التجربة الملموسة التي تمر بها البلاد تشير بوضوح الى **اشتداد** التفاوتات الاجتماعية، **واحتدام** التناقضات الطبقية/الاجتماعية، واستشراء الفساد، **وتعميق** أزمة نظام الحكم عموما التي تنتج وتفاقم الأوضاع الاجتماعية والمعيشية لأوسع الجماهير الشعبية، فإن "**صمود**" هذا النمط من الديمقراطية، واستمرارها يبقى مرهونا بتوفر شرط أساسي لا محيد ولا بديل عنه، ألا وهو **استكانة** الطبقات والفئات والقوى الشعبية **واستسلامها** وخضوعها ووقف أية مقاومة لديها، **أي فرض شروط استسلام اجتماعي** وظيفي شامل. أما أن ترفض هذه الأوضاع وتستمر في النضال والتصدي لها، فإن النتيجة المباشرة هي لجوء السلطة الى خيار القمع والعنف المنظم مما يعني **انفضاح** هشاشة "ديمقراطية" هذا الائتلاف وتعرية طابعها الطبقي/الاجتماعي، وهو ما شهدناه في الأشهر الأخيرة بوضوح بالغ. ولهذا يبدو أن التحدي الأكبر اليوم هو في تجميع " القوى العابرة للطوائف والإثنيات "، حول العناوين الكبرى والأساسية لبناء الدولة الديمقراطية العصرية، دولة المواطنين الأحرار المتحررين من أية هيمنة طائفية أو قومية أو عرقية، دولة تنشد العدالة الاجتماعية.

إن **التقدم** على طريق انجاز مهمة إنهاء الاحتلال واستعادة السيادة والاستقلال كاملين من جهة، وبناء نظام ديمقراطي يتطلب، في المرحلة الراهنة، **العمل الدؤوب** من أجل **تغيير** موازين القوى لصالح القوى الاجتماعية والسياسية الراغبة في إجراء قطيعة فعلية مع نظام المحاصصات السيء الصيت. وهنا يقع على النخب الثقافية أن تلعب دورها التنويري في المعركة من اجل الديمقراطية عبر المساهمة النشيطة في خلق التراكم المعرفي المطلوب، والحفاظ على ذاكرة جمعية متقدة في مواجهة إشكاليات الواقع المعقد والمتوتر والمفتوح على احتمالات عدة. فلا يجوز أن تفقر الممارسة الديمقراطية بتحويلها إلى جملة من التقنيات، أو أن تختزل في تطبيقات انتخابية، مشخصة في صورة مساحيق مشوهة للمشهد السياسي، ومطورة في العمق لآليات جديدة في الاستبداد السياسي المقنع.

أكدت التجارب الملموسة، وتؤكد اليوم أيضا، أن الحريات الديمقراطية تكتسب بالنضال اليومي، ولا يمكن أن تكون هبة من القوى المهيمنة التي تفرض وصايتها على الجماهير وتقنن حرياتها وحقوقها الديمقراطية تحت مختلف الذرائع، كما وتحتاج الى سلطة قضائية مستقلة تمام الاستقلال.

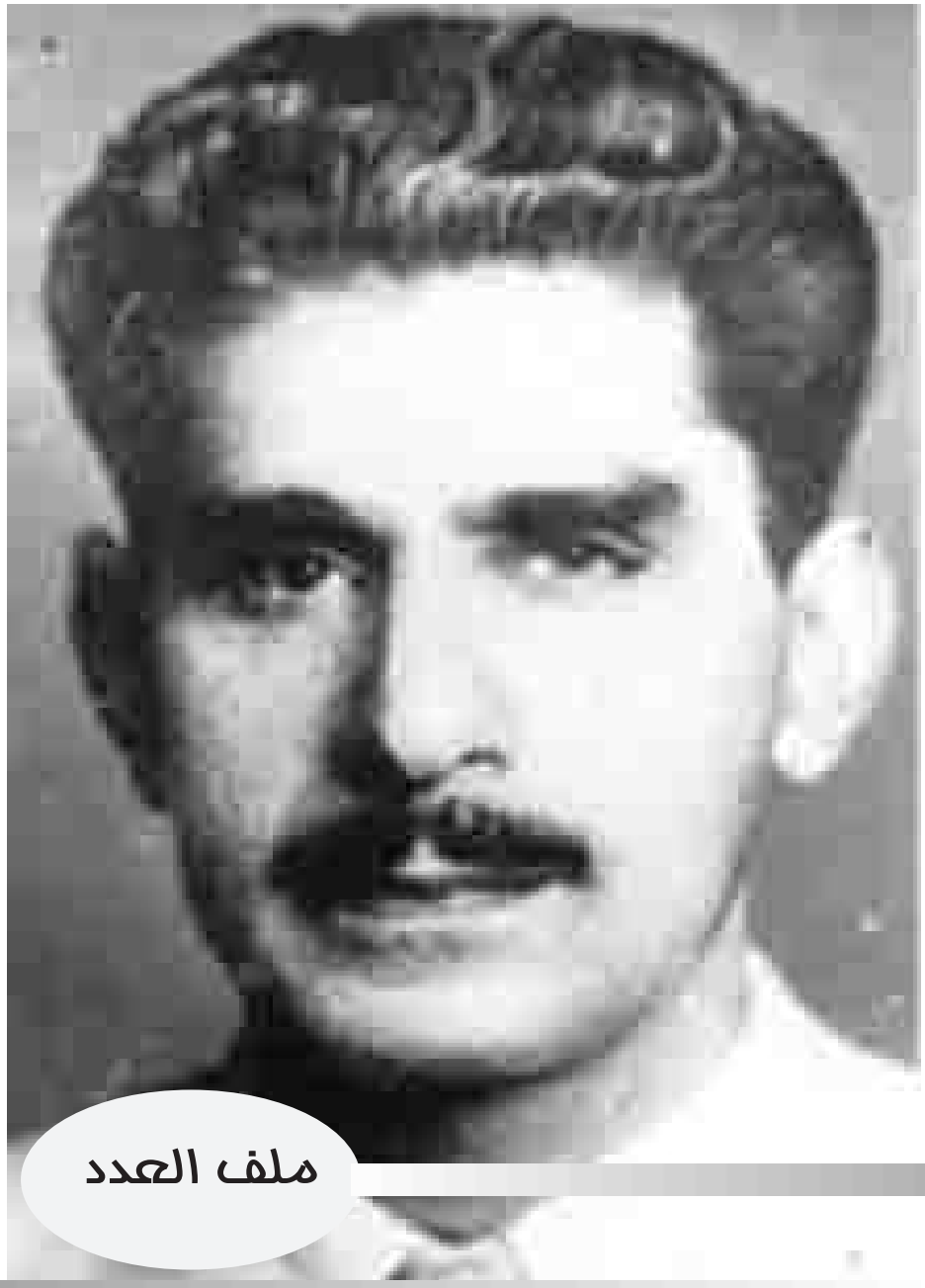

ملف العدد

عن حياة الشهيد عبد الرحيم شريف

هذا الملف مكرس لرجل حَول مهنة المحاماة من الدفاع عن الضحية الى الدفاع عن الوطن واستقلاله وضد العسف والاستغلال.. ومن اجل الديمقراطية والكرامة والحرية والعدالة الاجتماعية.. انه الشهيد عبد الرحيم شريف. ولد الشهيد في عام يتصف بخصوصية تاريخية فريدة، انه عام 1971، وهو العام الذي وقع فيه حدث ترك بصماته على مسيرة البشرية لسبعة عقود تقريبا إلا وهو قيام ثورة أكتوبر العظمى في روسيا حيث أطاح العمال والفلاحون وحلفاؤهم بالنظام القيصري. في هذا العام أنجبت مدينة غافية على أعالي الفرات اسمها (عنه) ابنا آخر لعائلة شريف عبد الحميد هو عبد الرحيم الذي سيصبح وبعد ما يقارب الثلاثة عقود احد أهم شخصيات العراق المعاصر وصناع تأريخه متوجا حياته بعد 46عاما على ولادته ليستشهد متحديا جلاديه مرفوع القامة وليغادرنا في رحلته الأبدية ليدخل في سجل الخالدين بطلا آخر من أبطال الحزب الشيوعي والحركة الوطنية والديمقراطية العراقية.

سيرة عبد الرحيم شريف سيرة استثنائية سنتعرف على بعض فصولها من خلال قراءة المساهمات التي يحتويها هذا الملف.. انها، باختصار شديد، سيرة رجل مناضل تعود ركوب مخاطر النضال فوهب حياته لقضية عادلة.. وشخصية حزبية واجتماعية مرموقة لم تجد أي تعارض بين صرامة التقاليد الحزبية وبين الفضاء الاجتماعي بل كان ذا قدرة عجيبة على الدمج بينهما. نعود إليه في هذا الملف من خلال مساهمات تنوعت في مقارباتها لدور عبد الرحيم شريف والتي نأمل أن تساهم، مجتمعة، في إضاءة بعض من السفر النضالي الثري للشهيد.

و "الثقافة الجديدة " التي كان الشهيد عبد الرحيم شريف رئيس تحريرها لفترة من الزمن كانت عاتية بكل المقاييس والتي تعي جيدا حجم فداحة الخسارة باستشهاد عبد الرحيم مبكرا، لا تجد ما يعوّض عنه إلا في حماية ما جعله واحداً من مؤسسيها والذين وجدوا فيها منبراً للتبشير بالفكر العلمي والثقافة التقدمية.

بعد 48 عاما على استشهاده البطولي نستذكر عبد الرحيم شريف ونودعه مرة أخرى بوردة ندية مثله، طاهرة الروح مثله، نقية القلب مثله، وهو المجبول من طيبة الأرض العراقية والمدعم بثقل أحجارها الكريمة. نعم إننا في زمن نحتاج الكثير من الأقلام الحرة الشجاعة، مثل قلم أبي رائد وشجاعة أبي رائد، لكي نخترق الليل فيه أو نحدث فيه ثغرة لشمس الغد. فهذا الزمان ليس وقت انكسار قلم ولا وقت إسكات صوت الحق.. صوت الكرامة.. صوت الديمقراطية، كما يريد بعض قصيري البصر والبصيرة.

أبا رائد.. لن ننساك لأنّ الورد يظلّ يعبق برائحة الحياة ولا يشيخ، باق أنت بين اشمخ قامات الوطن وأنبل رجال الحزب.

(الثقافة الجديدة)

محطات في حياة الشهيد
عبد الرحيم شريف

ماهر شريف

ماهر شريف حاصل على شهادة الماجستير والدكتوراه في الفيزياء من جامعة موسكو، عمل في الستينات معيدا في جامعة بغداد وفي السبعينات مدرسا في الجامعة التكنولوجية، غادر العراق عام 1980، عمل في الثمانينات في جامعة وهران في الجزائر ثم في جامعة قاريونس في ليبيا، في اواسط التسعينات سافر الى هولندة وعمل فيها مطور انظمة الكمبيوتر. شارك في مؤتمرات علمية وله عدد من المقالات العلمية المنشورة في حقل اختصاصه.

ولد الشهيد عبد الرحيم شريف عام**1917** في مدينة عنة في اعالي الفرات في عائلة ملاكين زراعيين متوسطين. والده الحاج شريف عبد الحميد عالم دين وإمام وخطيب جامع عنة الكبير، وهو شخصية ذات منزلة اجتماعية مرموقة في عنة وضواحيها، وحسب المؤرخ حنا بطاطو هو الزعيم الفعلي لمدينة عنة. شقيقه الاكبر هو الأستاذ عزيز شريف وشقيقاه الآخران هما د.حكيم شريف و د.حمدي شريف وله خمس شقيقات.

اكمل عبد الرحيم شريف دراسته الابتدائية في مدينة عنة ثم انتقل الى مدينة البصرة لإكمال دراسته الثانوية، حيث كان يقيم شقيقه عزيز شريف. بعد ان اكمل دراسته الثانوية عين في العام 1937 معلما في المدرسة الابتدائية لقرية ترساق في محافظة ديالى. لم يكن عبد الرحيم شريف مجرد معلم لابناء القرية بل استطاع ان يقيم علاقات اجتماعية قوية مع معظم اهالي القرية، وكان يقدم النصح لهم في كل الامور التي يجهلونها مثل العناية باطفالهم وكيفية الوقاية من الامراض ومعالجة مياه الشرب بطرق بدائية وغيرها من الامور الحياتية. احب اهالي قرية ترساق عبد الرحيم شريف حبا لا يصدق وظلوا يحتفظون بعلاقات معه ومع عائلته حتى استشهاده في عام 1963، واستمرت علاقتهم باخويه حكيم شريف وحمدي شريف حتى السبعينات من القرن الماضي، حيث كان يزور والدي مجموعة من

شباب ترساق في كل عيد تقريبا ثم يذهبون لزيارة العم حمدي للتهنئة بالعيد.

في أواخر السبعينات من القرن الماضي حدثني زميلي في الجامعة التكنولوجية المرحوم الدكتور سامي مظلوم، وهو من اهالي محافظة ديالى، بعد ان سألني عن صلة القرابة التي تربطني بعبد الرحيم شريف، حدثني عن الحب والاحترام الذي يكنه اهالي ترساق لعبد الرحيم شريف وعن القصص التي يرويها اهالي القرية للعاملين فيها من خارج القرية عنه وعن ما كان يقوم به لاهل القرية، وعندما سألته عن مصدر هذه المعلومات قال ان شقيقه يعمل منذ عام 1961 معلما في نفس المدرسة التي عمل بها عبد الرحيم شريف وان تلامذته هم من حدثوه عن حب اهل القرية وتعلقهم بعبد الرحيم شريف، وهم في الغالب ابناء من درسهم عبد الرحيم شريف.

في عام 1938 ترك عبد الرحيم شريف العمل في التعليم والتحق بكلية الحقوق، حيث تخرج منها عام 1942، وقد بدأ عبد الرحيم شريف نشاطه السياسي والصحفي مبكرا وهو على مقاعد الدراسة في كلية الحقوق، في عام 1939 اصدر كراسا بعنوان الفاشية عدوة الشعوب، وفي عام 1942 التحق بجماعة الاهالي حيث قرر عدد من اعضائها برئاسة كامل الجادرجي اعادة اصدار جريدة الاهالي وكلف عبد الرحيم شريف برئاسة تحريرها واطلقوا على الجريدة اسم صوت الاهالي وصدر العدد الاول منها في 23 ايلول 1942، ولكن بعد فترة وجيزة ظهرت خلافات فكرية داخل هيئة تحرير الجريدة أدت في النهاية الى خروج عزيز شريف من هيئة التحرير وبعده ببضعة ايام انسحب عبد الرحيم شريف من هيئة التحرير ثم تبعه عبد الفتاح إبراهيم.

بعد خروج المجموعة اليسارية من هيئة تحرير جريدة صوت الاهالي قررت مجموعة من المثقفين اليساريين برئاسة عزيز شريف تأسيس دار نشر بأسم "دار البعث العراقي" لاصدار رسائل البعث، وهي عبارة عن كراريس تعالج قضايا سياسية وفكرية بأسلوب علمي وتنشر الفكر اليساري التقدمي، وكان من اعضاء هذه المجموعة، اضافة الى عزيز شريف، كل من عبد الرحيم شريف وتوفيق منير وناظم الزهاوي، وتعاونت مجموعة دار البعث مع بعض الكوادر الشيوعية خاصة في ترجمة بعض الكتب الماركسية.

في كانون الاول من عام 1943 تقدم عدد من المحامين اليساريين برئاسة يحيى قاسم بضمنهم عبد الرحيم شريف بطلب الى وزارة الداخلية لاجازة حزب سياسي باسم حزب الشعب، وكان منهاج الحزب يهدف الى تعزيز استقلال العراق واستكمال سيادته، و تحقيق الحياة الديمقراطية، وتوزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين، وإقامة الصناعات الحديثة، إلا ان وزارة الداخلية لم توافق على اجازة الحزب. وبعد تشكيل وزارة جديدة برئاسة حمدي الباجة جي تقدم يحيى قاسم بطلب الى وزارة الداخلية لاصدار صحيفة يومية بأسم "الشعب"، وقابل يحيى قاسم وزير الداخلية ارشد العمري، فعرض عليه الاخير الموافقة على اجازة صحيفة الشعب مقابل تخليه عن فكرة تشكيل حزب سياسي، وبالفعل اجيزت الجريدة وانسحب يحيى قاسم من الهيئة المؤسسة لحزب الشعب. بعد انسحاب يحيى قاسم من الهيئة المؤسسة لحزب الشعب انضم اليها عزيز شريف وأصبح رئيسا لها،

وقامت بتقديم طلب باصدار صحيفة الوطن، أجيزت صحيفة الوطن وصدرت في بداية تموز 1945 وكان عزيز شريف مديرها المسؤول، كان يكتب في جريدة الوطن اضافة الى عزيز شريف معظم اعضاء الهيئة المؤسسة للحزب، خاصة عبد الرحيم شريف وتوفيق منير وعبد الامير ابو تراب وعبد الوهاب الماشطة، وكانت الجريدة تركز في مقالاتها على نقد الاوضاع السائدة وتطالب بحقوق الشعب السياسية والاقتصادية.

في 23 شباط 1946 تألفت وزارة جديدة برئاسة توفيق السويدي ووزير الداخلية فيها سعد صالح، اعلنت الوزارة الجديدة الغاء حالة الحرب والغاء القوانين المقيدة للحريات، فتقدمت ستة احزاب بطلب الى وزارة الداخلية لمنحها حق ممارسة نشاطها السياسي، وكان حزب الشعب احد هذه الاحزاب الذي أجيز في 2 نيسان 1946، ضمت الهيئة المؤسسة لحزب الشعب السادة عزيز شريف ،عبد الرحيم شريف، توفيق منير، حميد هندي، إبراهيم الدركزلي، نعيم شهرباني، جرجيس فتح اللّه، سالم عيسى ووديع طليا.

بعد ان عقد حزب الشعب مؤتمره الاول في 26 نيسان1946 بدأ الحزب بفتح فروع له في المحافظات وقد نشط عبد الرحيم شريف في هذه الفترة في محافظة البصرة فتجول في بعض المدن وعقد اجتماعات مع الاهالي والفلاحين لاقناعهم بالانتماء الى حزب الشعب، مما ادى الى ملاحقته من قبل السلطات المحلية ووضعه تحت المراقبة لانه، حسب رأي السلطة، من المشتبه بهم بنشر افكار شيوعية هدامة، وبعد تشكيل ارشد العمري الوزارة في اوائل حزيران 1946 بدأت حملة واسعة ضد الحريات العامة، وشملت خاصة الاحزاب الوطنية، وكان ضمن من طالتهم هذه الحملة عبد الرحيم شريف، حيث اعتقل في البصرة في تموز1946 بتهمة نشر الافكار الشيوعية والتحريض على التظاهر ضد الحكومة، كما قامت الحكومة بتعطيل معظم الصحف الحزبية لفترات مختلفة وقدم بعض اصحاب هذه الصحف للمحاكمة.

عقد حزب الشعب مؤتمره الثاني في بداية كانون الاول 1946، وفي نهاية المؤتمر تم انتخاب لجنة مركزية جديدة وكان عبد الرحيم شريف من ضمن اعضائها.

كان لعبد الرحيم شريف دور متميز في احداث الوثبة، التي اندلعت في كانون الثاني 1948 ضد معاهدة بورت سموث، فبالإضافة الى دوره، كاحد قياديي حزب الشعب، في زج اعضاء الحزب ومناصريه في التظاهرات ضد الحكومة والمطالبة بالغاء الاتفاقية الجائرة، اختير عضوا في "لجنة التعاون" التي شكلتها الاحزاب اليسارية في تشرين الثاني 1947 لتوحيد انشطتها ضد حكومة صالح جبر تحسبا لاحتمال ان توقع الاخيرة على معاهدة جديدة مع بريطانيا بالضد من مصلحة العراق ودون الرجوع الى الشعب، حيث مثل عبد الرحيم شريف حزب الشعب فيها، وكان من اعضاء هذه اللجنة ايضا مالك سيف عن الحزب الشيوعي وكامل قزانجي عن الحزب الوطني الديمقراطي، وبعد سقوط حكومة صالح جبر وتشكيل حكومة محمد الصدر تقدم بعض قياديي حزب الشعب بطلب الى وزارة الداخلية لاجازة نشاط الحزب كما عاودت جريدة الوطن الصدور، ونشطت في هذه الفترة الاحزاب الوطنية مستفيدة من هامش الحرية الذي فرضه انتصار الوثبة، وساهم

عبد الرحيم شريف من خلال الكتابة في جريدة الوطن بالمطالبة باستقلال العراق وتغيير طبيعة علاقته ببريطانيا وبالحريات الديمقراطية، وغيرها من المطالب التي كانت تتبناها الاحزاب الوطنية، في هذه الفترة اصدر عبد الرحيم شريف كراسا بعنوان معاهدة 1930 باطلة يجب اعلان الغائها. كما رشحه حزب الشعب عن مدينة بغداد في الانتخابات النيابية التي جرت في نيسان 1948، و قد رافق هذه الانتخابات عملية تزوير واسعة وأعمال عنف واعتداء على المشاركين فيها واسفرت نتيجتها عن فوز ساحق لمؤيدي الحكومة ومعاهدة بورت سموث، و لم يفز اي من مرشحي حزب الشعب.

تعرضت الحركة الوطنية في العراق بعد قيام دولة اسرائيل في 15 مايس 1948 الى حملة ارهابية واسعة، فاعلنت الاحكام العرفية وشنت حملات قمعية واسعة ضد الاحزاب والمنظمات الديمقراطية واعتقل المئات وقدم العشرات الى المجالس العرفية، وصدرت ضدهم احكام جائرة بالسجن، وكان عبد الرحيم شريف احد ضحايا هذه الحملة، اذ صدر بحقه حكم بالسجن لمدة عامين مع الابعاد لمدة عام بتهمة الترويج للافكار الشيوعية ولدوره الفعال في الوثبة.

امضى عبد الرحيم شريف مدة محكوميته في سجن بغداد المركزي، و كان يزوره في ايام الزيارة بعض الاقارب المقيمين في بغداد، كان والدي في حينها طبيبا في قضاء الهندية، ومازلت اتذكر، رغم صغر سني، باني ووالدتي وأحدى اقاربنا وهي السيدة ام سعد، زرنا عبد الرحيم شريف في سجن بغداد، كان الجو حارا وقد تجمع الكثيرون اما بوابة السجن بانتظار ان تفتح البوابة ويسمح لهم بالدخول ومقابلة ذويهم، وبعد انتظار ليس بالقصير فتحت باب السجن فدخلنا، كانت غرفة أبي رائد واسعة مرتفعة عن الارض وامامها فسحة صغيرة انتصبت فيها بعض الاشجار، وقد تناولنا طعام الغداء في ظل هذه الاشجار. يذكر ان السيدة ام سعد كانت تقيم في بغداد وكانت هي وابناؤها ينقلون الرسائل بين عبد الرحيم شريف وقيادة حزب الشعب السري خارج السجن.

يتذكر النحات المعروف الفنان عبد الجبار البنا، انه امضى عاما في سجن بغداد المركزي في نفس الفترة التي كان فيها عبد الرحيم شريف في السجن، وكان البنا عضوا في حزب الشعب وسجن بسبب مشاركته في الوثبة، زادت في هذه الفترة معرفته بعبد الرحيم شريف، فاعجب البنا بشخصيته وخلقه وثقافته وتواضعه وظلت تربطه بعبد الرحيم شريف وعائلته حتى الان اواصر صداقة قوية، و لشدة اعجابه بعبد الرحيم شريف صنع له تمثالا رأسيا وباكثر من نسخة بعد ثورة تموز 1958، ولازالت العائلة تحتفظ بكل نسخ التمثال.

في احد الايام وأثناء وجود عبد الرحيم شريف في السجن عثرت الشرطة في جيبه على ورقة كتب عليها " يجب ان يكون تنظيمنا ديمقراطيا ونشاطنا اشتراكيا"، قدم عبد الرحيم شريف للمحاكمة بسبب هذه الورقة وحكم عليه بعقوبة اضافية لمدة ثلاث سنوات.

اثناء وجود عبد الرحيم في السجن تقدم بطلب يد السيدة منيرة عبد الرزاق للزواج، و هي من اقاربه وتعمل مدرسة في وزارة التربية وتقيم في بغداد مع والدتها، وفي صيف عام1954 تزوج ابو رائد، وكان لا

يزال في بدرة يقضي فيها فترة الاقامة الاجبارية، وتمت مراسم الزواج الرسمية في بغداد بتوكيل خاص، ثم زفت اليه زوجته الى بدرة حيث اقامت فترة قصيرة معه عادت بعدها الى بغداد للالتحاق بعملها.

في العام 1954 كانت حكومة نوري السعيد تحضر لعقد حلف بغداد، فقامت باصدار مجموعة من القوانين المقيدة للحريات، بضمنها قانون اسقاط الجنسية العراقية وقانون الطوارىء الذي يعطي الحكومة الحق باعتقال من حكم عليه سابقا بقضايا سياسية بدون توجيه اية تهمة اليه بحجة تهديده للامن العام ودون تحديد مدة لاعتقاله، قرر عبد الرحيم شريف، كما قرر غيره، و لتلافي احتمال ان يعاد اعتقاله، الهرب من بدرة قبل انتهاء فترة اقامته الاجبارية، و لهذا الغرض ارسل الى اصدقائه في ترساق يطلب منهم مساعدته على ذلك، و بالفعل ارسل اليه اصدقاؤه فارسين رافقوه من بدرة الى ترساق ليلا، بعيدا عن اعين الشرطة، حيث اقام ضيفا عليهم الى ان خفت عملية البحث عنه، ثم تم نقله بنفس الطريقة الى بغداد، واقام مع عزيز شريف في مخبأ اعد خصيصا لذلك في الدار التي تسكنها عائلة عزيز شريف. في عام1955 وبعد ان اسقطت الجنسية العراقية عن عزيز شريف، غادر الاخير العراق الى سوريا، وأصبح عبد الرحيم شريف المسؤول الاول عن تنظيم وحدة الشيوعيين العراقيين السري وعن اصدار جريدة الوطن. في فترة الاختفاء هذه كان عبد الرحيم شريف يلتقي زوجته ام رائد، حيث كانت تسكن في دار مجاورة للدار التي تسكنها عائلة عزيز شريف.

لعب عبد الرحيم شريف دورا مهما في توحيد الحركة الشيوعية العراقية وحل تنظيم وحدة الشيوعيين العراقيين وانتماء اعضائه الى الحزب الشيوعي العراقي، فبعد تنحية حميد عثمان من سكرتارية الحزب الشيوعي العراقي وانتخاب سلام عادل سكرتيرا له تبنى الحزب الشيوعي نهجا جديدا في ميادين عدة من نشاطه، ومنها توحيد الحركة الشيوعية، ولهذا الغرض جرت مفاوضات بين وفد من الحزب الشيوعي وممثل حزب وحدة الشيوعيين العراقيين عبد الرحيم شريف، استمرت المفاوضات عدة اشهر انتهت في نيسان 1956 باصدار بيان من قبل حزب وحدة الشيوعيين بحل تنظيمه والاعتراف بخطأ تشكيل تنظيم شيوعي مستقل وانضمام اعضائه الى الحزب الشيوعي، وبعد حوالي شهرين تم الاتفاق على حل كتلة راية الشغيلة وعودة اعضائها الى الحزب الشيوعي ايضا. يتذكر الفنان البنا ايضا ان عبد الرحيم شريف قام بأبلاغ السيد ابراهيم احمد القيادي في الحزب الديمقراطي الكردستاني بالمفاوضات التي كانت تجري بين الحزب الشيوعي وحزب وحدة الشيوعيين العراقيين، وقد استحسن ابراهيم احمد عملية توحيد الحركة الشيوعية وتمنى للحزبين النجاح في عملهما.

في اعقاب توحيد الحزب الشيوعي العراقي عقد الكونفرنس الثاني للحزب في ايلول 1956 وقد شارك عبد الرحيم شريف باعمال الكونفرنس وانتخب عضوا في اللجنة المركزية الجديدة، وفي كانون الثاني 1958 تم اعتقال عبد الرحيم شريف من قبل مفرزة من رجال الامن في منطقة القصرالابيض، حيث كان خارجا من احدى الدور الحزبية هناك، وكان يحمل هوية نقابة المهندسين باسم مستعار، وحاول الافلات

منهم الا ان آمر المفرزة كان يعرف عبد الرحيم شريف، فاقتادوه الى مديرية الامن العامة وهناك تم التعرف عليه، بقي عبد الرحيم شريف معتقلا لبضعة اشهر الى ان اطلق سراحه بكفالة قبيل ثورة 14 تموز باسابيع وعندما اطلق سراحه كانت ام رائد على وشك ان تضع مولودها البكر رائد الذي ولد في 5 حزيران 1958 .

بعد اطلاق سراح ابي رائد ذهبت عصر احد ايام حزيران لاسلم عليه وأهنئه بمناسبة خروجه من السجن، استقبلني عند باب الدار مرحبا ثم التفت الى ام رائد متسائلا من؟ قالت له ماهر، فعاد وصافحني بحرارة مرة اخرى. بعيد ثورة تموز 1958 اصبح عبد الرحيم شريف مسؤول اللجنة الثقافية ومسؤول المكتب الاقتصادي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، ثم فيما بعد، مسؤولا عن جريدة الحزب العلنية اتحاد الشعب ورئيسا لتحرير مجلة الثقافة الجديدة التي اعيد ترخيص صدورها بعد الثورة، اي ان المهام التي كان يقوم بها عبد الرحيم شريف كانت تأخذ معظم وقته، خاصة اذا اخذنا بالاعتبار الزيادة الهائلة في عضوية الحزب بعد الثورة، اذ انها بلغت حتى اواخر عام 1961 اثنان وعشرون ضعفا مقارنة مع ما كانت عليه قبل الثورة.

لقد ترك الشهيد عبد الرحيم شريف بصماته على العمل الثقافي للحزب الشيوعي خلال الفترة التي كان يرأس فيها اللجنة الثقافية، وكسب حب واحترام المثقفين الشيوعيين والديمقراطيين، لثقافته العالية ودمث اخلاقه وقدراته التنظيمية واسلوب تعامله مع الرفاق العاملين معه.

في مقالة للاستاذ ابراهيم الحريري في طريق الشعب لمناسبة صدور جريدة اتحاد الشعب العلنية وصف الشهيد عبد الرحيم بالقديس. في اواسط الثمانينات من القرن الماضي تعرفت في وهران بالجزائر على احد الرفاق الذين عملوا في جريدة اتحاد الشعب العلنية في الستينات وفي جريدة طريق الشعب العلنية في السبعينات، سألته مرة عن رأيه في العمل في اتحاد الشعب والعمل في طريق الشعب فأجاب باختصار، في الستينات كنا نعمل في مؤسسة صحفية، وفي السبعينات كان العمل وفق اهواء شخصية.

زار عبد الرحيم شريف بعد ثورة تموز الاتحاد السوفييتي مرتين، الاولى عام 1959 للمشاركة في اعمال المؤتمر الاستثنائي الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي والثانية في 1960–1961 للمشاركة في اعمال مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية العالمية الذي عقد في موسكو في تشرين الثاني 1960، و قد التقينا به انا وثلاثة من اقاربنا، حيث كنا نواصل دراستنا الجامعية في مدينة موسكو، و بعد انتهاء زيارته الثانية غادر موسكو بالقطار متوجها الى برلين، كنت في توديعه في محطة القطار في موسكو، و كان في توديعه كذلك الشهيد جمال الحيدري، وبعد فترة قصيرة قضاها في المانيا الديمقراطية عاد ابو رائد الى ارض الوطن.

لم تكن لعبد الرحيم شريف حياة خاصة تقريبا، فقد انخرط في العمل السياسي منذ كان طالبا في كلية الحقوق، وقد اعطى كل وقته وجهده وتفكيره لهذا العمل ويمكن اعتبار الفترة بعد ثورة تموز 1958 الوحيدة التي التي كانت له فيها حياة خاصة، حيث كان يعيش مع زوجته واطفاله رائد واوراس في منزلهما الخاص، كأي عائلة اخرى،

ولكن حتى في هذه الفترة كان يمضي عبد الرحيم شريف معظم وقته خارج المنزل، كما ان هذه الفترة كانت قصيرة جدا، اذ بعد عودته من زيارة موسكو وبرلين استقبله احد الرفاق في مطار بغداد وبدلا من ان يذهب الى منزله ويلتقي زوجته وأطفاله، ذهب مباشرة إلى احد البيوت الحزبية وبقي متخفيا حتى 19 شباط 1963 تأريخ اعتقاله بعد نجاح انقلاب البعثيين المشؤوم، وكانت ام رائد تزوره مع ابنائهم كلما سنحت الظروف ليتمتع بقضاء بعض الوقت مع عائلته.

في مساء احد الايام من عام 1959 زارنا ابو رائد وعائلته في دار الوالد في الكرادة، و بعد امسية طويلة ذهبت لاوصلهم الى بيتهم في الوزيرية، اوصلت ابي رائد عند مدخل مطبعة الرابطة، حيث كانت تطبع جريدة اتحاد الشعب، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلا، ثم أوصلت العائلة الى المنزل، وكان اليوم التالي يوم عطلة الجريدة، ولكن تصادف ان الحزب الوطني الديمقراطي كان قد اعلن تجميد نشاطه السياسي في تلك الايام، فتقرر اصدار عدد خاص من جريدة اتحاد الشعب بهذه المناسبة.

صباح يوم8 شباط 1963 مر الشهيد عبد الرحيم شريف، وللمرة الأخيرة، على دار الوالد في الكرادة، وكان متفائلا بان الشعب والقوات العسكرية الموالية لعبد الكريم قاسم سوف تستطيع القضاء على الانقلاب، و بعد ان نجح الانقلاب قام الوالد بعمل ملجأ داخل البيت، يصعب اكتشافه، تحسبا لاحتمال، إذا ما سآءت الأمور، ان يحتاج ابو رائد الى مكان يختبيء فيه، ولكن الامور سارت اسرع وأسوأ مما كان متوقعا، ومع ذلك استفادت شقيقتي الصغرى من الملجأ، حيث اختبأت فيه اكثر من مرة عندما كان الحرس القومي يداهم منزل الوالد بحثا عنها.

اعتقل عبد الرحيم شريف مساء يوم 19 شباط 1963، نفس اليوم الذي تم فيه مداهمة عدد من الاوكار الحزبية التي يعيش فيها اعضاء اللجنة المركزية وبعض الكوادر المتقدمة، وكان ابو رائد يقيم في نفس الدار مع الشهيد جورج تلو وزوجته، وقد استشهد جورج تلو اثناء عملية الاعتقال، اما عبد الرحيم شريف فقد اقتيد الى قصر النهاية معصوب العينين موثوق اليدين، وعذب اثناء التحقيق معه بشكل وحشي، وانزل الى السرداب الشهير، ونتيجة التعذيب اصيب بكسر في الحوض افقده القدرة على الجلوس، وشارك في استجوابه وتعذيبه هاشم قدوري ومحسن الشيخ راضي وايوب وهبي وغيرهم.

مساء يوم السابع من اذار، و بعد تعذيب شديد، وهنت قواه و أمتلأ جسمه بالجروح وبدا وكأنه ينازع الموت، ثم فارق الحياة صباح يوم الثامن من اذار، بعد ان طلب جرعة ماء، حاول رفاقه مساعدته على شربها ولكن لم يتمكن.

امتاز عبد الرحيم شريف بميزتين هامتين، اخلاقه السامية وثقافته الواسعة، ستتذكر الاجيال القادمة من المناضلين العراقيين في سبيل حرية واستقلال وطنهم وبناء مستقبل زاهر لأبنائه الشهيد عبد الرحيم شريف بكل فخر واعتزاز.

الشهيد عبد الرحيم شريف..

خواطر وذكريات تجاوز عمرها الستين

عبد الوهاب احمد الحسك❖

اتخذت الهيئة المؤسسة لحزب الشعب قبل إجازته في 2 نيسان 1946 مقرا لها في مكتب احد أعضائها،المحامي عبد الأمير أبو تراب، الواقع في إحدى بنايات شارع المحاكم (المثنى حاليا)، وكانت الهيئة مؤلفة من سبعة أعضاء من ضمنهم المحاميان الشهيدان عبد الرحيم شريف و توفيق منير وكان من ابرز أعضائها (القاضي سابقا) عزيز شريف وهو الأخ الأكبر للشهيد عبد الرحيم، وكان يتمتع باحترام وتقدير واضح بين الشخصيات الديمقراطية والقانونية، ويتولى إدارة الحزب (تحت التأسيس) وتمثيله في الاتصالات والمداولات التي تجري بين الهيئات المؤسسة للأحزاب الأخرى (الوطني الديمقراطي –الاستقلال – الأحرار– الاتحاد الوطني). أما الشهيدان عبد الرحيم وتوفيق فكانا اللولب المتحرك لمهام الهيئة المؤسسة سواء في الالتقاء والتباحث والتوجيه مع المؤيدين، الذين كان معظمهم من خريجي الكليات والجامعات العراقية والأجنبية والشباب المثقف ممن يواصلون الدراسة في المعاهد والكليات، إضافة الى الإشراف وتحليل وإصدار جريدة (الوطن) التي يعرف عنها حينذاك لسان الهيئة المؤسسة. فكانت هذه الأعمال والمهام تستغرق النهار بكامله لعدم توفر كادر مهيأ ومدرب على الشؤون الصحفية بشكل جيد، لذا كانا لا يجدان فرصا كافية ومريحة لتناول الطعام والراحة بين عائلتيهما، مما يجعلهما يكتفيان بالنزر اليسير من الراحة. وكانا كثيرا مايقضيان ساعات الظهيرة وهما بملابسهما الداخلية يتصبب منهم العرق لعدم توفر وسائل التبريد وكانت (المهفة) تتحرك في يدهما مع المنديل الصغير القطني لمسح العرق المتصبب من جسميهما وخاصة جسم الشهيد توفيق منير الذي كان معروفا بضخامته وبدانته. كانت الساعات المحصورة بين وقت الظهيرة ومغيب الشفق هي الأكثر زخما بالزوار، لذا لم يكن هناك متسع من الوقت للراحة والقيلولة إذ كان الكثير منهم من المؤيدين للحزب والوافدين من المحافظات والمدن القريبة من بغداد. وكان لابد من الالتقاء بهم وتدارس مايطرح من أمور وتقرير ما يتجنب

عمله من الشؤون المتعلقة بالحزب. ولعل من المناسب هنا أن أتي على بعض أسماء المؤيدين البارزين ممن لاتزال ذكراهم عالقة في الذهن مثل الشهيد عبد الجبار عبد الكريم وهبي (أبو سعيد) الذي كان يكتب افتتاحيات جريدة الوطن أحيانا مذيلة بتوقيع ع.ج. وهبي والأساتذة عباس بلال وعبد الصاحب حداد وحسين عبد العال وفريد الأحمر (المهندس) وعبد الرزاق زبير وقاسم احمد العباس والوجه النقابي العمالي البارز حميد هندي والشيخ عبد الوهاب الماشطة (شقيق العلامة عبد الكريم الماشطة)، إضافة الى طلاب الصفوف المنتهية من الكليات ومنهم عامر عبد اللّه وكمال عمر نظمي وتوفيق الالوسي.

ومن الطريف أن اذكر هنا أنني وصلت الى بغداد من بعقوبة بعد ظهر احد أيام الصيف وكنت حينذاك طالبا في الثانوية ومعي احد المؤيدين من بعقوبة الموظف رؤوف سالم الهيتي نحمل عددا من العرائض الموجهة الى الحكومة والموقعة من بعض سكان لواء ديالى يطالبون فيها إجازة الحزب فلم أجد الشهيد عبد الرحيم فسالت المرحوم رشيد بكتاش (وكان يتولى تصحيح الأخطاء المطبعية في الجريدة قبل دفعها الى الطبع) عن الفقيد عبد الرحيم فأشار بقلمه الى زاوية إحدى الغرف. وهناك رأيت الفقيد وقد استلقى على حصيرة مفروشة على ارض الغرفة وقد توسد طابوقة بناء فاستفسرت من السيد رشيد عن الموضوع فقال أن الشهيد كثيرا مايمارس بعض الأمور الخشنة والصعبة ليدرب جسمه على ما قد يناله من أذى أو صعوبات في المستقبل .

كان الشهيد عنصرا محبوبا هادئ الطبع وسلس الحديث بعيد عن النرفزة والحدة أثناء، الحديث ينصت بهدوء الى من يتحدث وبدون أن يقاطعه ثم يتولى الرد على ما سمعه بنفس الهدوء وكانت اللهجة (العانية) المميزة كثيرا ما تسمع منه وهو يبتسم تلك الابتسامة التي تغمر وجهه بالبشر والترحاب وتملأ قلوب ملاقيه بالراحة و الاطمئنان. إنني ورغم مرور أكثر من ستين عاما على لقائي به لاتزال هيئته الطيبة المحبوبة ترافقني وكأني المحه أمامي بشكل أكيد، فهو من الأشخاص الذين ترسخ ذكراهم في نفوس معارفهم .

ورغم أن فترة إجازة حزب الشعب كانت قصيرة جدا لاتتجاوز سنة ونصف حيث سحبت إجازته في 29 أيلول 1947 فان الذكريات مازالت تعيش في نفوسنا وعقولنا خاصة وان الكثير منا (أعضاء حزب الشعب سابقا) وجدنا طريقنا لمواصلة النضال من اجل حرية وطننا وسعادة شعبنا. حيث اختار غالبية أعضاء حزب الشعب، وفي مقدمتهم الشهيد عبد الرحيم شريف، طريقهم الى الحزب الشيوعي العراقي. و تبوأ الشهيد و منذ وقت مبكر و عن جدارة و آهلية فكرية و سياسية و ثقافية و اجتماعية الموقع الذي يستحقه في قيادة الحزب الشيوعي، وظل عبد الرحيم شريف رحيما نزيها مع أصدقائه و رفاقه، وانتصب بعد اعتقاله في قصر النهاية اثر انقلاب 8 شباط المشؤوم عام1963 قامة شامخة ساخرا من جلاديه حتى لحظة استشهاده.

*عبد الوهاب احمد الحسك:

من مواليد مدينة بعقوبة في عام 1926 درس الابتدائية والمتوسطة والإعدادية فيها ثم التحق بكلية الحقوق عام 1945 – 1946 وتخرج منها عام 1949-1950. التحق وهو طالب في الإعدادية بصفوف حزب الشعب وتعرف أثناء دراسته الإعدادية بالشهيد عبد الجبار وهبي الذي عين مدرسا في ثانويتها، عين السيد عبد الوهاب وهو طالب في كلية الحقوق موظفا في مديرية الاستيراد والتصدير أثناء تولي الفقيد ناظم الزهاوي إدارتها، وعند تخرجه من الكلية عين ملاحظ لإحدى شعب الاستيراد. وخلال توظفه فصل لعدة مرات لنشاطه السياسي ومشاركته في التظاهرات. وأثناء فصله مارس مهنة المحاماة مع المرحوم عبد الوهاب القيسي الذي نشط في (لجنة معاونة العدالة) للدفاع عن الموقوفين السياسيين. بعد ثورة 14 تموز المجيدة أعيد تعينه معاونا لمدير الاستيراد والتصدير العام فكان معروفا بنزاهته واستقامته الشديدين بين التجار والمستوردين وبين أقرانه من الموظفين. فصل من الوظيفة واعتقل بعد انقلاب شباط الأسود 1963. أعيد للوظيفة عام1968 وعين مديرا للتجارة الداخلية في مصلحة تنظيم تجارة الحبوب. أحال نفسه على التقاعد عام1979 ولا زال ناشطا رغم مرضه وكبر سنه حيث وقف في أول انتخابات بعد التغير في منطقته (الحارثية) أمام الناخبين وقال: الحمد للّه الذي أبقاني على قيد الحياة لانتخب الحزب الشيوعي.

(الثقافة الجديدة)

عندما كان الشهيد
عبد الرحيم شريف مبعدا في بدرة

فـــــاضل عـبـــــاس الـبـــــدراوي

اختار النظام الملكي قضاء بدرة مكانا لإبعاد المناضلين الشيوعيين والديمقراطيين بعد انقضاء سنوات سجنهم إذ كانوا يرسلون الى بدرة لوضعهم تحت مراقبة الشرطة لمدة عام أو عامين. وكان اختيار السلطات بدرة مكانا للإبعاد لكون المدينة بعيدة عن العاصمة ومركز محافظة واسط (لواء الكوت آنذاك) إذ تقع المدينة في أقصى شرق العراق على الحدود الإيرانية بدأت الحكومة بإبعاد هؤلاء المناضلين الى بدرة ابتداء من أواسط عام 1948 .

كان من بين المبعدين الشخصية الوطنية والديمقراطية البارزة المحامي عبد الرحيم شريف فقد حكم عليه بالسجن أثناء الهجمة التي شنتها حكومة نوري السعيد على الحزب الشيوعي العراقي والقوى الديمقراطية بعد إعلان الأحكام العرفية أواسط عام 1948 بذريعة حماية مؤخرة الجيش العراقي الذي أرسل الى فلسطين لتحريرها من العصابات الصهيونية، على حد زعم الحكومة آنذاك .

كان الشهيد عبد الرحيم شريف من أقطاب حزب الشعب اليساري الذي أسسه عدد من الشخصيات الديمقراطية عام 1946 بزعامة شقيقه الأكبر خالد الذكر عزيز شريف إلا أن السلطات حلت الحزب عام 1947 وقد دفع ذلك الإجراء عددا من أعضاء الحزب وفي مقدمتهم عبد الرحيم شريف الى تكوين منظمة سرية سميت (حزب وحدة الشيوعيين) وأصدرت جريدة سرية باسم (وحدة النضال) وقد اعتقلت السلطات عبد الرحيم شريف في عام 1949 وحكم عليه بالسجن أربع أو خمس سنوات، لا أتذكر بالضبط، وبعد إكمال مدة سجنه ابعد الى بدرة أواسط عام 1952 لقضاء مدة مراقبة الشرطة التي كانت عامين على ما أتذكر .

منذ اليوم الأول لإبعاده الى بدرة لفت أنظار أبناء المدينة إليه لسبب دماثة خلقه وتواضعه وكان يجالس الناس البسطاء في مقاهي المدينة ويقدم لهم النصائح القانونية

بصفته محاميا عندما يطلبون منه ذلك في أمور يحتاجونها خلال مراجعاتهم الى المحاكم لعدم وجود محامين في المدينة في تلك الفترات. كما انه ترافع في عدد من الدعاوى أمام محكمة بداءة بدرة لمواطنين كانوا بحاجة ماسة لمن يترافع عنهم. وكانت تلك المرافعات تتم بدون أي مقابل مادي بالرغم من كونه مبعدا سياسيا . وبسبب ذلك السلوك الإنساني والاجتماعي الرفيع كون علاقات اجتماعية مع الكثير من أبناء المدينة الذين كانوا يكنون له حبا واحتراما كبيرين امتدت تلك العلاقة حتى بعد انتهاء سنين المراقبة ومغادرته لبدرة.

لا ادري بالضبط هل انتهت مدة إبعاده و غادر الى بغداد أم هرب من بدرة قبل انتهائها واختفى عن الأنظار وتفرغ للنضال السري وقيادة منظمة (حزب وحدة الشيوعيين). في بداية عام 1959 جرت اتصالات بين الحزب الشيوعي العراقي والرفيق الخالد سلام عادل ومنظمة حزب وحدة الشيوعيين أثمرت عن حل المنظمة واندماجها مع الحزب الشيوعي وفي خريف نفس العام انتخب الرفيق عبد الرحيم شريف عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بعد انعقاد الكونفرنس الحزبي. وفي بداية عام 1958 وأثناء حملة حكومة نوري السعيد على الحزب الشيوعي اعتقل الرفيق عبد الرحيم شريف في منطقة الكرادة الشرقية واعتقل معه الفقيد عزيز احمد الشيخ الذي كان هو الآخر عضوا في اللجنة المركزية للحزب .

بعد ثورة 14 تموز 1958 المجيدة تفرغ الرفيق عبد الرحيم شريف الى العمل في جريدة الحزب المركزية (اتحاد الشعب) كمدير للتحرير، والتي صدرت بشكل علني في بداية عام 1959. وكان لي شرف التعرف عليه شخصيا عندما كنت أكلف من الحزب بالقيام بالخفارة في مقر الجريدة التي اتخذت لها مكانا في عمارة تقع في محلة فضوة عرب في شارع الكفاح (مازالت قائمة لحد الآن)، كذلك أثناء قيامي بمعاونة العاملين في مطبعة فريد التي كانت تقع في شارع الشيخ عمر، حيث كانت تطبع فيها الجريدة. كان الرفيق عبد الرحيم يتعامل مع العاملين في الجريدة شغيلة ومحررين بشفافية وتواضع كبيرين، إضافة لثقافته الغزيرة وسعة افقه السياسي. وبعد إغلاق الجريدة عام 1961 أصبح الرفيق عبد الرحيم مسؤولا عن مكتب الصحافة والتثقيف المركزي في الحزب لحين اعتقاله بعد انقلاب شباط الأسود عام 1963 حيث استشهد تحت التعذيب صامدا شامخا لم يستطع جلادو البعث من النيل من شرفه الحزبي. استشهد وهو يحافظ بأمانة على أسرار حزبه ورفاقه .

تحية للذكرى العطرة للشهيد الخالد الرفيق عبد الرحيم شريف.

مقـــــالات

أهمية تبني إستراتيجية التربية والتعليم لتنمية الطاقات البشرية المستدامة

د. سمير حسن ليلو*

الخلاصة :-

ضرورة صياغة فلسفة تربوية جديدة تضمن إحداث تنمية في الطاقات البشرية تُعد بمثابة الطاقة الدائمة والمستدامة القادرة على النهوض بالقطاع الاقتصادي والاجتماعي والفكري. ولفرض إنجاح العملية التربوية والتعليمية لا بدّ من رصد 25٪ من الميزانية السنوية الكلية لقطاع التربية والتعليم والبحث العلمي وتأسيس مجلس أعلى يضم كافة الوزارات المعنية بالشأن التربوي والثقافي، لإحداث نقلة نوعية في كافة المجالات المتعلقة بالتعليم بدءا ببناء المدارس والمعاهد والجامعات وتغيير المناهج وأساليب التدريس وإعداد المعلمين والمدرسين والمشرفين التربويين وكافة المعنيين في حقل التربية والثقافة، واعتماد منهجية البحث العلمي على كافة المستويات والمراحل واعتماد طريقة المشاركة بين الطالب والمعلم بدل طريقة التلقين الآلي المستخدمة حالياً لتنمية الإبداع والقدرات الذاتية في البناء والتطور وفوق كل هذا زرع التآخي والمحبة والتعاون والسلام الاجتماعي ونبذ العنف بكل أشكاله.

أولا: المقدمة:- لقد أصبح واضحاً أن التربية والتعليم هما العمودان اللذان يستند إليهما وجود الانسان المدني والحضاري في عصرنا الحالي. كما أنها مصدر التحديث والحداثة والارتقاء الشامل للمجتمع، وهما بالإضافة لذلك يسهمان في بناء الطاقة الدائمة والمستدامة من خلال بناء مجتمع قادر على جعل الاقتصاد مثبتاً ومزدهراً

*خبير مهندس كيميائي

ودائم التطور في المستقبل.

وفي ظروف العراق الحالية فإنهما يشكلان أيضاً أسلوب معاصرة المستقبل فيه بعدما عانى العراقيون من عزلة طويلة عن العالم المتمدن أيام الحصار وحتى قبلها بسبب القصور السياسي والموقع الجغرافي مقارناً مع بلدان أخرى. بالإضافة لما يعانيه الناس من مواريث تاريخية متجذرة ومعروفة من أساليب العنف وعدم تقبل الرأي الآخر والعودة إلى قيم البداوة القبلية وحالة الخوف التي تقتل روح الإبداع (1)، وما آلت إليه الأمور بعد أحداث التغيير عام 2003 وإلى الآن من تمزق سياسي وطائفي وعرقي جعل يلجأ إلى الرموز الدينية والطائفية في اختيار ممثليه في السلطة ظنّاً بأنه سيضمن دنياه وآخرته في ذلك الاختيار مرة واحدة.

من هنا تبرز أهمية إدراك ضرورة التأسيس لفلسفة جديدة هادفة إلى صنع شخصية متنورة ومتطلعة إلى المعرفة و متحررة من الإيمان المطلق بمسلمات متواترة منذ أجيال عدة دون أن تكون معززة بالأدلة والبراهين العلمية وغير المنسجمة مع روح العصر الذي يعيش فيه، ومتكاملة في نسيجها الفردي والاجتماعي.

والمقصود بالفلسفة التربوية الجديدة هو: صياغة مناهج جديدة للجيل الجديد بشكل يعطي جرعة أكبر للعقل والمنهج التجريبي والذي يقود الإنسان نحو اكتساب مهارات وخبرات قادرة على حل المشاكل والمعوقات التي تواجهه وتنمي روح الإبداع. فالمدرسة كما يقول ديوي في كتابه " المدرسة والمجتمع" (2) يجب أن تكون مجتمعا مصغرا يصبح فيه الأطفال مواطنين أذكياء ونافعين عن طريق صنع أشياء بصورة مشتركة. وكانت مدرسة ديوي معملاً حيث يصنع الأطفال أشياء ويشرعون بعد ذلك في أن يتعلموا الكثير عنها عن طريق تجاربهم المعملية، تحت توجيه المدرس الذي يبحث عن معلومات إضافية في الكتب. ومثال على ذلك كان يقدم للأطفال مواداً خاماً مثل الكتان، ونباتات القطن، وصوفاً مأخوذة من ظهور الأغنام، وكانوا يدرسون الأنواع المختلفة من الألياف، واخترعوا مناهج لفصلها، وللغزل والنسيج وجعل القماش الذي صنعوه ثياباً. وكانت الأنشطة المدرسية الأخرى تتعلق بعمل النجارة والحدادة وفن الطبخ وغيرها. وفي عصرنا الحالي أصبح العمل التجريبي يأخذ مساره في المعاهد الفنية والجامعات في الدول المتقدمة صناعياً كي تتهيأ لهم الفرص في العمل المناسب لأعمارهم في تطوير الروبوتات و الأجهزة الالكترونية والمعدات المختلفة الأكثر تعقيداً. وهكذا تتركز كل مواد ومقررات التدريس الأخرى بقدر المستطاع حول ما تتطلبه الأنشطة المدرسية من معلومات في الفيزياء والكيمياء والأحياء وحتى العلوم الإنسانية والجغرافيا والتاريخ وغيرها وهكذا فأن فلسفة التربية تكمن في أن العملية التربوية تعني الجماعات البشرية على استمرار وجودها، وتهدف تلك المجموعات البشرية التي تتقدم بقصد إلى تنوع أعظم من الأهتمامات وتشارك فيها بالتبادل، ولا تقتصر على المحافظة على عادات راسخة ومتأصلة، أنها تكون ديمقراطية في المساواة، وتسمح بالحرية لأعضائها، ومصلحة عامة واعية. والمثال الديمقراطي هو إعادة بناء أو إعادة تنظيم التجربة. ويجب أن تستمر هذه العملية في المجتمع. ولا بد أن تكون المدرسة مجتمعاً يتم

فيه إثراء تجربة التلاميذ وتنظيمها عن طريق أنشطة مشتركة، ولابد من اختيار موضوع التعليم ومناهجه بالنظر إلى هذا المثال.

إن المدرسة يجب ألا تكون محاكاة أو مجرد نسخة من حياة اجتماعية معاصرة في العالم الخارجي. إذ ينبغي عليها أن تبسط المشكلات حتى يستطيع التلاميذ أن يفهموها ويتصرفوا بذكاء. و يجب أن تسير حياتهم العامة وفق خطة أخلاقية أفضل من خطة العالم الخارجي. ويجب أن تتطلع إلى ديمقراطية أفضل وتساعد على إيجادها. ويجب عدم قبول تصورات من الماضي بدون إعادة بناء دقيق على ضوء التجربة المعاصرة والاحتياجات، لذا يمكن اعتبار أن الفلسفة ذات مهمة مزدوجة: المهمة الأولى هي: أنها تنقد أهدافاً موجودة بالنظر إلى العلم الحالي، والمهمة الثانية : أنها تميز بين أهداف أصبحت مهملة ومهجورة وتغلب عليها العواطف وأهداف يمكن إعادة بنائها لكي تواجه المواقف الاجتماعية الراهنة وأن التربية هي معمل تختبر فيه المذاهب الفلسفية بصورة عملية. ولا بد أن تستمر إعادة بناء الفلسفة والأفكار الاجتماعية والمناهج معاً لكي تواجه مواقف جديدة مترتبة على تغييرات مستمرة في الحياة الاجتماعية التي يلازمها تقدم علمي وثورة صناعية وتطور ديمقراطي. وفي العراق فإن المدرسة بحد ذاتها دخيل طارئ ولا يُفهم من الديمقراطية سوى حكم الأكثرية وصناديق الاقتراع والتبادل السلمي للسلطة، فلم تعد الديمقراطية مقتصرة على ذلك فحسب بل تعدت في ممارسات الفرد وسلوكه ونمط تفكيره والتي لا بد أن تنشأ مع الإنسان منذ نعومة أظافره ومنذ النشأة الأولى في البيت والمدرسة والمحلة.

لقد مرت على العراق عقود عديدة من الحكم الدكتاتوري الفردي وحروب أنهكت المجتمع عبر عزلها لجيلين عن العلم والمعرفة وشوهت بنية المعرفة وأصالتها من خلال سيطرة جهة واحدة على مقاليد الحكم والتحكم المفرط لأيديولوجية واحدة في كل شيء وأفرزت من خلال ذلك خراباً كبيراً وواضحاً في تشوه بنية المدرسة التربوية والتعليمية ، فلم تكن إنجازات تلك المرحلة سوى استنزاف الطاقات البشرية العلمية والثقافية المتراكمة قبل عام 1968م وذلك من خلال هجرة العقول المنتجة إلى الخارج (3)، ولا داعي للرجوع إلى الإحصائيات التي تشير إلى مستوى الهبوط المثير الذي وصلت إليه المدرسة العراقية فلا داعي لدفع مجاميع من الشباب يحملون شهادات دون تحصيل علمي حقيقي و كفاءة عالية. ولما كان تقدم المجتمع مرهون بتصورات وانطباعات وتلقين الأطفال منذ مراحل نموهم الابتدائي وإلى مراحل الشباب المتقدم لأنهم سيصبحون رجال المستقبل وبناة البلد وطاقاته الدائمة والمستدامة، ولكي يكون هذا البناء ثابتاً ورصيناً لا بد لنا من بذل أقصى الجهود للإعداد الصحيح للأجيال القادمة.

أما المقصود بتبني إستراتيجية التربية والتعليم هنا: وضع الخطط المستقبلية للتربية والتعليم على ضوء ظروف البلد الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في الوقت الراهن وما تتطلبه الخطة التنموية المستقبلية وفق الإمكانات المتاحة، وإعادة هيكلة منظومة التربية والتعليم والثقافة بالشكل الذي ينسجم مع روح العصر ومغادرة محطة التخلف.

ثانيا:- تخصيصات التربية والتعليم من الميزانية السنوية للدولة

لّما كان الإنسان بحد ذاته هو الطاقة الدائمة والمستدامة حيث تستطيع الأمم أن تجد لها سبيلاً في النهوض والعيش الرغيد والبناء الثابت الرصين من خلال ما ينتجه أبناؤه من ثمار طاقاتهم المبدعة والخلاقة في كافة المجالات كالزراعة والصناعة والبناء والإعمار والثقافة والعلوم والتكنولوجيا والتي تشكل الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي دون الاعتماد على النفط والغاز وبقية المواد الأولية المحدودة وغير المستدامة. لقد تركز الاعتماد الكلي على المواد النفطية في العراق منذ بداية الإنتاج النفطي الكبير لأغراض التصدير عام 1927، أي منذ ما يزيد عن ثمانين عاماً دون التوصل إلى الاعتماد على القدرات المحلية حتى في عملية استخراجه وتصفيته وتصنيعه بالشكل الذي يعطي قيمة مضافة أعلى ، ومهما بلغ حجم المخزون النفطي في باطن الأرض فإنها ثروة ناضبة وسيأتي اليوم الذي تتناقص فيه أو تقل أهميته أو يتعرض لهزات السوق العالمية وتذبذباته وتقلبات الأسعار، وقد تؤدي سياسة الاعتماد الكلي على الإيرادات النفطية إلى كوارث اقتصادية لا يحمد عقباها. إن سياسة العراق النفطية ماضية قدماً نحو استخراج نفطي مضاعف أو حتى إلى أربعة أضعاف ما يُنتج حالياً، وهذا يعني بالنتيجة أن المخزون النفطي سيتناقص هو أيضا بفترة زمنية أقل، -فعلى سبيل المثال- لو كان المخزون النفطي مستمراً بالتدفق لمدة (100) عام بمعدل الاستخراج الحالي على افتراض أن المخزون النفطي المؤكد هو 115 مليار برميل ولم نحصل على أرقام أخرى مؤكدة لحد الآن تشير بوجود احتياطي أكبر سوى تكهنات وتصريحات غير مستندة على حقائق علمية رصينة. إن مضاعفة الانتاج النفطي من (2.5) مليون برميل يومياً إلى (10–12) مليون برميل يومياً -كما سمعناها- فإن فترة نفاذ هذا المخزون ستصبح (25) عاماً بدلاً من (100) عام المفترضة، ولا نريد الخوض في مدى صلاحية هذه السياسة النفطية من عدمها هنا، ولكن الغرض من هذا المثال هو توضيح مدى الحاجة لإيجاد وللتخطيط لموارد بديلة من الآن، وذلك يتمثل في تنمية الطاقات البشرية المنتجة والقادرة على خلق منافذ بديلة للثروة أو حتى تفوقها كما هو الحال بالنسبة لبلدان النمور الأسيوية المعروفة مثل كوريا الجنوبية، واليابان وسنغافورة، وماليزيا، والصين، والهند، وغيرها ممن يستورد النفط ولا يوجد لديهم ثروات معدنية يعتد بها.

هذا من جانب، ومن ناحية أخرى فأن الدولة الريعية وذات حكومة تعتاش على دخل غير مكسوب من جهود الناس وطاقاتهم المبدعة بل من استخراج وتصدير موارد في باطن الأرض أنعمتها الطبيعة تميل إلى الاستبداد وغير مسؤولة ولا تكترث بحاجات الشعب وحقوقه، وتبقى ذات اقتصاد متأخر ومؤسسات سياسية ضعيفة، إن لم تكن بدائية، ويبقى الصراع على السلطة والمناصب قائماً باستخدام شتى الوسائل، ويبقى عدم دفع الضرائب أو دفع ضرائب واطئة يقود إلى تراخي المجتمع وانخفاض رغبته في مسألة الحكومة، وينتج عن ذلك مجتمع مدني ضعيف فاقد لوسائل الكبح والموازنة أو فصل السلطات حتى تكبح

الواحدة منها الأخرى، وفاقد للمؤسسات الباعثة على النمو الاقتصادي المستدام. من هنا تظهر أهمية تخصيص ما لا يقل عن (25٪) من الميزانية السنوية لصالح التربية والتعليم والثقافة بكافة مراحلها ابتداء من الحضانة ورياض الأطفال والمدارس الابتدائية التي يجب أن تكون نموذجية والمعاهد والجامعات وكل ما يرافق ذلك من وسائل متاحة لخدمة الثقافة والتوجيه العلمي الصحيح للمجتمع كوسائل الإعلام المختلفة والمحطات التلفزيونية الفضائية والصحف والمجلات، والمسارح، ودور السينما، ودور النشر، وبناء المكتبات العامة، وتطوير وسائل الاتصال المحلي والعالمي معاً وقبل أن تلتهمها الميزانية التشغيلية التي وصلت إلى 80٪ من أموال الصادرات النفطية كل سنة كما هو الحال في ميزانية عام2011 الحالية. إن تبني تخصيص هذه النسبة أو أعلى أو أقل منها ليس بالأمر الصعب، فقد وصلت المملكة العربية السعودية لتخصيص أعلى من هذه النسبة لقطاع التربية والتعليم رغم تحفظنا على المنهاج والأسلوب المتبع في ذلك البلد، ولكن نعتقد أن مجرد إدراك أهمية إعداد كوادر متخصصة وعلمية سوف يجنون ثمارها في المستقبل رغم كل الصعوبات التي يواجهونها في البداية، هذا بالإضافة إلى إرسال بعثات ودورات تدريبية إلى البلدان المتقدمة للإسراع في عملية نقل المعرفة. إن العملية التربوية المتبعة في البلدان المتطورة صناعياً ضمن منظومة تعليمية متوحدة في الآلية والغاية ابتداء من الروضة ولا تنتهي بالتخرج من الجامعة بل تستمر أثناء العمل بعد التخرج ولا تتوقف عند حد أو فئة عمرية معينة، فالإنسان يحتاج إلى التعليم والتدريب في كافة المراحل العمرية، ولا يمكن الاعتماد على الشهادات فقط كمصادر للكفاءة وإشغال المناصب الحساسة بدلاً من الكفاءة الفعلية، وهنا لا بد من الإشارة إلى ضرورة التخلص من الهرولة غير المجزية وراء الشهادات والتي تقود أحياناً إلى لجوء البعض للحصول على شهادات مزورة وذلك بإتباع أساليب تقييم الكفاءة بطرق مختلفة كالمقابلات الشخصية وامتحانات الخطأ والصواب المعمول بها في البلدان المتقدمة.

ثالثا:- أهمية القضاء على الأمية والجهل

هناك ظاهرة أخرى برزت بوضوح في العراق قريباً، ألا وهي ظاهرة تفشي الأمية والجهل، حيث تشير الإحصائيات الواردة من الأمم المتحدة لعام (2010) بأن عدد الذين لا يعرفون القراءة والكتابة بلغ ٩ ملايين نسمة وهذا الرقم يشكل نسبة تزيد عن 50٪ من السكان البالغين عموما وأغلب هذه النسبة من النساء وهذا الرقم في ازدياد كل عام إذ تُضاف له أعداد الأطفال الذين لا يلتحقون بالمدارس الابتدائية بالإضافة إلى أعداد المتسربين من الأطفال منها، ومن هنا تبرز أهمية البدء ببرنامج التعليم الإلزامي الابتدائي لغرض حصر الأمية كخطوة أولى لمكافحتها والحد منها. ولا يسعنا إلا أن نقول هنا أن على الحكومة أن تسرع في إنشاء مراكز محو الأمية ومعالجة ظاهرة تسرب الأطفال وعدم التحاقهم بمدارسهم فوراً. إن عملية نشر الثقافة والتعليم ومحو الأمية والقضاء على الجهل والتخلف سوق تؤدي حتماً إلى تخفيف التطرف الفكري في المجالات القومية والدينية والسياسية والذي

عانينا منها ولا تزال أثارها باقية فينا شئنا أم أبينا طالما بقيت الأمية والجهل تشكل نسباً عالية في المجتمع. لقد أدت عزلتنا عن العالم إلى ابتعادنا عن المدنية والتطور وإلى إنتاج التطرف المذهبي والديني والقومي والسياسي، ونجم عنه المزيد من التخريب الشامل لحقيقة وأسس وبنيّة التربية والتعليم مما يستلزم بدوره صياغة رؤية شاملة ومنظومة متكاملة تستند في مرجعيتها ومنهجيتها النظرية والعلمية إلى فلسفة واضحة لسياسة التربية والتعليم وأساليبها.

يمكن وضع هذه المرجعية حالياً ضمن ما يمكن دعوته بالأسباب الضرورية لإحياء العملية التربوية في العراق(4) أضف إلى ذلك فإن عملية بناء الديمقراطية المرجوة تحتاج إلى المزيد من الثقافة والمعرفة ولا يمكن ممارسة السبل الديمقراطية لشعب تبلغ نسبة الأمية فيه 50٪ من أفراده المؤهلين للترشح والانتخاب في المؤسسات التشريعية.

إن القضاء على الأمية والجهل سيتيح الفرص الحقيقية لاختيار الممثلين الحقيقيين الذين بمقدورهم أن يوصلوا البلد إلى بر الأمان والسير قُدما نحو التقدم والرفاهية.

رابعا:- تغيير طرق التدريس وإعداد المعلمين:-

لقد كان الوصف القديم للعملية التربوية والتعليمية يُمثَّل في المثلث التربوي والتعليمي (الطالب، المعلم، المنهج) إلا أن هذا الوصف يتجاهل التطورات الحديثة في العملية التربوية والتقدم العلمي في مجال تقنية المعلومات والاتصالات، فالاتجاه المعاصر للتربية والتعليم يرى أن الطالب هو محور العملية التربوية وغايتها وهدفها، أما المنهج فهو الإطار العام للتعليم الذي يتم بموجبه تأهيل الدارسين للقيم والأنماط السلوكية والمهارات والمعارف اللازمة لحياة الإنسان كمواطن يمتلك شخصية فعالة في مجتمعه بحيث يتحمل مسؤوليته في بناء العراق الديمقراطي المنشود في عصر العولمة الزاخر بالتطورات العلمية والتكنولوجيا، دون إلقاء اللوم في كل صغيرة وكبيرة على الحكومة ومن يرأسها بالذات. علينا أن نبتعد عن أسلوب التلقين لمناهج معدّة مسبقاً وأسلوب الحفظ والامتحان على مادة غير محدثة منذ سنين طويلة (5). وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن المناهج في الدول المتقدمة أصبحت تتغير كل 5 سنوات بالكامل لكي تواكب التطورات العلمية والتكنولوجية. لقد أثبت أسلوب التلقين لمناهج معدّة مسبقاً فشله في إنتاج جيل قادر على مواكبة العلم والتكنولوجيا وقاتل للإبداع وبناء الشخصية المقتدرة، وكما هو واضح لدينا أن الطالب ينسى كل ما تلقاه من معرفة بعد خروجه من الامتحانات بفترة وجيزة. إن الطريقة الحديثة في التعليم تعتمد أسلوب المشاركة بين الطالب والأستاذ من خلال فسح المجال لكل التساؤلات والمقترحات ومناقشتها بإسهاب كي يتم استيعابها وترسيخها في عقول التلاميذ منذ الصغر، وبالتالي سوف تفتح آفاق التفكير في السؤال عن كيف ولماذا؟ حصل هذا وذاك مما يدور حولنا وفي محيطنا بدلاً من القصور على تساؤل (أين ومتى؟) أن تفتح أذهان التلاميذ في تساؤل كيف؟ ولماذا يعطي الثقة في قدرة العقل البشري على حل كل مشاكله التي تواجهه دون الاعتماد الكلي على الأمور الغيبية والأساطير والخرافات التي لا تزال آثارها موروثة منذ العصور القديمة في بلاد

الرافدين(6). وعلى هذا فقد ازداد دور المعلم أهمية، إذ لم يعد دوره ملقِّناً للتلاميذ ليحفظوا ويكرروا ما لُقنوا به بل صار دوره مكتشفا لقابلياتهم ومحفزاً ومثيراً لخيالهم وقدراتهم ومشجعاً لإبداعاتهم، وهذا ما يتوجب الاهتمام بإعداده وتأهيله بين الحين والآخر ليواكب ما يستجد في عالم المعرفة عموماً وفي مجال أساليب التربية والتدريس وعلم النفس خصوصا. إن إعداد المعلمين كما نريد يتوجب تهيئة الظروف والعوامل المساعدة لجذب أفضل الطلاب من خريجي الدراسات الثانوية لمعاهد وكليات إعداد المعلمين وتحبيب مهنة التعليم لهم لما تنظمه من امتيازات مادية ومعنوية واجتماعية وباقتناعهم بأهمية التعليم وبقدسية رسالته في خدمة المجتمع والمواطن. لقد أصبحت عملية إعادة تأهيل المعلمين وتزويدهم بأساليب وطرائق التدريس الحديثة ضرورة ملحة، فإذا استمرت طرق التدريس التقليدية في تلقين المعلومات للطلبة والتي المفكر الفرنسي "باولو أو فراوي" (7) بالتعليم المصرفي (البنكي) الذي يتميز بلهجته المتعالية وعدم قدرته على إحداث التغيير وتنمية الإبداع، فالطلاب ينحصر دورهم في الحفظ والتذكر وإعادة ما سمعوه دون التعمق في المضمون وهذا يؤدي بالنتيجة إلى سهولة نسيانه وبالتالي مضيعة في الجهود. إن هذا النوع من التعليم يفرض على الطلاب أسلوب التذكر الميكانيكي لمحتوى الدرس، وتحويلهم إلى أوانٍ فارغة يصب فيها المعلم كل معلوماته وكلما كان المعلم قادراً على القيام بهذه المهمة فإن ذلك دليل على كفاءته (حسب مقياسهم) وما دامت الأواني قادرة عل الامتلاء فإن ذلك دليل على امتياز الطلاب، وهكذا أصبحت وظيفة التعليم تحويل الطلاب إلى بنوك يقوم فيها المعلمون بدور المودعين وليست وسيلة من وسائل نقل المعرفة والاتصال. إن البديل التلقيني اللاحواري هو الحوار الناقد الذي هو مفتاح التغيير، لأنه يؤمن بإيجابية المتعلمين وإنسانيتهم مما يساعدهم على التخلص من الأوهام والأساطير الموروثة منذ أقدم العصور.

لقد أطلق فرايري مقولته الشهيرة للتعليم: "التعليم لا يكون محايداً فإما أن يكون تعليماً للحرية أو تعليماً للاستعباد". إن وظيفة التعليم وظيفة تحررية ونقدية ترفض فكرة اعتبار المعلم ناقلاً للمعرفة عن طريق تلقينها أو أن المعلم وسيط في العملية التعليمية ، بل مطلوب منه الانخراط في إنتاج المعرفة من خلال الموقف الجديد للطالب والمعلم اعتماداً على المعارف السابقة المتأتية من مصادر مختلفة (خبرة الحياة أو خبرات سابقة). إن اللحظة المهمة في موقف التعليم هي التي يقوم فيها الطالب بتقييم معرفته وتوظيفها في عملية إنتاج المعرفة، فالمعرفة الحق تنبثق من الإبداع الذي هو وليد الاهتمام المستمر بطرق التربية الحديثة. ولذلك نجد أن الجامعات في الخارج تعتبر منجماً للعلم والمعرفة الحديثة تنطلق منها كل الاكتشافات والمخترعات الحديثة من خلال تلك العلاقة بين الطالب والمعلم.

يتضح مما تقدم أن العملية التربوية لا تقتصر على بناء المدارس والجامعات فحسب حيث أن هذا البناء يمكن القيام به بكل بساطة من خلال اختيار خارطة هندسية نموذجية تأخذ بعين الاعتبار العوامل المؤثرة في نفسية التلاميذ في حبهم وتعلقهم

بالمدرسة والمباشرة في البناء المعماري الحديث بموجب تلك المواصفات، ورغم أهمية هذه العملية في الوقت الحاضر إلا أن العملية التربوية تتضمن إعادة النظر في كل المناهج وطرق التدريس وإعداد المعلمين والمفتشين التربويين بشكل دوري ومستمر دون توقف على مدار السنة. إن تقويم الواقع التربوي والتعليمي في العراق ينبغي أن يتم بمراجعة مكونات المنهج وفقاً للنظرة الحديثة، فلو نظرنا للمقررات الدراسية الحالية في العراق نلاحظ بقائها على سابق عهدها دون تغيير مواكب للتطور والتقدم العلمي الحاصل في العالم بسبب غياب فلسفة تربوية وتعليمية وظلَّ الكتاب المدرسي متخلفاً في محتواه ومن حيث التصميم والإخراج والطباعة أيضاً.

خامسا:- تأثير البيت والشارع في التربية والسلوك:-

لابدّ لنا من الإشارة هنا إلى عوامل مؤثرة أخرى في عملية بناء الشخصية وخلق الإبداع لدى الإنسان العراقي ألا وهي تأثير البيت والشارع والمحلة الذي يقضي بها الطالب جلَّ أوقاته. إن فشل أو نجاح العملية التربوية يعتمد إلى حد كبير على ما يتلقّاه الطالب من معاملة خارج المدرسة، لذلك فقد توجب على المسؤولين في تبني العملية التربوية الشاملة في العراق أن يضعوا نصب أعينهم تلك العوامل ووضع السبل اللازمة لجعلها ملائمة كي لا تُفسد ما تمّ تقويمه في المدرسة، ومثال على ذلك هناك العديد من الطلاب يعانون من العنف الأسري ومن زملائهم في الشارع مما يؤثر بشكل خطير على تفويض بناء الشخصية القوية المنشودة. ومن هذا المنطلق لا بد من الاهتمام بسن قوانين وتعليمات لردع كل هذه الممارسات أسوة بما هو معمول به في الدول المتقدمة، حيث يُسأل الطالب عن أي عنف أو ضرب تعرض له في البيت وإذا ثبت لهم ذلك فإن الأهل يتعرضون لمساءلة قانونية صارمة تؤدي أحياناً بحجر الطفل أو التلميذ الصغير عن أبويه لفترة من الزمن ونقله لمصحات نفسية لتقويم شخصيته، وقد يتعرض الأطفال للقيام بأعمال مضنية وفوق طاقاتهم الجسمية بسبب العوز المعيشي وعلى المدرسة أن تراقب ذلك وتقدم الحلول المناسبة كلاً حسب حالته كي نستطيع الاطمئنان لبناء جيل قادر على النهوض والتقدم دون الانتظار لمجيء الشركات الأجنبية والمستثمرين لبناء البلد الذي لا بد من مساهمة أبنائه في القسط الأكبر وإلا سوف يصبح البناء هشّاً كما حصل في السابق.

وأخيراً لا بدّ من الإشارة إلى ضرورة الاهتمام بالتربية والتعليم في القرى والأرياف النائية ونشر الوعي الصحي فيها كي يتمكن أبناء المناطق من تحسين أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ويصبحو منتجين للمحاصيل الزراعية والحيوانية ويتمسكو بمناطقهم دون اللجوء إلى الهجرة من الريف إلى المدينة والتي أصبحت ظاهرة دائمة في العصور السابقة.

الاستنتاجات والتوصيات:

من أجل تبني النهوض بواقع قطاع التربية والتعليم والثقافة في العراق لا بدّ من تبني فلسفة للتربية والتعليم يمكن من خلالها حصول نقلة نوعية بواقع الحالة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للبلد من خلال إتباع

الخطوات التالية:-

تأسيس مجلس أعلى للتربية والتعليم والثقافة لرسم سياسة إستراتيجية بعيدة المدى ومتابعة كل الخطوات المطلوبة للنهوض بواقع التربية والتعليم ولديه كافة الصلاحيات بتحديد أهداف التربية والتعليم بضم كافة الوزارات المعنية بالأمر (التربية والتعليم، التعليم العالي والبحث العلمي، العلوم والتكنولوجيا، الثقافة، المؤسسة الإعلامية، العدل والشباب والاستعانة بالمكاتب الاستشارية المعنية).

زيادة الميزانية المالية لقطاع التربية- والتعليم بنسبة لا تقل عن25٪ من الميزانية العامة السنوية للأعوام القادمة لإكمال متطلبات النهوض بهذا القطاع المتعلق بخلق جيل جديد قادر على مواكبة العصر.

إعادة بناء وتأهيل المدارس المطلوبة بأسرع وقت ممكن لاستيعاب كافة الطلبة وبالطرق الحديثة مع بناء مراكز "محو الأمية"

إعادة النظر في تغيير كافة المناهج المدرسية وضرورة الابتعاد عن أسلوب التلقين لمناهج معدّة مسبقاً وإتباع أسلوب المشاركة بين الطالب والمعلم لتنمية الإبداع عند الطلاب.

الاهتمام بإعداد المعلمين وتجديد تأهيلهم بصورة دورية على مدار السنة بالإضافة إلى تقوية دور المشرفين التربويين والإداريين وفقاً لأحدث الأساليب واختيارهم وفق أسس موضوعية تعتمد الكفاءة والخبرة والإخلاص في العمل.

العمل على المشاركة والتكامل المعرفي داخل وخارج المدرسة والجامعة والاهتمام بكل وسائل المعرفة والإيضاح المتاحة بما في ذلك وسائل الاتصال في الداخل والخارج.

المصادر والمراجع

د. سمير ليلو الطائي " مقدمة في تاريخ العنف السياسي " قراءة جديدة في الفكر السياسي العراقي، الطبعة الأولى (2010) دار دجلة للنشر والتوزيع —عمان —الأردن

جون ديوي " الديمقراطية والتربية" ترجمة منى عقراوي وزكريا ميخائيل، لجنة التأليف والترجمة والنشر —وزارة المعارف — بغداد (1946) .

ميثم الجنابي " العراق ورهان المستقبل" دار المدى للثقافة والنشر، سوريا —دمشق، الطبعة الأولى (2006) .

د. عامر ياس خضير القيسي " الواقع التربوي والتعليمي في العراق" مجلة تضامن العدد الثامن —أيار (2009).

باولو فرايري " تعليم المقهورين " ترجمة يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت (1982).

الهوامش:

(1) د. سمير ليلو الطائي " مقدمة في تاريخ العنف السياسي " قراءة جديدة في الفكر السياسي العراقي، الطبعة الأولى (2010) دار دجلة للنشر والتوزيع -عمان -الأردن

(2) جون ديوي " الديمقراطية والتربية" ترجمة منى عقراوي وزكريا ميخائيل، لجنة التآلف والترجمة والنشر —وزارة المعارف —بغداد (1946) (3) ميثم الجنابي " العراق ورهان المستقبل" دار المدى للثقافة والنشر، سوريا —دمشق، الطبعة الأولى (2006) .

(4) د. عامر ياس خضير القيسي " الواقع التربوي والتعليمي في العراق" مجلة تضامن العدد الثامن —أيار (2009).

(5) باولو فرايري " تعليم المقهورين " ترجمة يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت (1982)

(6) د. سمير ليلو الطائي " مقدمة في تاريخ العنف السياسي " قراءة جديدة في الفكر السياسي العراقي، الطبعة الأولى (2010) دار دجلة للنشر والتوزيع —عمان —الأردن

(7) باولو فرايري " تعليم المقهورين " ترجمة يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت (1982)

التدريس المعماري في العراق الى أين..؟

د. مـــوفق جـــواد الـطـــائـي*

لابد لنا ونحن نستعرض طرائق تدريس العمارة ان نعرف قبل ذلك ماذا نريد من تدريس العمارة وبالتالي ما هي الفائده المطلوبة منها لمهنة العمارة . هل المطلوب ثقافه ام معرفة (ادراك) مهنية أم علوم صرفة؟ وبالتالي سيترتب على ذلك أثقال العماره بالتنظير والعقلانية دون الموازنة مع الإبداع والابتكار والحس العاطفي. وهذا قد يقود الى احتمال الابتعاد عن العمارة كظاهرة حدثية آنية وتحولها الى مجرد نصوص كتابية ورسوم بعيدة عن الموقف الشمولي المتوازن وتصبح الظاهرة المعمارية انفراداً ثقافياً نصياً غير حدثي .

تدريس العمارة لا يشابه تدريس أي من العلوم والفنون. انه حدث مهني قد لاتبلغ به مادة العلوم او الفنون 20٪ اما الباقي فهو لغة الجسد والإظهار الحدثي والاتصالات، وعندها يستوجب أن يكتسب المدرس مهارات تربوية من اساتذة مجربين في مجال العمارة، إضافة الى الإلمام بما يفوق به طلابه بالإظهار والاتصالات، ويواكب بشكل مستمر الانجازات العلمية الدائره ويحدث معلوماته عبر الانترنت وبشكل دوري مستمر. لقد سئم الطلاب المراجع القديمه البالية مثل نيوفرت في الأركنومك وبري في الانشاء وكتب مواد البناء المطبوعة في الستينات. فعلينا التفكير الجدي في البحث في الانترنت عن مصادر معرفه جديدة غير التي ابتلى بها كثير من مدرسي العمارة الذين اصبحوا لايختلفون عن مدرسي الملازم في الإعدادية.

الجامعي المعماري لا يأخذ راتبه كمعماري فهذا يساوي ثلث راتبه الجامعي أنه ياخذه كمدرس معماري وهذا مراس تربوي لا يمكن أن يحصل عليه الا بمناهج تربو يه والتعلم كمساعد ثم التدريس ولاحقاً يقيّم من قبل تربويين (وليس مهندسين فقط) واساتذه زائرين وبعدها يحق له التدريس. لقد كانت هناك فجوة حدثت بين جيلين من المدرسين المعماريين. المجموعه الأولى التي

*معمار أكاديمي

درست وتدربت في الخارج والجيل الجديد الذي تعلم في العراق والذي قد لايتذكر كثير من مآثر رواد التعليم المعماري. وما زاد في الطين بلة أن حدث في أيام صدام النهج الفاشي في تبعيث التعليم الجامعي (السلامة الفكرية) حيث ترك التدريس عدد من المدرسين (ولي الشرف أن أكون أحدهم) وتم الإبقاء على البعثيين فقط مع إعفاء عدد من الذين يحتاجونهم بشكل كبير، والاستغناء عنهم كان سيسبب التوقف في التعليم وكانوا غير مجابهين للنظام، أما الآن فيتم التعيين فقط على أساس المحاصصة والذين لايعرفون ما قبل وما بعد. والحل هو دورات التعليم المستمر والاستعانة بالأساتذه المجربين الزائرين والأخذ بمبدأ أستاذ المادة.

كان لحرفة تدريس العمارة تاثيرها على العمارة وانعكاس على التمرين الذهني للرواد على العمارة العراقية وكان تبادلا معرفيا أحدهما يؤثر بالآخر في ترابط عضوي انشأ عالمنا الذي كنا نعرفه قبل التلوث البصري البذيء الحالي .

أثرت جامعة ليفربول الإنكليزية على المنهج المعماري لكلية الهندسة في جامعة بغداد بتركيزها على تخطيط المدن والبيئة وذلك لأن جل الرواد كانوا منها: أحمد مختار، محمد مكيه، إحسان عبد اللّه، جعفر علاوي، وعبد السلام فرمان. أما منهاج همرسمث الفني التشكيلي فلم يكن مؤثرا رغم محاولات رفعت الجادرجي إقحامه أحيانا كما كان هناك شيء من تأثير الدراسات المفاهيم الفضائية الزمكانية لقحطان المدفعي .هذا ما كان الوضع عليه في البدء قبل مجيء (جايكه وليخ) ومجموعة أساتذة من بلدان أوربا الشرقية والذين التزموا بدورهم بمنهاج ليفر بول مع أضافة شي من الإبداع والعقلانية الاشتراكية من قبلهم في نهاية الستينيات. أما من الناحية المهنية فقد كان معظم الخريجين من انكلتره من حملة شهادات معرفية (شهادة معهد المعماريين البريطاني) وليس الماجستير والدكتوراه الثقافية.

شهدت بداية السبعينات من القرن العشرين مجيء مجموعة كبيرة من أساتذة عراقيين من انكلترا والاتحاد السوفيتي قاموا بتجديد أسلوب التدريس وحدّثوا المنهاج الانكليزي الرصين السابق بعد أن ساعدوا بالتدريس مع الأساتذة الأجانب والرواد العراقيين وتعلموا فن التدريس وقد تم الاستفادة من جميع الخبر الأجنبية الحرفية. وانطلاقا من ترشيد الروس ومهنية الأنكليز وفنية الفرنسيين وفي صراع اخوي جميل سعى الجميع لإيجاد نهج فلسفة تدريس للقسم المعماري. وكان لي شرف تغيير وتدريس العمارة بمناهج ولأول مرة في العراق ومنها المناهج التي أعددتها لماده تذوق العمارة والتصميم الداخلي والتطبيق العملي لنظريات التشكيل. وقد تمت الأستعانة بأكثر التشكيليين المبدعين مثل المرحوم كاظم حيدر، وتمكنا من تدريس اهم مقومات العمارة في درس الرسم للصف الأول. كما قام الأستاذ عاطف السهيري بإعداد منهج الإنشاء وفق أحدث الأنظمة العالمية، والدكتور خالد السلطاني (تاريخ العمارة)، والمرحوم يوسف علوان وزوجته إلا (الهندسة الوصفية ورسم الظلال). وأستمر الرواد احسان كامل وهشام منير وعبد السلام فرمان وناصر الأسدي وغيرهم يمدون زخم هذا التحول بفكرهم وتجربتهم

السديدة. وقد الغي قسم العماره في الموصل لانفراده بمنهج خاص يشبه الهندسة المدنية ولكن مع الأسف عادوا بعد عقد وارتكبوا نفس الخطأ.

في نفس الوقت تم في الجامعة التكنولوجية إنشاء قسم معماري من قبل مخطط مدني، الى أن جاء رياض تبوني وحسام الراوي وصاحب العزاوي وغيره فتحول الى قسم معماري جديد رائد وبتجربة كبيرة لم يقدر لها الأستمرار وهو التخصص في العمارة قبل التخرج. غير أن هذه التجربة لم تستمر وتغير المنهج الى ثقافة العمارة وليس العمارة ذاتها. وتوجد الآن محاولات أصيلة وجيده لتحويله الى عمارة معرفية وليس ثقافية من قبل الأستاذ خليل العلي والذي من حسن الحظ انه يحمل شهادة معرفية (عضوية معهد المعماريين البريطانيين) وليس الشهادات الثقافية. أما الموصل فقد كان منهجها يناسب أساتذته المهندسين المدنيين، في حين استفادت البصرة من خبرة الأستاذ خليل العلي الجيدة غير أنها و بشكل عام لم تبلور منهاجها الخاص.

كان لي الشرف في بداية القرن الحالي أن أساهم بالإعداد والتدريس في القسم المعماري لجامعة النهرين وكنا نأمل التدريس باتجاهين: الأول (باهاوسي) مهني على شاكلة كليتي جامعة شمال لندن، والثاني فني معرفي وبالأسلوب الذي أرتآه لاحقا الدكتور ساهر القيسي متأثرا بجامعة القاهرة. كنا نعمل على اساس جعله منهاجا معرفياً وليس ثقافياً لكن الوضع العام وتركي التدريس ثم الرجوع إليه لم يساعد على ذلك لان الأسلوب المعرفي يعني تواجد معماري فعلي والعمل على تدريس العمارة كظاهرة مرئية تستوجب معدات اظهاروتواجد فعلي في البيئة المبنية الحديثة أو التراثية. غير أن ظروف الحرب لم تساعد على ذلك و لكن الخطى الجادة والحثيثة االذي يقوم به القسم ورئيسه الدكتور جاسم الدباغ لايجاد فلسفة خاصة بالقسم تمثل خطى واعدة وتبشر بالخير .

ومن جانب آخر لابد لنا من التعرض الى المناهج العالمية والتغير الذي حصل فيها ومدى استفادتنا من ذلك. وهنا نستعرض وعلى عجالة التعليم المعماري في أمريكا وأوربا وذلك لتاثيرها المستمر على التعليم في العراق. فهارفرد وباركلي استمرت في نهجها بتدريس العمارة مع التخطيط والتصميم الحضري والأقليمي و لكن معهد ماسوشست MIT ركز جهوده على تطوير الدراسات التاريخية ومختبر وسائل الإظهار والاتصالات. أما انكلتره فهناك اتجاه AA الحر يخطئ ويصيب ويبحث عن المختلف و (النشاز) كما الحال مع المعمارية زها حديد وليفربول الذي يركز على تخطيط المدن وكذلك جميع الكليات الأنكليزية تحت مظلة منهاج RIBA الأسلوب المهني، وشمال لندن: الأسلوب المهني الحرفي (الباهوسي) ومؤخرا شيفيلد: الأسلوب الثقافي حيث يوجد لديها كميات جيدة من فصول دراسية في الماجستير والدكتوراه غير السائدة في انكلترا. فالمهنية تكتفي بـ RIBA ودبلومات الاختصاص وهذا ما جعلها معرفية وليس ثقافية. أما فرنسا فقد غلب عليها الطابع التشكيلي، في حين غلب على ألمانيا الطابع الحرفي العلمي.

لعل أهم ظاهرة في التعليم المعماري هي استخدام الحاسوب وبالذات نظام (الأتوكاد)

وهذا سلاح ذو حدين: فهو سلبي اذا ما اتبع منهجية ميكانيكية ثابتة، وايجابي اذا ما تم اعتماد منهجية دينامكية ميكانيكية تعتمد الميزات (features) كأساس لتحديد النموذج الأكفأ في الظاهرة المعمارية وكما يصوره الواقع الافتراضي. وهذا يعني بالضرورة اعتماد النظام ليس فقط للإظهار وانما نظام معد للتصميم وبكافة مراحلة: من الشروع ولحد تسليم المبنى وإنهاء دراسة التغذية المرتدة. ان استخدام الحاسوب للاظهار فقط يعني تحديداً كبيراً لامكانيات الحاسوب كاداة علمية فعالة وتجميد لقابلية الطلاب المبدعة. وقد أنتبهت لذلك جميع جامعات العالم وافردت لذلك مادة تدريسية خاصة هي مختبر الحاسوب والاتصالات.

بعد هذا العرض المكثف لا بد من طرح السؤال التالي: أين نجد أنفسنا من كل هذا؟ من المناسب أن نشير هنا الى ضرورة تأهيل الكادر التدريسي المعماري عن طريق التعليم المستمر واعتماد خبرة الأساتذه المهنيين المجربين التربويين والمعماريين كاساتذة زائرين وتطوير نظام (الأتوكاد) ليشمل جميع مراحل التصميم وليس الإظهار فقط وإنما ليصبح مختبرا للأفكار التصميمية ولجميع مراحل التصميم. وبالمقابل لابد من إشراك الكوادر التربوية و العلمية والفنية والتاريخية والتخطيطية في عملية التدريس المعماري، وذلك من خلال دورات التعليم المستمرلاجل تنضيج التعاون بين صنوف الثقافة لإيجاد عمارة معرفية. ومن المؤكد أن التوجه سوف يؤدي الى بروز جيل من المعماريين المتميزين وبالتالي ظهور عمارة معرفية رصينة.

٥٥ والزعيم)1(

عقيل الناصري

لقد تمخض عن الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية إن تشكلت، على أنقاضها ، نشوء العديد من الدول في المشرق العربي. كانت ولا تزال السمة الأرأسية لكل هذه الدول تكمن في طابعها التسلطي ومن سماته التضاؤل المتزايد للمجال السياسي للتعبير عن الرأي المستقل.. وهذا ما تجسد بصورة أكثر وضوحاً في المطالبة بحرية التعبير وضرورته لتطور المجتمع الذي قادته فئة الإلنتلجنسيا العراقية الوليدة، خاصة بعض من عناصرها المتطلعة إلى إحداث تغييرات بنيوية في أسس المجتمع وبما يتلاءم مع روح العصر وبالتوافق مع زمنيتها ومحليتها وواقع بنائها المادي.

يوضح تاريخ العراق المعاصر، أن هنالك شخصيات فكرية وسياسية، قد أثرت في مجرى التطور الاجتماعي وفي تحديث التاريخ العام للمجتمع المرتبط بالتغيير المادي والمعنوي.. لأنه هناك فكرة هيغلية مفادها إن مفهوم: (**التاريخ هو عملية تغيير الإنسان لبيئته، وأنه حيثما لا يوجد تغيير فليس ثمة تاريخ**) فإن كان ثمة تغيير في مجتمع ما.. فهناك تاريخ جديد. إن الكتابة عن هذه الشخصيات وتحليل مضامين أدوارها بروح نقدية ستستكمل ذاتها المعرفية من خلال الربط الجدلي بين البعد التاريخي للزمن.

لقد مارست هذه الشخصيات أدواراً متباينة، من حيث درجة المساهمة في تهيئة تربة التغيير الغائي، كل حسب **ممكنه التاريخي من جهة وحسب عمق التأثير من جهة ثانية والمنطلق الفلسفي لمفهوم التغيير من جهة ثالثة.** وهكذا سنجد شخصيات لعبت دورا بارزاً، حسب ممكن موقعها، في إعداد تربة التغيير والمساهمة في فعله، ارتبط أغلبها بحاملها الطبيعي الاجتماعي، إلا وهي الطبقة الوسطى بفئاتها المختلفة. يوضح تاريخ العراق المعاصر مساهمات العديد من هذه الشخصيات التي أثرت في الواقع والأفكار والممارسات الاجتماسياسية، انطلقوا من:

- أولوية عراقوية العراق، وليس عروبية العراق؛
- الواقع الاجتماسياسي ومدى قربه من الديمقراطية الاجتماعية كنظام حكم ؛
- من ألنزعه المستقبلية للعراق.

ومن هذا المنطلق، يمكننا تفسير بروز علماء ومثقفين انطلقوا من واقع التخلف ليحلقوا في سماء المعرفة والتغيير، حتى أمسوا من (المثقفين العضويين) وساهموا ليس في تهيئة تربة التغيير لواقع المجتمع، بل اخذوا بعلمهم ونشاطهم العضويين يساهمون في صيرورة التغيير ذاتها.. رغم الظروف القاسية التي أحاطت بهم. علماً بأن أغلبهم عاش المرحلة الملكية ونشأوا فيها، إلا أن أدوارهم الأرأسية تبلورت بعد ثورة 14 تموز، عندما أتاحت لهم فرصة ليس رسم القرار المركزي للدولة حسب، بل تنفيذه. لذا مثلوا الحلقة المركزية للسلطة في الجمهورية الأولى (14 تموز1958- 9 شباط 1963).

كانت تاريخية الحركة الاستقلالية، سواء في المرحلة العثمانية أو الملكية، ومن ثم النزوع نحو استكمال الاستقلال السياسي والاقتصادي في المرحلة الجمهورية " **لم يقتصر على مقاومة الحكم الاستعماري والعمل على التحرر منه، بل أستهدف إلى جانب ذلك، أن يكون الحكم الذي تنشده في ظل الاستقلال التام دستورياً ديمقراطياً، وهذه كانت الديمقراطية طابعاً للحركة الوطنية الاستقلالية في العراق منذ بدايتها وطيلة مسيرتها... " سواء في الجمهورية الأولى أو في مرحلة الحزب الواحد (الجمهورية الثانية شباط 1963- نيسان 2003) ولحد الآن كما اعتقد، طالما أن العامل الموضوعي الكامن وراء الحركة الاستقلالية وما أُضيف لها من أبعاد اجتصادية سياسية، لا يزال ماثلاً في جوهره في الجمهورية الثالثة (نيسان 2003)**.

هنا نتذكر ونشير بقوة التاريخ إلى:

– تلكم الشخصيات اللبرالية والتي لعبت دور التنوير منذ أواخر العهد العثماني من أمثال ميخائيل تيسي، والدكتور حنا الخياط، والزهاوي وغيرهم؛

– الرواد الأوائل للفكر ألمساواتي (الاشتراكي) وما لعبوه من دور في إدخال المفاهيم الجديدة ، إلى عقول الفئات الاجتماعية الحديثة (الانتلجنسيا، والطلبة والطبقة الوليدة الناشئة– العمال) جماعة حسين الرحال ؛

– الوطنيون العراقيون الذين انطلقوا من الفئات التجارية القروسطية المتنورة وبعض من ضباط الجيش. وكان خير من يمثلهم الحزب الوطني برئاسة محمد جعفر أبو التمن، ومن ثم جماعة الأهالي ولاحقا الحزب الوطني الديمقراطي وكذلك(نادي التضامن ، جمعية الإصلاح الشعبي، نادي بغداد، جمعية الرابطة الثقافية وغيرهم)؛

– القوى الاشتراكية الراديكالية من تنظيمات ماركسية ومن ثم الحزب الشيوعي، والفئات المتأثرة بأفكاره أو القريبة منه فكرياً: كحزب الشعب والاتحاد الوطني والمنظمات الثقافية الأخرى ؛

– منظمات المجتمع المدني التي تأسست منذ الأربعينيات وأخذت تبث الروح الثقافية المعاصرة والدعوة للبرلمانية الحقيقية. كالجمعيات المهنية والنقابات العمالية والتنظيمات الطلابية وغيرها.

لقد تصدت هذه المؤسسات وغيرها الدائرة في أفلاك قوى سياسية أو/ أثنية أو/ دينية، ومحورت أوجه الصراع الاجتماسياسي التي غطت القرن المنصرم لذا تبوءوا ما يمكن أن نطلق عليه **حداثويو**

عبد الجبار عبد اللّه

لقد ترعرع العالِم في مثل هذه الأجواء العامة وذلك الحراك الاجتماسياسي الذي ساد المجتمع منذ تأسيس الدولة المركزية والآمال معلقة عليها، باعتبارها العتلة المركزية للخروج من التخلف، ومن ثم على الفئات والطبقات الاجتماعية الجديدة. إذ كان هذا العالِم من المساهمين في هذا الحراك العام باعتباره من صفوة العاملين في الحقل المعرفي. فإذا كانت الثلاثينيات مثلت عهد تكوينه المعرفي والعلمي، فإن سنوات ما بعد الحرب، كانت بدايات تألقه العلمي في حقل اختصاصه ومساهمته العضوية في الحقول الثقافية والتربوية، مما أهلته ليكون احد علماء المعرفة طيلة رحلته العلمية، التي لم تخل من المصاعب والآلام وصاغت منه نموذجاً للإنسان الملتزم بالموضوعية والعلمية ومؤمناً بالحرية الفكرية والاستقلالية في البحث العلمي.

هذه القيم المعيارية وأعماله المتعددة أهلته أن يجتاز حدود الوطن إلى المؤسسات العلمية في العالم من خلال المشاركة في المؤتمرات العلمية وما عرض عليه لتولي مناصب أكاديمية فيها. إلا أنه ربط جدلياً بين هذه وبين مهمة خدمة بلده والمساهمة في الارتقاء به من خلال تبوئه لأهم مؤسسة أكاديمية/ جامعة بغداد، وكذلك عمله في الطاقة الذرية.

عاش عبد الجبار عبد اللّه في سنوات تكونه الاجتماعي ومن ثم الفكري والوظيفي في أُسرة دينية (**قيل**) إن الحاجة والفاقة لازمتها من جهة، ومحيط اجتماعي متنوع في تكوينه الاثني والديني والسياسي من جهة ثانية. ومن طائفة دينية صغيرة الحجم كمياً لكنها كبيرة في العراقة والتأريخ الطويل في الحفاظ على تكوينها، ولكنه لم يكن متزمتاً دينياً رغم نشأته في أسرة روحانية حيث كان والده وجده وجد والده، الرؤساء الروحانيين للديانة المندائية كلٌّ في زمانه . هذا المحيط الاجتماعي لعب دورا مهماً في صياغة شخصيته وما تميز به من تواضع اجتماعي وفكر إصلاحي، مثلت الأساس الأول لتكوينه النفسي والفكري/ الثقافي والسياسي، وإن لم ينتمِ إلى السياسية بمفهومها الضيق (الحزبية).

مَثَلَ الواقع العراقي، في تنوعه الاجتماعي وامتداده العربي، أحد مصادر ثقافته، غير التخصصية، فقد كان مولعاً، في تاريخ العراق والأدب العربي، حتى قيل أنه مارس كتابة الشعر إذ "... كان شاعراً ومثقفاً واعياً بأهمية التراث العربي... " وكان يجيد عدة لغات: العربية، الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية والآرامية. كان التنوع في مصادر الثقافة، حافزاً قويا دفعه إلى معترك الممارسة العضوية للحياة والتبني النظري والعملي للفكر اللبرالي في منحاه اليساري. حيث سعى، مع صحبته، إلى العمل على إشاعة أجواء الحرية الفكرية وتكريس النضال الحياتي من أجل التطلع للعراق القادم. وهذا ما يتجلى في شبكة أصدقائه ومعارفه، في البدء ممن زاملوه من طلبة الإعدادية المركزية ببغداد، حيث أصبحوا يمثلون الجيل الثاني من الأنتلجنسيا العراقية ورواد الفكر الديمقراطي واليساري، والتي مارست فعلها منذ الأربعينيات وبالأخص في الجمهورية الأولى، كعبد

الفتاح إبراهيم، رشيد مطلك، حسين جميل، زكي خيري، عبد القادر وعبد اللّه البستاني، عاصم فليح، أمينة الرحال، لطفي بكر صدقي، مهدي هاشم، محمد صالح القزاز، عبد القادر السياب، علي حيدر سليمان ، إبراهيم حلمي، عبد المجيد حسن ، جميل توما، نوري ميخائيل وغيرهم . كما "...إن التدقيق والتأمل في حياة عالمنا خلال هذه المرحلة من حياته، تعطينا تصورا واضحاً عن مدى الفرص التي أُتيحت أمامه للتعرف بشكل أو بآخر إلى العديد من الشخصيات الوطنية التي قامت بدور سياسي فاعل في العراق خلال المراحل اللاحقة ، مثل شخصية عبد الوهاب مرجان، رئيس وزراء العراق (1957-1958) **وعبد الكريم قاسم رئيس وزراء العراق (1958-1963) اللذان كانا من زملائه المعاصرين في مرحلة الدراسة الإعدادية في بغداد...** كما إن الأحداث السياسية المهمة والخطيرة التي ترافقت مع تلك المرحلة، قد تركت ولاشك أثراً من جهة ثانية، كما حصل مثلا في الاحتجاجات التي قام بها الطلبة في بغداد وفي مقدمتهم طلبة الإعدادية المركزية ضد زيارة آلفريد موند إلى بغداد عام 1928، وليس بمستبعد أن يكون عبد الجبار عبد اللّه أحد هؤلاء الطلبة المحتجين على تلك الزيارة، أو تكون مثل تلك الأحداث قد تركت أثراً مهما في بناء شخصيته الوطنية في المراحل اللاحقة ".

لقد أُرسل العالِم في بعثة دراسية عام 1930-1931 إلى بيروت على حساب وزارة المعارف باعتباره من الأوائل على العراق آنذاك، و " كان الجو السياسي في الجامعة الأمريكية جواً حراً مفعماً بمشاعر معادية للإحتلالين البريطاني والفرنسي...في هذا الجو السياسي الوطني تكونت نواة تنظيمية من عدد من الطلاب العراقيين الذين يدرسون في الجامعة الأمريكية في بيروت، ضمت عبد الفتاح إبراهيم،علي حيدر سليمان، جميل توما، عبد اللّه يكر، نوري روفائيل ، درويش الحيدري، إبراهيم بيثون وأنا وآخرين. جاءت المبادرة من عبد الفتاح إبراهيم وكان لولبها، عقدنا اجتماعاً تدارسنا فيه ما يمكن أن نقوم به وقررنا تنظيماً وطنياً باسم الشعبية يعمل من أجل تحرير البلاد... بالاشتراك مع عدد آخر من الطلاب العراقيين الذين لم يكن لهم أدنى علم بتنظيم الشعبية قدمنا، بعد ذلك، طلباً رسمياً لتأسيس ناد سمّيناه (نادي النشء العراقي)... ".

وقد انتسب عبد الجبار عبد اللّه إلى هذا النادي الذي كان يهدف لتوحيد الطلبة العراقيين، لان العديد من أصدقائه كانوا من بين هؤلاء الطلبة...وهكذا تطورت بذرة (الشعبية) إلى تنظيم سياسي(جماعة الأهالي) ومن ثم الحزب الوطني الديمقراطي الذي كان يناضل من أجل دمقرطة العراق. هكذا بذرت البذرة الأولى للتيار الديمقراطي من هذه المجموعة التي شكل الأشخاص المحوريين فيها **جمعية الرابطة الثقافية عام 1943**، حيث قامت بدور ثقافي ديمقراطي في أربعينيات القرن المنصرم، بوسائل متعددة كإصدار النشرات وتشجيع البحث العلمي والتوسع في نشره، التأليف والترجمة وإلقاء المحاضرات وإقامة وتوطيد العلاقات الثقافية مع الجمعيات والنوادي الاجتماعية المتشابهة الأهداف والتوجه الفكري. كما أصدرت الجمعية مجلة

(الرابطة) وأسست شركة للطباعة خاصة "...ومع ذلك فإن مجلتها **التي شغل فيها عبد الجبار عبد اللّه موقعاً مهماً ، كانت هي الأهم بين جميع نشاطاتها،** كما يؤكد ذلك أحد أعضائها... ". وهنا يبرز عبد الجبار كأحد الشخوص المحوريين في الرابطة، حيث شغل منصب سكرتير التحرير منذ عددها الأول في آذار عام 1944 " ولغاية العدد الثاني عشر... فحل محله خدوري خدوري، سكرتيراً جديداً لها...".

لقد أوضحت مساهمات العالِم وكتاباته الأولى في المواضيع الاجتماعية والفكرية قدرته ومدى تعلقه بالأفكار اللبرالية والديمقراطية والتحرر لكل حراك جمعي، وكشفت عن توجهه الفكري والفلسفي في دعم فكرة الحداثة، وهذا ما يمكن تلمسه في مقالاته (الحرية والضرورة) و(الحرية والضرورة في المجتمع) ثم (نشأة العلم) و (العلم والتطورات الاجتماعية) وغيرها. وقد أكملتها رؤيته لواقع العراق عندما أخذ يكتب المقالات أو المحاضرات حول دور الجامعة وأفق تطورها.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا أخذ عبد الجبار عبد اللّه هذا المنحى الفكري المعتدل؟؟ ترى:

– هل يكمن ذلك في كون هذا المنحى يصب في ماهيته في البحث عن الإنسان؟

– أم إن إحساسه بأن هذا التيار يطالب بحقوق التكوينات الاجتماعية المختلفة ويدافع عنها في حرية المعتقد والحقوق الثقافية ؟

– أم من انتمائه للمجموعات السكانية ذات الدخل المنخفض، وما لاقاه من شظف العيش، قد دفعت به إلى هذا التوجه ؟

– أم أن صحبته للالنتجنسيا النامية ودعاة المساواتية لعبت دوراً في ارتقائه ودفعته إلى الانضمام لهذا التيار ؟؟

– أم تماثل هذا كله مع أبعاده النفسية والروحيه ونظرته إلى صيرورة التغيير المستندة على العلم وبه يمكن ويكمن طريق التطور؟

هذه الأسئلة وغيرها يمكن البحث فيها وما حولها، للوصول إلى ماهياته الحقيقية. يمكننا القول إن الحقيقة التاريخية ستقف دالة على انتماء هذا العالِم إلى " مملكة العقل والعلم والإنسان" والمنطلق منها وإليها. مما أهله أن يكون من بناة تاريخ العلم للعراق المعاصر.. خاصةً في انطلاقته الأولى. طالما أن التاريخ الحقيقي للعراق المعاصر قد أنطلق على يد مثل هؤلاء ومنذ الجمهورية الأولى.

هو والزعيم وأوجه التشابه:

إن "...إحدى الحقائق المرتبطة بهذه الشخصية العراقية الفذة كرجل (علِم) تناغم مع رجل (ثورة) هو عبد الكريم قاسم في رؤية مشتركة، بعيدة المدى، لتجاوز زمن عراقي متخلف كان يواجه، منذ حوالي القرن من الزمان الحديث، استنزالا اجتماعيا روتينيا كبيرا ضاغطا من قبل قوى التسييس الأعمى، الرجعي والقومي، المحدود الرؤى، خصوصا بعد قيام ثورة التغيير... جاعلين آمال التقدم العراقي شيئا محبطا تماما .كان الزعيم عبد الكريم قاسم قد تغلّب على (الخوف) من (العلم) كوسيلة في الزمان الجديد والمكان الجديد لتوفير القدرات الجديدة للدخول إلى المستقبل... "..

لا تظهر الشخصيات الفذة في المجتمع بصورة اعتباطية، بل بحكم

الضرورة التاريخية. إذ أينما ومتى ما تظهر إليها حاجة المجتمع والتاريخ: عندها تظهر الحاجة إلى مثل هذا الشخص ويتم العثور عليه، خاصةً عندما نعي إن " الإنسان العظيم، عظيم... بكونه يتمتع بخصائص تجعله الشخص الأكثر قدرة على خدمة احتياجات عصره الاجتماعية العظيمة ". وعليه فظهور القادة مرهون بالضرورة التاريخية بل وبقدرة هذه الشخصية على فهم ومعرفة هذه الضرورات. وهذا ينطبق على كلا الزعيمين الأول في ميدانه العلمي والثاني في إدارته للصراع والبناء في الجمهورية الأولى (14 تموز1958–9 شباط 1963).

ومن دراساتي لشخصية عبد الكريم قاسم أعتقد، أنه كان ذو نظرة إصلاحية بناءة، خاصةً بعد الانتقال من عسكريته البحتة إلى عوالم السياسة، فكان، بحق، سياسياً بلباس عسكري. وكان كعالمنا عبد الجبار عبد اللّه، يهتمان بالشأن العراقي وبسبل تطوره، كل **حسب ممكن مجاله**. كما أنهما عاشا في ظروف اجتماعية متشابهة في عدة مفاصل. وكانا يستزيدان المعرفة والتثقيف العام، من منبع فكري واحد **وهو التأثر بالأفكار العراقوية المنحى، ذات البعد الحداثوي الاجتماعي**، كل بطريقته الخاصة. لذا نسج قاسم علاقات اجتماعية، شكلها مهني، وجوهرها يكمن في بلورة الغائية المنصبة على ضرورة تغيير النظام السياسي بكليته، يعده جوهر معضلة التطور، وهذا ما كانت تطالب وتثقف به الأحزاب الوطنية معبرةً عنها حركة الاستقلال الاقتصاسياسي ، لتلبية متطلبات النهوض بالصيرورات الاجتماعية لأغلب الطبقات والتكوينات.

كما أنهما كانا بعيدين عن التفسيرات الدينية للظواهر الاجتماعية والطبيعية، لذا لم يتعصبا لهذا الموقف أو ذاك، بل تبنيا، كل بطريقته الخاصة وفي تخصصه، العلمانية كأسلوب في النظر للحياة. كما أنعكس التشابه النسبي بينهما في السلوك الاجتماعي وما تحليا به من بساطة وتهذب وحسن الطوية ونزعة إنسانية وإيمان بالمساواة الاجتماعية.

ازعم كان بينهما سبق من التعارف، إذ أقام قاسم علاقة صداقة مع بعض من قادة هذا التيار الفكري من خلال (معلمه) مصطفى علي، وصديقه رشيد مطلك، كاظم الزهاوي، عبد الفتاح إبراهيم والدكتور جواد علي عامر عبد اللّه، كمال عمر نظمي وغيرهم. كما أفترض وجود سبق تعارف بين العالِم والزعيم، أثناء الدراسة في الإعدادية المركزية، أو/ من خلال الأصدقاء المشتركين لهما. كما أن العالِم كان نائبا لرئيس لجنة الطاقة الذرية، وكانت هنالك محاضرات في المؤسسة العسكرية حول الحرب الذرية **ومن المحتمل** إن قائد اللواء 19 كان معنياً بهذا الموضوع باعتبار إن لواءه من الألوية الضاربة في المؤسسة العسكرية آنذاك.

وتأسيساً على ذلك رأيت أن هناك تشابها إذ :

– كلاهما ذو نزعة بنائية إنسانية ويستهدفان الإصلاح الاجتماعي؛

– متحرران من التقاليد البالية والتفسيرات المتخلفة للظواهر الاجتماطبيعية؛

– ينطلقان من الهوية العراقية بديلاً عن الولاءات الدينوية: رابطة

الدم،الدين والطائفة؛

- مَثَلَ العراق الهاجس المركزي لهما؛

- خضعا لتأثيرات بيئية اجتماسياسية متقاربة من حيث توجهاتهما الفكرية والعامة؛

- يكرهان العنف لذات العنف في سلوكهم وممارستهم للحياة؛

- تأثرا بالحركة الوطنية عامةً و بالحزب الوطني الديمقراطي خاصةً، دون انتماء؛

- رأيا في الحرية ضرورة اجتماعية. وتحليا بشجاعة الطرح ولا يساومان على جواهر الظواهر ؛

- أنصبت آراءهم على النظر إلى المستقبل بترابطه مع الماضي والحاضر؛

- لعب كل منها، في ممكن مجاله، الدور الحيوي الوسيط، بين القوى الاجتماعية لقاسم، والحياة العلمية لعبد الجبار عبد اللّه؛

- كلاهما هيأ تربة التغيير، وعملا كل في مساحة حقله، على تحقيق صيرورة التغيير، و نجحا حسب الممكن التاريخي؛

- كانا يخضعان للمفهوم الديناميكي للحياة العامة وليس للسكون الراكد.

أنعكس هذا النجاح وتأثرت به شرائح واسعة من الفئات الاجتماعية في الريف والمدينة، ومن فئات الطبقة الوسطى، التي رأت فيه وسيلة لتحقيق ذاتها ومصالحها ورؤيتها للواقع الملموس والقادم المرتجى. هذا الاستنتاج مستخلصٌ من عدة عوامل مترابطة جدليا هي:

- عمق عملية التغيير الجذري ومداها الاجتصادي/ السياسي/ الفكري؛

- النتائج الحضارية المترتبة على عملية التغيير؛

- شمولية التغيير لمكونات اجتماعية واسعة؛

- ماهية القوى الاجتماعية قائدة التغيير (فئات الطبقة الوسطى)؛

- برنامج وأفق رؤيتها لواقع العراق المستقبلي.

لقد كانت الثورة الثقافية من أهم معالم التغيير والتي أحدثت نقلة نوعية جديدة في واقعها ومكوناتها وأفقها القادم، وانفتاحها على الكثير من الفلسفات عبر (دمقرطة الثقافة) وأبعادها التوسعية، إذ توسعت فرص التعليم بكافة مراحلها، وازدادت إمكانية التمتع بثمار الثقافة التي أمست أكثر نضجا وتلاؤماً مع متطلبات الواقع والعصر ومثلت حراكاً حداثوياً، إلى جانب ما أوجدته وارتقت بما كان من مختلف أشكال التعبير الحديثة ومضامينها الثقافية والأدبية والتصورات الشعبية وغيرها. كما أنها أنزلت ضربة بالقيم الاجتماعية البالية وللعلاقات ماقبل الرأسمالية وحاولت قدر الامكان اجتثاث مقوماتها المادية، وإعادة إنتاج وتطوير البعض منها، كمحصلة للتغيرات المادية.

لقد " حملت ثورة 14 تموز1958 تغييرات كبيرة في البلاد في نواحيها المختلفة، وجاءت التحولات السياسية والاقتصادية والشروع بالتصنيع بالمشاريع الإنمائية لتؤكد الحاجة إلى

كادر متعلم ينهض بهذا البناء وإلى تطوير التعليم العالي والفني ليشمل تخصصات جديدة على البلاد كالهندسة الكيماوية وهندسة النفط والحاسبات الالكترونية والتخطيط وغيرها، وكان تأسيس جامعة بغداد استجابة لهذه الحاجة. وانتخب الدكتور عبد الجبار عبد اللّه ليتولى رئاستها. كانت مهمة صعبة في جمع شمل الكليات التي كان لكل منها تاريخها الخاص... ".

لم يأت انتخابه بصورة اعتباطية أو إرضاءً لجهة سياسية، قدر كونه يحمل المؤهلات والشهرة العلمية والخبرة الجامعية، وباعتباره من المؤسسين لها وعضو مجلسها التأسيسي، والأهم موقفه المتروي من الجامعة ومهامها والمبادئ التي يجب أن تسير عليها، وما يجب أن تتوفر فيها من استقلالية ومستلزمات حرية البحث الجامعي.

"لم يكن اندماج الرؤى، العلمية والثورية، أمراً سهلا، فقد واجهت فكرة قائد الثورة عبد الكريم قاسم لوضع العالم الدكتور عبد الجبار عبد اللّه على رأس أول واكبر مؤسسة علمية تعليمية هي جامعة بغداد، عقبات كثيرة ورهبة كبيرة، أوجدها بعض عناصر الدائرة السياسية الأولى المحيطة بالزعيم عبد الكريم، حيث ضغطوا بنوايا خفية لإبعاد عبد الجبار عبد اللّه عن رئاسة جامعة بغداد، في لحظة البدء في تطويرها، خوفا من علومه الكثيرة العارفة بكل أنواع البرق والعواصف والبراكين ذات الميل السياسي، وكيفية اجتيازها وتجاوز مخاطرها لجعل جامعة بغداد أداة الثورة العلمية –التكنولوجية في العراق رغم الظروف الفعلية الصعبة ... "

وبعد تعيينه رئيساً للجامعة في شباط 1959 " تشكلت لجنة لإعادة النظر في مشروع الجامعة، بعد أن توقف عمل المجلس التأسيسي الأول بعد الثورة، وقد أوصت اللجنة بإلغاء قانون سنة 1956، والاستعاضة عنه بقانون جديد...وأصبح الدكتور عبد الجبار الأمين العام للجامعة اعتبارا من الثامن عشر من شهر تشرين الأول عام 1958 ولغاية الثامن عشر من شهر شباط 1959، إذ صدر أمر تعيينه كأول رئيس للجامعة في العهد الجمهوري وثاني رئيس لها منذ تأسيسها عام 1956.. ". وبعد مباشرته واصل العمل بقوة وشجاعة وسار بالجامعة وسط الهياج السياسي والصراع الحزبي المبوصل وغير المبرر علمياً بين قوى جبهة الاتحاد الوطني، فكان الرجل يقود إدارة الجامعة على وفق منطق رؤيته المتمحورة حول مبدأين أساسيين هما:

– **استقلالية الفكر الأكاديمي وحريته؛**

– **استقلال الجامعة من أي تدخل.**

أما مهمات الجامعة كما يرها العالِم فتتمحور في :

" **–تدريس مختلف المهن وأعداد المهنيين والخبراء؛**

– **تربية الشباب تربية صحيحة؛**

– **القيام بالبحث العلمي وتطويره** "

ولم يتوانَ في تحقيق الكثير من الإنجازات وتأسيس نواة لجامعتي الموصل والبصرة، واستحداث الدراسات العليا (الماجستير) وإنشاء المجلس الأعلى للبحوث العلمية، وفتح قسم اللغة الكردية وغيرها من

المؤسسات التي تمثل أسس تطوير الجامعة. وبعد ثلاثة أعوام قضاها في مسيرة ليست هينة على الإطلاق. وفي صيف عام 1961 انتهت فترة الرئاسة الأولى حيث مدتها ثلاث سنوات، وعلى وفق المادة 18 من قانون الجامعة اشترطت انتخاب ثلاثة مرشحين، ممن هم بمرتبة أستاذ، من قبل رئاسة الجامعة وتعرض على وزير المعارف حتى يختار أحدهم ليعرضها على مجلس الوزراء الذي يصدر قرار التعيين بمرسوم جمهوري.

وحول ذلك يقول إسماعيل العارف وزير المعارف آنذاك: "... **وفي ذلك الزمن كان الصراع بين القوميين والتقدميين قد بلغ أشده في المجتمع وفي جامعة بغداد ووزارة المعارف بصورة خاصة. وكان الصراع يتجسد في كل عملية انتخاب أو تعيين شخص في وظيفة عمومية مهمة مسؤولة عن الإدارة العامة. وقد** اشتهر الدكتور عبد الجبار عبد اللّه بآرائه الحرة وتفكيره الديمقراطي، فجوبه خلال توليه رئاسة الجامعة بمعارضة شديدة من الأساتذة والكتل القوية في الجامعة...وعندما أقترب موعد تعيين الرئيس الجديد زادت سخونة الجدل حول من سيشغل هذا المنصب السياسي والعلمي الخطير وتسرب الجدل إلى مجلس الوزراء . فكان بعض الوزراء يؤيد إعادة تعيين عبد الجبار عبد اللّه ويتصدر هؤلاء الزعيم عبد الكريم قاسم نفسه، ومنهم من كان ، لسبب أو آخر يفضل تعيين شخص جديد لرئاسة الجامعة . وقد شعر عبد الجبار عبد اللّه بحراجة موقفه وموقفي فجاءني راجياً أن أعفيه من الترشيح ثانيةً لهذا المنصب فقال لي ، إذا كنتم تعطفون عليَّ أعفوني من هذه المسؤولية واسمحوا لي أن أعمل في السلك الخارجي حتى يسهل عليَّ العلاج من السرطان. فلما عرضت ذلك على الزعيم عبد الكريم قاسم أصر على إعادة ترشيح عبد الجبار عبد اللّه لجامعة بغداد.

وعند ذاك طلبت من الدكتور عبد اللّه أن يجمع مجلس الجامعة ليختار ثلاثة من بين أعضائه. فتم عقد مجلس الجامعة وجرى اقتراع سري على ثلاثة رشحوا أنفسهم للمنصب هم: الدكتور عبد الجبار عبد اللّه وحصل على 12 صوتاً والدكتور عبد العزيز الدوري عميد كلية الآداب وقد حصل على 13 صوتاً والطبيب البيطار صادق الخياط عميد كلية البيطرة، وقد حصل على7 أصوات... فجلب لي رئيس الجامعة نتائج اختيار المجلس للمرشحين، وذكر لي بأنه ألقى بورقة بيضاء في صندوق الاقتراع ولم ينتخب نفسه لكي يتساوى في الأصوات مع عبد العزيز الدوري. فقررت أن أطرح الأسماء الثلاثة على مجلس الوزراء ... وفي الجلسة التالية للمجلس في أواخر شهر أيلول (سبتمبر) 1961، طرح عبد الكريم قاسم الموضوع أمام الوزراء قائلا بأن وزير المعارف تنازل عن حقه إلى مجلس الوزراء في اختيار رئيس الجامعة وسوف نناقش الأسماء المرشحة واحدا واحدا. وكنت قد هيأت مع الكتاب خلاصة علمية عن تأريخ حياة كل مرشح وطلب هو أن تهيء له أجهزة الأمن خلاصة عن تأريخ كل منهم سياسياً. فبدأ يقرأ على المجلس ما ورد في الخلاصات عن الدكتور عبد الجبار عبد اللّه وقد كانت حياته العلمية غنية بالإنجازات والبحوث في مجال الفيزياء وفي اختصاصه بالأنواء الجوية بالذات، كما كان منتمياً إلى

عدد من الجمعيات الفيزيائية الأمريكية والعالمية وله بحوث علمية كثيرة في دوريات ومجلات علمية متخصصة. ولم يكن هناك ما يشوب تأريخه السياسي .

ثم أنتقل إلى عبد العزيز الدوري فقال إن هذا الرجل لم يقدم للعلم شيئاً في حياته سوى ما كتبه عن أحد أدوار العصر العباسي كأطروحة للدكتوراه وسوى بحث مقتضب عن بغداد في دائرة المعارف البريطانية، أما تأريخه السياسي فقد كان حافلاً بالنشاط مع العهد الملكي وشارك في لجان حلف بغداد السرية وعُرف بعلاقاته المريبة بالجهات الأجنبية وأمور أخرى هيأتها له أجهزة الأمن. ثم تحدث عن الطبيب البيطار صادق الخياط فقال أنه طبيب بيطري ليست لديه مزايا عملية تؤهله أن يتبوأ مركزاً علمياً وإدارياً كرئيس جامعة بغداد.. وكان من الطبيعي أن يشعر الوزراء بتحمس عبد الكريم قاسم وميله إلى تجديد رئاسة عبد الجبار عبد اللّه وتحامله على عبد العزيز الدوري.

فطلب من الوزراء أن يدلوا بآرائهم إلا إن أحدا منهم لم يجرؤ على ترشيح غير الدكتور عبد الجبار عبد اللّه، عدا وزير البلديات باقر الدجيلي. إذ قال بشيء من التردد والتعلثم أنه يؤيد اختيار شخص آخر لو أمكن وأورد اسم صادق الخياط. فثارت ثائرة عبد الكريم قاسم وقال: (كيف تواجهون المجتمعات العلمية إذا وضعتم على رأس الجامعة طبيباً بيطرياً لم يحصل على اختصاص علمي أو دراسة إدارية عالية؟ يجب ألا تؤثر عليكم عوامل أخرى غير الكفاءة والعمل عند اختيار أية شخصية لإدارة هذه المؤسسة العلمية الوحيدة في العراق)... فوافق المجلس بالإجماع على ذلك ووقعنا المرسوم الذي كان معدا لذلك ثم دفع عبد الكريم قاسم بالمرسوم الجمهوري إلى رئيس مجلس السيادة الجالس على يساره كي يوقعه ولكن رئيس مجلس السيادة أخذ الورقة ووضعها في اضبارة أمامه دون توقيعها... وبعد ذلك التأخير المتعمد تذاكرت مع الزعيم عبد الكريم قاسم وقلت له يبدو أن رئيس مجلس السيادة لا يوافق على تعيين عبد الجبار عبد اللّه وإن له رأياً آخر فالأفضل أن تناقشه وتصلا إلى حل لهذه المعضلة، فقال عبد الكريم قاسم " إن الفريق نجيب الربيعي بدأ يتناسى التأريخ القريب وهو متأثر ببعض الدعايات ومع ذلك لا تقلق سوف يوقعه غداً".

... وعندما أجتمع الوزراء ، جلس عبد الكريم قاسم في مكانه المعتاد وابتسم ثم نظر إلى رئيس مجلس السيادة وتحدث مجاملاً وقال أرجو أن يسمع المجلس ما يلي " قررت باعتباري لا زلت القائد العام للقوات المسلحة الوطنية الذي لا يزال مصدر السلطات للنظام الثوري أن أحل مجلس السيادة وأعيد تأليفه بعدئذ " ففوجئ الجميع بذلك وسكتوا وكأن على رؤوسهم الطير. أما رئيس مجلس السيادة فقد امتقع لونه وبدا عليه الارتباك واضحاً لأنه كان يعرف ما تخفي ابتسامة عبد الكريم قاسم من مفاجآت. ثم قرأ عبد الكريم قاسم المرسوم

... وفي منتصف الجلسة توقف عبد الكريم قاسم وقال لدينا مرسوم آخر اقرأه عليكم، ثم بدأ يقرأ مرسوم إعادة تأليف مجلس السيادة من نجيب الربيعي ورشاد عارف وعبد المجيد كمونه. وعندما انتهى منه لاحظت علامات الارتياح على وجه رئيس مجلس السيادة الذي ظل مع ذلك مرتبكاً

طوال عقد الجلسة. وقبيل انفضاض الاجتماع سلمني الربيعي مرسوم تعيين رئيس الجامعة موقعاً من قبله وبقية أعضاء مجلس السيادة ".

كان انقلاب شباط الدموي النقطة المميتة في حياة الراحل إذ إن " القافزين بقوة السلاح، إلى سدّة السلطة في شباط عام 1963 وما بعده، عملوا على إهانة العلم والعلماء، وأمعنوا بالاعتداء الوحشي عليهما متهجين أسم عبد الجبار عبد اللّه بخطأ فادح ... حين انزلوه من رئاسة الجامعة واضعين إياه في معتقل فاشستي ...". فبعد الاعتقال والتعذيب النفسي الكبير الذي تعرض له والتي أحدثت رجة في الأوساط العلمية في داخل وخارج العراق مما أدى بسلطة الانقلاب إلى إطلاق سراحه، بعدما لم يجد الانقلابيون ما يدينونه به مما دفع به إلى الهجرة. ف"... لم يذهب العالم عبد اللّه خارج وطنه العراق إلا مرغماً عند اشتداد الحملات المسعورة من قبل البعثيين والمأجورين من رعاع الحرس القومي للنيل من الاساتذه والرموز الوطنية المبدعة... هذه الحملات شملت العالم عبد الجبار عبد اللّه الذي غادر العراق وهو يحمل على جسده النحيل بصمات التعذيب في تلك الفترة...".

ويشير ذات المؤلف في نقده لكتاب د. ستار العبودي بالقول : " ورسائله التي لم يكلف الباحث نفسه في تثبيتها لأمر في نفسه.. وتعدى ذلك الى التشويش على أسباب رحلته الإضطرارية الأخيرة للولايات المتحدة.. بعد ان فر هارباً من معتقلات الحرس الجمهوري ليحمل على جسده النحيل خارطة القسوة لجلادي البعث كوصمة عار في تأريخ هذه السلطة الجاهلة ولم يذكر المؤلف بأن التعذيب وبصمات الهمجية والألم الكبير قد استجاب للدعوة التي وجهتها إليه سلطة البعث الثانية وفرح بها إلا ان حالته المرضية حالت دون ذلك.. وهذا ما يخالف الحقيقة والوجدان والضمير الوطني.. فلم تكن أسباب رفض عودة عبد الجبار عبد اللّه الى العراق عام 1968 هو ما ذكره المؤلف من الأسباب المرضية.. بل ان عبد الجبار عبد اللّه كان معروفا بنباهته ورؤيته العلميتين وبصيرته الشفافة.. التي أدرك بهما ان القطار الأمريكي الذي حمل عصابات الحرس القومي الى العراق لاغتصاب ثورة تموز الأولى.. هو نفسه الذي جاء بهذه العصابات لتحكم العراق من جديد.. وهو لا يمكن ان يعود لوطنه وهو مازال يحتفظ على جسده وفي أ'عماق ذاكرته جراح معتقلاتهم وآثار تعذيبهم.. كما هي رسالة تنبيه من العالم الخالد عبد الجبار عبد اللّه للعلماء الآخرين.. بأن لا يقتربوا من خدمة سلطة غاشمة تعتبر الحرب ضد الرموز والكفاءات العلمية واحدة من أبرز مهماتها الكبرى.. وأثبت التأريخ الدموي لهذه السلطة.. صحة ودقة فرضية العالم الراحل عبد الجبار عبد اللّه كما أثبت التأريخ فروض وصحة نظرياته العلمية الفيزيائية. "

الهوامش:

1- عرض مكثف لمحاضرة ألقيت بمناسبة مئوية العالم عبد الجبار عبد اللّه، التي أقامتها الجمعية الثقافية المندائية في لوند/ السويد، في يومي 29و30 مايس 2011.

2– مستل من أزمة الديمقراطية في الوطن العربي، حسين جميل، حقوق الإنسان في الوطن العربي، المعوقات والممارسة، ص. 520، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1984

3 – د. ستار نوري العبودي، عبد الجبار عبد اللّه ص. 12، مصدر سابق.

4– المصدر السابق، ص. 24، و25.

5– عقيل الناصري، عبد الكريم قاسم ،من ماهيات السيرة الذاتية، الكتاب 1، ص.121، الحصاد بيروت 2006

6 – د. . ستار نوري العبودي، عبد الجبار عبد اللّه، ص. 21 مصدر سابق.

7– محمد حديد، مذكراتي ، الصراع من أجل الديمقراطية في العراق، ص. 67، دار الساقي، بيروت 2006

8– د. فاضل حسين، جمعية الرابطة الثقافية، فصل من تاريخ الديمقراطية في العراق المعاصر، مجلة دراسات في التاريخ والآثار،العدد 2، 1982 ص. 11، مستل من د. ستار نوري العبودي،، ص. 52 مصدر سابق،

9– جاسم المطير، احتفال بمئوية في خارج مكان المولد، موقع الحزب الشيوعي، 4 نيسان 2011

10– جورج بليخانوف، دور الفرد في التاريخ، المؤلفات الفلسفية، ترجمة د. فؤاد أيوب، ج.2، ص. 290وما بعدها، الطبعة الأولى، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق 1982

11– د. عبد الكريم الخضيري،عبقري الجيل، ص. 126، الثقافة الجديدة، العدد261، لسنة 1995

12 – جاسم المطير/ مصدر سابق.

13 – د. ستار العبودي، ص. 69، مصدر سابق.

14– د. إبراهيم الخميسي، عين الإعصلر، ص. 61، مصدر سابق.

15 – إسماعيل العارف، أسرار ثورة، ص. 323، مصدر سابق.

16.– جاسم المطير/ مصدر سابق.

17– توفيق التميمي، مستل من موقع دفاتر/ مصدر سابق.

18– المصدر السابق.

العولمة والديمقراطية

د .بتول قاسم ناصر

في ظل النجاح الكبير الذي حققته الرأسمالية الغربية وعلى رأسها أمريكا والتطور السياسي والاقتصادي والعلمي وتطور أنظمة الاتصالات وبلوغ النظام الرأسمالي مرحلة الرأسمالية المتوحشة وهي مرحلة أصبح فيها قوة تهدد العالم بالاجتياح بما يمتلكه من عوامل القوة، وهي أخطر مراحل النظام الرأسمالي على البشرية بسبب سعيه الى تحقيق أعلى مستويات الربح على تحقيق أعلى مستويات الإنتاجية ثم أعلى مستويات السيطرة الاستعمارية التي تمثلت باتجاهه الى العولمة والتمدد على خارطة العالم تعبيرا عن حالة القوة والتفوق التي بلغهما. وما احتلال امريكا للعراق الا جزء من محاولة هذا النظام للاستحواذ على العالم كله، وكانت دعواها في ذلك رغبتها في نشر الديمقراطية في البلدان التي تعاني من أنظمة مستبدة أو محاربة الإرهاب وهو ما يمثل تهديدا لسلم العالم وأمنه.

لم يعمل الاحتلال الأمريكي للعراق على إقامة نظام ديمقراطي بل فعل العكس لأن إقامة هذا النظام يتطلب ظروفا وعوامل تساعد على قيامه في حين عمل هو على هدم ما كان قائما وموجودا منها بما سببه من انهيار بنية الدولة العراقية وتفكك مؤسساتها التي تحتاج اليها لضمان نجاح العملية الديمقراطية ، وبما سعى اليه من تمزيق المكونات الاجتماعية التي كانت متآخية على أساس مبدأ المواطنة وإثارة العداوة بينها وإرجاعها الى علاقات سابقة على مرحلة بناء الدولة، بالتمسك بماهيات قبلية كالطائفة والدين والعرق وتوجيه العمل السياسي وبنائه على أساسها لا على أساس أفكار تستمد من برامج فكرية سياسية الأمر الذي أدى الى انفصال السياسة عن الفكر السياسي فلم نجد أحزابا تتنافس ضمن مباراة وطنية تخوضها في عملية التحول الديمقراطي والبناء الديمقراطي للبلد، بل كيانات تتحدث بلغة عدائية تعبرعن هذه الانتماءات الطائفية أو العرقية، مما أدخل البلاد في فوضى ضاربة لا تقيم دولة

ديمقراطية بل لا تقيم دولة إنما تسعى الى هدمها وتجزئتها وهو ما تريده امريكا . ولقد كانت تريد أمرا آخر من ربط العمل السياسي بهذه المكونات الطائفية والعرقية وهو محاولة دس الأحزاب التي تؤيدها وأفراد هذه الأحزاب من خلال بعض المكونات فلا يستطيع أي مكون آخر الاعتراض مادام شرط العمل السياسي هو الانتماء إلى هذه الطائفة أو هذه القومية ، وبهذا استطاع البعثيون من (العودة) الى العمل السياسي من خلال مكوناتهم الطائفية.

لقد أدى سقوط النظام السياسي في العراق الى تقبل الإحتلال الأمريكي وأفكار ونظريات أمريكا في إدارة العالم والتعامل مع قوات الاحتلال بأنها من أسقط النظام الغاشم، وتحولت امريكا في لغة السياسيين من (عدوة الشعوب) و(الشيطان الأكبر) الى الصديق الأعظم للشعوب، وتدافعت أفكارها الى ساحة التداول كالليبرالية والتعددية وحرية السوق وحقوق الإنسان وإعادة هيكلة الاقتصاد وحتمية الانتصار للديمقراطية الرأسمالية وغير ذلك، وهذا يعني أنها نجحت في اللعب على وعي الشعب وتلك هي الخسارة الكبيرة لو صح حقا أنها أقنعت الشعب بصدق نواياها في مساعدة الشعوب على التخلص من أنظمتها الدكتاتورية وإقامة أنظمة شعبية ديمقراطية.

إن محاولة التعرف على حقيقة الديمقراطية الأمريكية يؤكد أنها ليست ديمقراطية حقيقية بل زائفة إن لم تكن عدوة لها. يوضح السيد محمد باقر الصدر في كتابه (فلسفتنا ص ١٣-٢٢) حقيقة الديمقراطية الرأسمالية بأنها : (نظريا) تقوم على الإيمان بالفرد والتكفل بضمان مصالحه وأن واجب الدولة هو حماية الأفراد ورعاية مصالحهم ، فالفرد هو القاعدة التي يجب أن يرتكز عليها النظام الاجتماعي ، وكذلك الاهتمام بالحريات العامة وإطلاقها وأن الأفراد متساوون في الحقوق ومنها حق التصويت والانتخاب العام الذي يضمن انبثاق الجهاز الحاكم عن أكثرية المواطنين . ويبين السيد الصدر أن النظام الاجتماعي لديها نظام مادي خالص، الإنسان فيه محدود بالجانب المادي النفعي تأثرا بالعقلية التجريبية التي شاعت منذ بداية الانقلاب الصناعي. ولقد أقصيت الأخلاق أو تبدلت مفاهيمها ومقاييسها وأصبحت المصلحة الشخصية هدفا أعلى والحريات هدفا لتحقيق تلك المصلحة. وقد انبثقت عن هذا النظام الرأسمالي –الذي يصفه بالمرتجل لأنه لا يقوم على أساس فلسفي مدروس– سلسلة من المآسي الاجتماعية، وأول حلقاتها تحكم الأكثرية بالأقلية. والأكثرية هذه ليست أكثرية حقيقية بل أكثرية–محدودة– تمثلها الطبقة الرأسمالية. وهذه الطبقة قلة قليلة بعد أن كانت ضمن الطبقة المتوسطة البرجوازية التي تضاءلت واقتربت من المستوى العام، وهنا اتخذ الحق السياسي للأمة شكلا جديدا وأصبحت المساواة خيالا ووهما. فالفئة الرأسمالية بحكم مركزها الاقتصادي في المجتمع وقدرتها على استعمال جميع وسائل الدعاية وتمكنها من شراء الأنصار والأعوان أصبحت تهيمن على مقاليد الحكم وتحتكره وتحرم من يمثل الأفكار الأخرى المناهضة من الوصول اليه. وقد تسلمت السلطة لتسخيرها في خدمة مصالحها والسهر على مآربها وأصبح التشريع والنظام الاجتماعي

خاضعين لسيطرة رأس المال بعد أن كان المفروض في المفاهيم الديمقراطية أنه من حق الأمة جمعاء . وهكذا عادت الديمقراطية الرأسمالية في نهاية المطاف حكما تستأثر به الأقلية وسلطانا يحمي به عدد من الأفراد كيانهم على حساب الآخرين بالعقلية النفعية التي يستوحونها من الثقافة الرأسمالية . ثم نصل الى أفظع حلقات المأساة التي يمثلها هذا النظام إذ ان هؤلاء السادة الذين وضع النظام الديمقراطي الرأسمالي في أيديهم كل نفوذ وزودهم بكل قوة وطاقة أصبحوا يمدون أنظارهم –بوحي من عقلية هذا النظام– الى الآفاق البعيدة ويشعرون بوحي من مصالحهم وأغراضهم أنهم في حاجة الى مناطق نفوذ جديدة وينطلق من هنا عملاق المادة يغزو ويحارب ويقيد ويكبل ويستعمر ويستثمر إرضاء للشهوات وإشباعا للرغبات.

وهكذا يبين السيد محمد باقر الصدر أن الديمقراطية في ظل الرأسمالية لا وجود لها فقلة قليلة من الرأسماليين هم الذين يحكمون وأن الحكم يتداول بينهم من خلال هذه القلة المتحكمة ، ففي امريكا يتولى الحكم حزبان هما في الحقيقة حزب واحد قد يكون الفرق بينهما في بعض الوعود الخدمية التي يطرحانها أمام الجمهور. وسبب احتكار هذين الحزبين للحكم وللترشح للانتخابات هو قدراتهما الاقتصادية الرأسمالية وشراؤهما أصوات الناخبين وقدراتهما على التلاعب بالنتائج . ويشير السيد الصدر الى أمر مهم وهو استغلال هذا النظام لوسائل الإعلام في التوجيه فقد استطاع من خلال نظرته التسييرية للإنسان أن يصنع الأفكار والمشاعر ويكيفها باتجاه غايات نفعية مادية تجعلها تتفق وغاياته وتنسجم مع أهدافه فتعمد الى انتخاب ممثليه ، فحتى من يبدو أنه حر في اختياراته الديمقراطية ليس هو كذلك في الحقيقة فهو مسير وموجه باتجاه خدمة غايات الرأسمالية. ومع أن أفكار السيد الصدر واضحة جدا إلا أننا لا نجد تلامذته اليوم في العراق يتمثلون هذه الأفكار بل راحوا ينظرون الى أمريكا بوصفها المحررة وناشرة الديمقراطية في ربوع العالم . وهم يقرؤون أفكاره التي تصفها بأنها (مصدر الشرور والكوارث في العالم) وهم يعرفون كذلك مستوى تدخلها في تفاصيل السياسة العراقية، ولكنهم قابلوا بالرضا أن تعقد معها اتفاقية أمنية واتفاقية أخرى (الإطار الاستراتيجي) هي أشد وطأة على العراق لأنها تجعله في كل خطوة يخطوها تحت مراقبة ومشورة وفحص دقيق من قبل تخطيط وإشراف أمريكي مباشر، وهو ما يتنافى والتمتع بالحريات الديمقراطية والسيادة الوطنية . وهكذا أعادونا الى مرحلة الاستعمار والاتفاقيات الثقيلة التي تقيدنا به والتي دفع الشعب ثمنا باهضا من أجل التخلص منها .

إن الاستعمار الذي يسمى الآن – تجميلا لاسمه – : العولمة ، هو عولمة دكتاتورية معادية للديمقراطية ، فالقانون الأساسي للرأسمالية هو المنافع الخاصة والمنافسة والركض وراء الربح، ولذلك فهي تسعى الى احتلال بلدان العالم احتلالا مباشرا أو غير مباشر ولي إرادتها ، وتعمل على إخضاع المنظمات الدولية والقانون الدولي لمصلحتها. وتحاول فرض النظريات الفلسفية للعولمة وإنهاء الأفكار الأخرى أي العمل ضد التعددية وهي تنادي بالتعددية وحرية الفكر، فتقوم بإشاعة أفكارها وثقافتها وفرضها

على ثقافات العالم ولهذا شاعت مصطلحات تعمل على ذلك وتحث على الانفتاح الثقافي وتكييف الثقافات على وفق أهداف وبرامج تعود الى ثقافات أخرى ودول أخرى إمبريالية ، وبهذا تلغي مبدأ السيادة والدولة الوطنية المستقلة وتعمل على السيطرة على مقدرات البلدان السياسية والاجتماعية والاقتصادية وإخضاعها لمنطق واملاءات المؤسسات المالية والنقدية الدولية. وهذه السياسة التي تقوم على الفرض والقمع تنافي وروح الديمقراطية كما أنها بدلا من أن تعمل على حل المشكلات التي تواجهها هذه البلدان فإنها تعمل على تعميق أزماتها بكل مستوياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتزيد من محنتها.

إن من بعض ما عمدت اليه أمريكا وحلفاؤها في العراق في سبيل السيطرة على مقدراته إثارة المشاكل الداخلية والفتن الطائفية وزرع الفرقة والتأسيس للحرب الأهلية معتمدة على مبدئها القديم الجديد: فرق تسد ، والغاية هي أن يعيش الإنسان العراقي في حالة من الفوضى والخوف وأن يحاصر بالأزمات الاقتصادية والأمنية حتى يصبح مشغولا بالدرجة الأولى بدفعها عنه. لقد عملت امريكا في العراق على ضخ كمية ضخمة من الحرية – أو لنقل الانفلات – بعد نظام دكتاتوري صارم وهذه الكمية من الحرية مع العمل على انهيار الدولة إنما الغاية منه إشاعة الفوضى التي سمتها شخصيات امريكية معروفة بالفوضى الخلاقة وهي في الحقيقة فوضى هدامة لأنها– فضلا عن كونها فوضى – فهي مقرونة بالفتن والإرهاب والتخريب شجعت الصراعات الداخلية وأفرزت أطرافا متباينة متناحرة يلغي أحدها الآخر أو يعمل على تدميره مما خلق مجتمعا غير مترابط في كل مكوناته . وقد غذت هذا الصراع وأدارته من خلال وسائل الإعلام والاتصال المتطورة المرتبطة بها والتي ترافق فتحها على المجتمع العراقي مع الاحتلال ، وهذا لا يمهد لإقامة نظام ديمقراطي يتطلب الاستقرار ولهذا أصبحت الفكرة الأمريكية : (نشر الديمقراطية) الفكرة الأكثر تهديدا وخطرا على أمن واستقلال دول العالم وفرصها لإقامة أنظمة عادلة وديمقراطية ، وهذا ما صدحت به أصوات معارضة في مختلف أنحاء العالم .

لقد تجاوزت الدول الاستعمارية مرحلة الاستعمار القديم الذي كتب عنه السيد الصدر وانطلقت منه الى مرحلة جديدة ممثلة بالعولمة وهي مرحلة تمثل قمة الطغيان الامبريالي الساعي الى حمل العالم كله على الرضوخ والاستسلام والامتثال لمنطقها لاسيما بعد زوال القطب الآخر الممثل بالاتحاد السوفييتي . ومن خلال منظور القطبية الواحدة تحاول الدول الرأسمالية بقيادة أمريكا احتواء العالم وإعادة صياغته ، يقول جورج بوش في خطاب له: (إننا نسعى الى تشكيل العالم وليس أن يشكلنا هو وأن نؤثر في الأحداث من أجل الأفضل بدلا من أن نكون تحت رحمتها). ولقد هيأت لهذه العملية ضمن حملة فكرية أعدها وصاغ نظرياتها ووضع برامجها منظرون ومفكرون صوروا الصراع مع العالم الآخر الذي يسعون لاحتوائه بأنه صراع حضاري مهدد لحضارتهم لكي يبرروا عملية قمع الحضارات والثقافات الأخرى لاسيما غير القابلة منها للامتثال والتخلي عن الهوية ،

ومما يسمونه منها: الحضارة الكونفوشيوسية والحضارة الإسلامية. ولقد أدرك هؤلاء المنظرون أن السيطرة الحضارية الثقافية هذه ستمكنهم من تحقيق الهيمنة المطلقة في كل جوانبها: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وإن اقتضى الأمر العسكرية وتفرض التبعية التامة لمراكز القوى الاستعمارية التي تريد فرض منطق واحد على العالم كله ، وذلك لأن الشعوب التي تتخلى عن ثقافتها لصالح الثقافات الأخرى المستعمرة لا ترى ضيرا في أن يتم احتواؤها وإدماجها في غيرها. وتحقيقا لهذا المنطق وترويجا له عند شعوبها راحت أجهزة الدعاية والإعلام الغربية تصور دولها بأنها تتعرض لهجمة من قوى إسلامية (متخلفة) متمثلة بالقاعدة متخذة من هذا ذريعة لاحتلال دول العالم الإسلامي لاسيما الدول التي تريد استمرار ربطها بسياساتها كالعراق بعد التحرر من نظام صدام . إن استغلال القاعدة ذريعة للهجوم على دول محددة يؤكد حقيقة ارتباط القاعدة بالمشروع الإمبريالي الجديد متمثلا بالعولمة لأنها الذريعة التي يستغلها هذا المشروع لتحقق له غزوه وحربه الثقافية والحضارية كما أوصت نظرية صراع الحضارات . وهكذا أصبحت القاعدة في نظر الشعوب الغربية ظاهرة ثقافية غير متحضرة تهدد العالم المتحضر وتسعى الى محاربته فكريا وثقافيا وماديا وهدم البنية الحضارية التحتية له، ولهذا يجب على هذه الشعوب تقديم الدعم لحكوماتها في حربها الثقافية والعسكرية للقاعدة . لقد بقي أمام القوى الاستعمارية بعد أن أصبحت تمثل القطب الواحد بعد غلبة النظام الاشتراكي أن تغلب الإسلام الذي يقف بوجهها في محاولتها السيطرة على العالم الإسلامي ، ولهذا سمت مرحلة الصراع الجديدة بمرحلة الصراع الحضاري – بعد انقضاء مرحلة الصراع الآيديولوجي مع الشيوعية– وهي تنظر الى الإسلام بوصفه حضارة عنيدة قوية تقاوم محاولات صهرها وإذابتها لأن الدين الذي يمثل العنصر الجوهري في هذه الحضارة كما تصفه نظرية (صراع الحضارات) هو الذي يقف في وجه المد الاستعماري في أشرس حالاته المتمثلة بالعولمة.

العولمة محاولة لاستعمار الكون أو للسيطرة عليه أو (عولمته) ، وإذا كان الاستعمار أو الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية فإن العولمة هي أعلى مراحل الرأسمالية في آخر مراحلها وهي ما يسمى بالرأسمالية المتوحشة ، فهي امتداد وتطوير خطير للمرحلة الاستعمارية القديمة وتجاوز للأخطاء التي وقعت فيها سابقا والتي أدت الى فشلها وانتصار إرادة الشعوب عليها ، إذ أدركت أن سبب هذا الفشل يرجع الى المقاومة الثقافية للشعوب التي استعمرتها والى العامل الجوهري في هذه الثقافة وهو الدين الذي يحث على مقاومة الاستعمار . ولذلك عملت هذه الإمبريالية الجديدة ومن خلال النظريات التي توجهها في سعيها هذا لاسيما (نظرية صراع الحضارات) على محاربة الدين الإسلامي فابتكرت (القاعدة) التي شوهت الإسلام ثقافة وحضارة وأحطت من سمعته على مستوى العالم . واتخذت من حربها للقاعدة ذريعة لغزو البلدان التي تريد احتلالها مباشرة الى أن ترتب الأوضاع فيها لصالحها وتضع حكم البلاد بيد من تعتمد

عليهم . ومن المستغرب أن يغفل أو يتغافل السياسيون في العراق عن حقيقة الدور الأمريكي والسياسة الأمريكية التي توجهها غايات العولمة ، فلا إدانة ولا إشارة لا من قريب ولا من بعيد وفي هذا دليل واضح على حقيقة الديمقراطية الأمريكية التي تكم الأفواه وتكتم الأنفاس .

الديمقراطية الليبرالية هي الوجه السياسي للعولمة أو النظرية السياسية لها وهي النظام السياسي الموحد الذي تتذرع العولمة الأمريكية ضمن محاولتها لاستعمار الكون بغاية نشره لدى الشعوب والدفاع عنه ، فثقافة الديمقراطية تدفع التطرف الديني المتمثل بالقاعدة كما يقول جورج بوش ، وهم يسعون الى (نشر الديمقراطية ودعمها في كل ثقافة وأمة .. ذلك للحفاظ على أمن الشعب الأمريكي) وهذا يعني أن الولايات المتحدة حفاظا لمصلحتها تستعمر البلدان وتخوض في داخلها حروبا تعرض حياة أبنائها للخطر والبنية التحتية لها للدمار وهو ما لا يرضاه أي بلد في العالم وهو يحدث بمنطق الفرض والقوة وهو غير منطق الديمقراطية . إن من أولويات الأفكار عن الاستعمار أنه محاولة للسيطرة والهيمنة وهذه تخالف روح الديمقراطية ، فالديمقراطية خيار حر وليست فرضا، وهنالك تعليق ساخر وصف الديمقراطية الأمريكية بأنها (ديمقراطية محمولة جوا) بالطائرات والحملات العسكرية ، وهكذا أصبحت السيطرة السياسية نشرا للديمقراطية . إن العولمة مشروع للهيمنة الكونية وهذا المشروع لا يمكن أن يكون ديمقراطيا ولا إنسانيا ولا أخلاقيا . والمفارقة أنها تتخذ من فكرة الديمقراطية والرغبة في إشاعة الحريات العامة في العالم وسيلة للهيمنة على العالم وسلبه حرياته، فهي حرية زائفة كما أنها ديمقراطية زائفة . وما مفهوم (مع أو ضد امريكا) الذي عبرعنه تصريح الرئيس الامريكي السابق (بوش) إلا تعبير عن السياسة الامريكية التي تعتمد أسلوب الترهيب والضغط وسلب الآخرين حرياتهم. وما مفهوم (نهاية التاريخ) الذي طرحه فوكوياما وهو يشير الى الديمقراطية الليبرالية التي يراها النظام الذي ينتهي عنده التاريخ إلا تأكيد لروح الغطرسة والاستعلاء وأسلوب الفرض لهذا النظام السياسي الذي يريدونه نظاما مطلقا يعم الكون كله وينتهي عنده الكون كله. فالديمقراطية التي يبشرون بها مشروع يخفي وراءه رغبة في قمع الآخر وإضعافه وإذلاله والسيطرة على مقدراته وسرقته، فهل يصح بعد هذا اعتبار هذا المشروع مشروعا ديمقراطيا حضاريا وإنسانيا ؟.. الديمقراطية تعني الحرية، والحرية تعني الإرادة فلا فعل للإرادة بلا حرية.

والحرية تعني نفي سيطرة الغير وترك الأمر للشعوب والأمم بالاحتفاظ بخصوصياتها وعدم حملها بوسائل الفرض والاستحواذ والاستيعاب على التخلي عن خصوصياتها . والعولمة تلغي الخصوصيات التي تعني التعدد ، لذا فإنها تتعارض مع الديمقراطية التي تعني التعدد والخصوصية.

الديمقراطية تضمن الحريات، والحريات ينبغي أن تكون مقيدة بالقانون وباحترام حريات الآخرين والآداب العامة ولكن الحريات المنصوص عليها في الديمقراطية الليبرالية حريات مطلقة وهذا يتعارض مع خصوصيات وثقافات بلدان ودول وأمم العالم

الأخرى، ولكن امريكا تحاصر هذه الدول بالمطالبة بأن تأخذ مثلها بالحريات العامة المطلقة المنصوص عليها في ديمقراطيتها ، ولذلك فهي تنظر الى كل أشكال الديمقراطية غير الديمقراطية الليبرالية بأنها ديمقراطيات شكلية وليست ديمقراطيات حقيقية ولا تأخذ بالاعتبار أنها تنبع من خصوصية الأمم وثقافاتها .

الديمقراطية في ظل العولمة تفتقد إذن الى الحرية كما تفتقد الى العدالة ذلك لأن العولمة ظلم واستبداد مدمر يسعى الى عالم تسيطر عليه القوة ورؤوس الأموال ويتطلع الى السيطرة على ثروات الأمم والتحكم باقتصادياتها، ومن وسائل ذلك ما نراه من ضغط البنك الدولي وصندوق النقد الدولي لإجراء تغييرات هيكلية في اقتصاديات الدول. وتسمى هيمنة الشركات المتعددة الجنسيات على اقتصاديات العالم في ظل العولمة تعاونا ومساعدات دولية كما يسمى التدخل في شؤون الدول المستقلة دفاعا عن حقوق الإنسان فيها ورغبة في إشاعة الحريات الديمقراطية .

إن الدفاع عن حقوق الإنسان تعني احترام خصوصياته الحضارية والثقافية والفكرية ، والعولمة مشروع لاختراق الآخر ثقافيا وفكريا وتذويبه وإعادة صياغته من جديد من خلال النموذج الامريكي وبوساطة وسائله الإعلامية المتطورة وشبكات الانترنيت والفضائيات ، فالعولمة مشروع يعبر عن استكبار وأنانية وإلغاء للآخر ومحاولة التغلب عليه ، مشروع يعتدي على خصوصية الناس وهوياتهم ويحاول سلبها منهم ودمجهم في هوية غير هويتهم هي هوية المستعمر وضمن كيان واحد تسقط أو تتهاوى فيه كل الحدود الوطنية والقومية وكل الخصوصيات وعدم السماح لهم بالمحافظة على تنوع هوياتهم وثقافاتهم والحيلولة دون تنميتها تحت شعار تقديم نموذج كوني للحضارة، وهذا ضد مبادىء حقوق الإنسان في مواثيق الأمم المتحدة التي لا تميز بين البشر وتحفظ لكل منهم ما يميزه. ونحن نرى في ما يجري في الساحة الدولية تواطؤاً أو تخاذلاً من المنظمات الدولية في صيانة واحترام مبادىء القوانين الدولية وانتهاكا لها بالإذعان للقوى المؤثرة سياسياً في الساحة الدولية. إن كل أشكال التدخل ومحاولة السيطرة هذه إنما تصب في عملية انتهاك السيادة الوطنية والتأثير في القرارات الوطنية . وعملية الاختراق الثقافي عملية استعمار وسيطرة على العقول والنفوس وأداة تسيير للإنسان تجعل من قضية الحريات العامة وإشاعتها واحترامها ضحكة على الشعوب ، كما تجعل من عملية حرية الانتخاب الديمقراطي مجرد وهم وخيال.

إن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية يشهد أنها ما تعاملت يوما مع الشعوب من منطلق التعاون والاحترام وعدم التدخل بل عملت على العكس من ذلك وما العولمة – التي تقود مشروعها الآن– إلا محاولة لتجاوز الأوطان والأمم والدول وإلغائها لاحتوائها وابتلاعها.

وفضلا عن كل ما ذكرنا من زيف الديمقراطية التي تنشرها العولمة في العالم فإنها لا تستند الى مبدأ المواطنة، ولا معنى للديمقراطية بدون المواطنة التي تعني الأخذ بفكرة المساواة وعدم التفريق بين المواطنين على أسس خارجة عن هذه الفكرة. فالمجتمع الأمريكي يعاني من تفاوت طبقي بين الرأسماليين وسواهم من عامة الشعب،

والرأسماليون أو من يعبر عنهم هم من يحكم فقط والمفروض أن الوصول الى الحكم أمر متاح للجميع. إن الديمقراطية تعني احترام مبدأ المواطنة وهو المبدأ الذي يضمن إقامة علاقات متكافئة بين أفراد الوطن الواحد ورفض التمييز بينهم لأنهم جميعا يمتلكون هوية مشتركة هي الهوية الأم التي تحتوي كل الهويات والتي يندمج فيها أفراد المجتمع على أسس قانونية يحترمها الجميع . واعتماداً على هذا المبدأ يختفي التمايز بين الأفراد على أساس عامل الثروة والفقر وعلى أساس عوامل انتماء وهويات أخرى كالجنس واللون والعرق والمذهب. وتعد المواطنة أساس بناء مجتمع منسجم ومتجانس وشعب متعايش وأساس تطور البلدان وازدهارها في الدول الديمقراطية. ولكن الملاحظ أن أمريكا ناشرة الديمقراطية في العالم والتي أوكلت اليها مهمة إدارة التجربة الديمقراطية في بلادنا عملت على إحياء انتماءات أخرى مفرقة وفردية وجعلت العمل السياسي يستند الى هذه الانتماءات ولا يستند إلى أهداف سياسية وطنية وإنسانية وذلك لأن هذه الحالات وهذه الانتماءات تكرس التباين في حين أن المواطنة جامعة تكرس الإتحاد والسلام والابتعاد عن العنف وأمريكا تريد أن تلعب على وتر التفرقة والاختلاف.

وأخيرا نتساءل ما العمل وما هو موقفنا تجاه العولمة والديمقراطية التي تدعو إليها ؟ ..

بعد أن تبينت لنا حقيقة العولمة ينبغي لنا أن نعمل على مواجهتها والتحصن ضد غاياتها وأهدافها ، وهذا يتطلب التدبر ومعرفة الظروف الراهنة وما استطاعت هذه القوى تكريسه في ساحة المجتمع العراقي مما يحول بينه وبين غاياته وأهم ذلك ما أشاعته من الخلاف والفرقة ، وأن يعمل الجميع على تجاوز الخلافات والاتحاد فبغير الاتحاد لا يمكن مواجهة مخططات العولمة والوقوف بوجه محاولاتها الرامية لإضعافنا لكي يتسنى لها اختراقنا وذلك من خلال ما توصي به نظرياتها من قطع الإنسان عن وطنه وأمته وثقافته وتاريخه وانتمائه تمهيدا لعولمته واحتوائه. ولهذا فإنها عندما أدارت العملية السياسية في العراق عملت– من أجل فرط عقد اتحادنا – على إحياء الانتماءات التي تعبر عن الأطر الضيقة وجعلها أساسا للعمل السياسي وتجاوز الأطر الوطنية الجامعة من أجل تعميق التناقضات بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة وإثارة التناحر والعداء فيما بينهم. وهي تعمل من خلال هذه الغاية على شرذمة الأمم والدول والكيانات الكبيرة لغرض إضعافها والسيطرة عليها. وتأتي الدعوة الى تقسيم العراق شاهدا على ذلك كما عملت سابقا على تقسيم الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية وغيرها من الدول لكي لا تقوم لها قائمة. إن علينا أن نعمل من أجل عملية تنوير جموع الناس بحقيقة هذا النظام الدولي الجديد الذي تريده امريكا والذي تسعى الى تصويره وكأنه قدر لابد من أن يقع على الشعوب وهو لا يزيدها إلا تأخرا وضعفا ، وأن نعمل على بناء تجربة جديدة غايتها التعاون البناء لمصلحة الشعب، تجربة تحافظ على خصوصيتنا الحضارية والثقافية وتدفع عنا محاولات الاستعمار الثقافي وكل أشكال الاستعمار الأخرى.

أما عن الديمقراطية فنحن لا نعترض عليها ولا غيرنا بل إنها تمثل حلما للشعوب التي عانت من ويلات حكم الطغاة المستبدين

وتريد أن تختار من يحكمها ولكن علينا أن نشك في مصداقية أمريكا في الدعوة إليها، فهي صديقة الحكام الطغاة في المنطقة الذين يحكمون بالوراثة والمرتبطين بها، وهي صديقة للنظام الفاشي السابق الذي لا تضارعه كل أنظمة الدكتاتورية والتسلط في العالم وكانت تحرص على المحافظة عليه ولكن مقاومة الشعب وإرادته أضعفته وأزالت حاجز الخوف منه فقررت أمريكا إزالته بعد أن خافت من أن يسقط النظام بيد أبناء الشعب ويصبح حكم البلاد بأيديهم . وقد نادت بالديمقراطية في حين لم توفر لها ظروفها أو وفرت لها الظروف التي تلغيها إذ عملت على انهيار بنية الدولة والمؤسسات الأمنية والعسكرية وأشاعت الفتن الطائفية والعرقية وغيبت الفكر السياسي ذي الأهداف الوطنية فعمل السياسيون من خلال انتماءاتهم المذهبية والدينية والعرقية وتقاتل الناس على الهوية وتشاتموا وتقطعت أواصر الأخوة والصداقة وعمت الفوضى والاضطراب ووصفت أمريكا ما حدث بأنه ديمقراطية وحرية وهو في الحقيقة فوضى ضاربة أطنابها تسميها السياسة الأمريكية فوضى خلاقة. وإذا كانت الديمقراطية تعني حكم الأغلبية لا ترضى عن حكم الأغلبية وما تأتي به الانتخابات من نتائج إذا كانت هذه النتائج لا تأتي بمن يمثل مصالحها ونجدها تعترف بهذا صراحة في وثيقة استراتيجية الأمن القومي الأمريكي للعام 2006 فتبين (أن الانتخابات ليست كافية في حد ذاتها) كما أنها تقود أحيانا الى (نتائج غير مرغوبة) فتعمل على تلافي هذه النتائج ومكافحتها وهذا ما حصل بالواقع في الانتخابات التي جرت في المناطق الفلسطينية وفاز فيها مرشحو حماس. وبالنسبة إلينا فلأنها جاءت بما لا يمثل مصالحها أشارت بالتوافقية لكي تدس بأعوانها من جديد الى العملية السياسية، وظلت تضغط بكل الوسائل التي منها الأمنية في سبيل عودتهم الكاملة وإذا لم تفلح فهناك وسائل يتم اللجوء إليها كالتزوير وشراء الأصوات الانتخابية . من هنا يتضح أن دعوة أمريكا الى الديمقراطية سببه النظام الذي يمكنها من أن تدفع بأعوانها الى العمل السياسي في ظل الدعم والمساندة التي تقدمها لهم وليس محبة بالشعوب ولا إيمانا بالديمقراطية . فهي تخاف من الأنظمة الفردية التي تناهض سياساتها لأن هذه الأنظمة لا تسمح لأصدقاء أمريكا بمشاركتها الحكم وتخاف من حكم الحزب الواحد الذي يناهضها ولا يسمح لأصابعها من أن تمتد لتعبث بمصالح الشعوب كما كان الحال في عهد النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية. وبعد هذا علينا أن لا نتصور أن الديمقراطية هي وحدها الحل فكل شكل للحكم يضمن العدالة والمساواة والحرية والأمن يمكن أن يكون حلا فليست الديمقراطية غاية إنما وسيلة ولهذا لم يحدد الإسلام شكلا للحكم لكي يستوعب كل الأشكال التي تحقق الأهداف والمثل الإسلامية العليا . وإذا كنا نريد الديمقراطية دون سواها فعلينا أن نمهد لهذه الديمقراطية بتربية الشعب عليها لأنها ليست مجرد صيغة للحكم وإنما ثقافة وبدون الثقافة الديمقراطية فإن الشكل الديمقراطي صيغة فارغة من محتواها. وعلينا أن لا نتقيد بالصورة الغربية منها لأنها محدودة بالنظرة الوضعية التي تحد من آفاق الإنسان

والمجتمع على العكس من الصيغة التي نستطيع تسميتها بالإسلامية فهذه تفتح أمام الإنسان والمجتمع وحركة التاريخ آفاقا لا حدود لها إذ تربطها بالجانب الروحي وبالمطلق الذي يصبح هدفا للعمل السياسي فيكون مباراة يسعى المجتمع من خلال ممارستها الى تحقيق إرادة اللّه لا إرادة الإنسان في إقامة المجتمع العادل. ومن هنا علينا رفض فرض الديمقراطية بمواصفاتها الامريكية لأن في هذا –فضلا عن عدم صدقيتها – محاولة للارتماء في أحضان الأنظمة والثقافات الاستعمارية والتبعية لها والخروج على مرجعيتنا الثقافية ، فالإسلام لا يعادي الديمقراطية لأنه وإن كان ينطلق من مبدأ (الحاكمية للّه) وأنه مصدر السلطات إلا أن التفسير الإسلامي لذلك يبين أن المراد من ذلك أن اللّه أوكل الى الأمة والى الإنسان أن يمارس هذه السلطات من خلال علاقة جدلية بينهما يستوحي فيها الإنسان نظرية السماء لحكم الأرض الى أن يتمكن من استيعابها تماما من خلال أشكال الحكم المتنوعة التي يقيمها في الأرض. فالإسلام يؤمن بسيادة الإنسان وسيادة الأمة التي تتمثل إرادة اللّه وتعبر عنها. وليس هو مع الحكم الفردي الديكتاتوري الذي يقمع الآخر ويلغيه ، فهو يؤمن بالتعددية واحترام الرأي والشورى والانتخاب وغير ذلك من الآليات الديمقراطية. صحيح أن الإسلام لم يحدد شكلا للحكم ولكن هذا ليس نقصا، إنه اتصاف بالكمال فالإسلام أكد ضرورة الدولة أما شكل الدولة فلم يحدده وذلك لكي يستوعب كل المتغيرات والمستجدات التاريخية وبذلك يؤكد أنه صالح لكل زمان ومكان وأنه مطلق يترك التحديد إلا ما كان متصلا بالقيم والأخلاق والإجراءات التي يجب أن تلتزم بها الدولة لكي تكون إسلامية وإلهية . وبهذا فإن التفسير الإسلامي للحكم لا يعتبر الديمقراطية الليبرالية وبالمواصفات الأمريكية هي الشكل الحتمي الذي ينتهي عنده التاريخ .

نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي

عرض لكتاب الأستاذ كريم مروة

ا.د.حاكم محسن محمد الربيعي

نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي هو عنوان كتاب صدر للأستاذ والمفكر اللبناني كريم مروة عن دار الساقي ببيروت والكتاب هو عصارة تجربة طويلة لمؤلف الكتاب في العمل السياسي والفكري وفي قيادة الحزب الشيوعي اللبناني العريق، ويأتي الكتاب كرد على الآراء والطروحات التي يقدمها البعض على خلفية انهيار التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ودول أوربا الشرقية،

ولكن من يستعرض الأحداث قبل وبعد الانهيار يجد ان شعوب هذه الدول لديها حنين الى الماضي يوم كان يعيش الجميع في امن وسلام وكفاية للحاجات ومتطلبات العيش المترفة وعندما سئل متسول في موسكو أي النظامين أفضل قال بالتحديد انا لا اعرف ان أميز ولكني لم اكن متسولا في السابق واليوم كما تروني هو تعبير بسيط ولكنه يحمل أشارات واسعة عن ميزات ومساوئ كلا الحالتين ولقد انعكس انهيار التجربة الاشتراكية على حركة اليسار العربي في ضوء ما خلفته في العالم المعاصر تلك الانكسارات والتراجعات الكبرى التي شهدها اليسار في العقود الأخيرة وقد جاء الكتاب بقسمين الاول – تناول اليسار في العالم العربي وتحولات العالم المعاصر وما جاء فيه، واذا كان لليسار في العالم العربي ان يستعيد دوره في ظل هذه التحولات بعد انهيار التجربة الاشتراكية، فان عليه ان يقرأ حقائق هي تعبير عن الاتجاه العام الجديد الذي سيميز مسار حركة التاريخ وان يقرأ معها في الوقت ذاته الحقائق التاريخية الأخرى القديم والحديث منها ويركز ان على اليسار في العالم العربي، اليسار الجديد على وجه الخصوص ان يبدأ الحديث عن المستقبل ليس فقط من حيث انتهت اليه التجربة الاشتراكية، بل ان يغوص خصوصا في قراءة هذه التحولات الكبرى الجارية في العالم، ليس في لحظتها الراهنة وليس في

جانب واحد منها ولا في اتجاه واحد من اتجاهاتها بل فيها جميعا وفي الجذور التاريخية التي كانت تقود اليها، حقبة اثر حقبة ومرحلة اثر مرحلة، ومن البديهي ان على هذا اليسار ان يدرك بواقعية، ان عالم اليوم وعالمنا العربي جزء منه محكوم في ظل هذه التحولات الكبرى والى زمن غير محدد، بالنظام الرأسمالي المعولم بكل ما فيه من تناقضات، في الايجابي منها وفي السلبي على حد سواء وان على اليسار الجديد ان يظل مثابراً في نضاله من اجل التغيير في شروط العصر كظاهرة تاريخية وكاتجاه تاريخي في جانبيها الأساسيين المتناقضين لا في جانب واحد منهما متجاهلا الجانب الآخر، يتمثل الجانب الأول من العولمة بما ارتبط بتطور الرأسمالية منذ البدايات الأولى وفق استنتاجات ماركس من تقدم شمل جميع جوانب الحياة، اما الجانب الآخر من العولمة وهو الجانب الأساسي فيها، فيتمثل بتفاقم استغلال الإنسان للإنسان من قبل رأس المال المعولم وتعاظم مظاهر وآليات الظلم والقهر والاستبداد للبت في صيغ جديدة غير مسبوقة وازدياد إشكال التمايز الاجتماعي والتفاوت المذهل في الثروة بين قلة قليلة تستحوذ على القسم الأعظم من الثروة وكثرة ساحقة تحرم من ابسط مقومات الحياة وهي جميعها مظاهر تعبر عن توحش من قبل رأس المال المعولم يطال البشر ويطال الطبيعة والمحيط الخارجي للكوكب واخطر ما في هذا التوحش الرأسمالي انه يستخدم المنجزات المذهلة للعلم في ميادينه المختلفة في تعظيم استغلاله للاكثرية الساحقة من البشر. وفي تدمير الطبيعة ويعرج المؤلف على الأزمة المالية العالمية الجديدة ويقول بانها جاءت لتؤكد ان طبيعة النظام الرأسمالي ولاسيما في ظل تحوله الى عولمة رأسمالية ستظل تفرز أزمات من أنواع وأحجام مختلفة ويجمع خبراء الاقتصاد وقيادات البلدان الرأسمالية ذاتها على ان الأزمة الراهنة هي الأكبر والأخطر من حيث الحجم والتأثير والنتائج على النظام الرأسمالي ذاته وعلى البشر جميعا وان أسباب أزمة رأس المال تجاوزت القوانين الموضوعية التي يفترض فيها ان تعظم العلاقات بين البشر ولم يراعِ أصحاب رأس المال شروط العلاقة الضرورية والصحيحة مع الطبيعة في كوكبنا الأرضي.

ولم يولوا اهتماماً للمخاطر التي يولدها نشاط مؤسساتهم على المحيط الخارجي للكوكب، وان التجاوز على القوانين بلغ ذروته بعد انهيار التجربة الاشتراكية اذ تصور المنظرون لرأس المال المعولم هذا، والمنظرون للنظام الرأسمالي عموما ولديمومته ان انهيار النظام الاشتراكي قد حرم البشر من حقهم الطبيعي في الحلم لمستقبل أفضل لهم، في نظام تتوحد فيه بنسب متفاوتة بين مرحلة وأخرى في مسار حركة التاريخ، الأقاليم الثلاثة الأساسية في حياة البشرية الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية وهي الأقاليم التي تمثل الإنسان وتمثل حقوقه الأساسية جوهرها والهدف الأساسي والأسمى من النضال لتحقيقها وهذه الأقاليم هي ذاتها التي في القرن التاسع عشر في شروط جديدة متقدمة عما كان سائدا في مراحل تاريخية سابقة الأساس الموضوعي لمشروع ماركس لتغيير العالم وهو التنظير لديمومة النظام الرأسمالي هو الذي اصبح يعرف في الأدبيات المعاصرة بنظرية نهاية التاريخ ويعد هذا التنظير بالطبع أسوأ ما أنتجته هذه المرحلة الجديدة في تاريخ

العالم، المرحلة التي كانت تتهيأ شروطها قبل انهيار النظام الاشتراكي، ويستخلص المؤلف مجموعة من الاستنتاجات من أهمها:

1- الاستنتاج الأول هو ان رأس المال المعولم حتى في ظل توحشه وفي ظل ازمته الراهنة، قد كون مع تطوره اتجاها موضوعيا يقود الى وحدة العالم في صورة غير مسبوقة وهذه الوحدة للعالم في تصور المؤلف هي من رؤى ماركس للاتجاه التاريخي الذي يوافق التراكم الرأسمالي هي حقيقة تاريخية موضوعية لابد من الإقرار بها ولابد من تجنب تجاهلها وتجاهل مفاعيلها.

2- الاستنتاج الثاني هو ان الدولة الوطنية ما تزال بحاجة الى ان تتوطد مواقفها وان يتعزز دورها كناظم للحياة خلافاً لما شاع بعد انهيار التجربة الاشتراكية وردا على المبالغة في أعطاء الدولة وظائف تتجاوز دورها في البلدان التي اتخذت صفة الاشتراكية وهي البلدان التي اتخذت صفة التوجه الاشتراكي وفشلت جميعها في دورها لقد تجاوز رأس المال في تطوره العاصف حدود الدولة.

3- الاستنتاج الثالث، هو الانجازات الإقليمية التي نشأت والتي تنشأ في مناطق مختلفة من العالم انما تشكل في تكوينها مظهرا من مظاهر التعبير عن وحدة العالم من جهة وتعبر من جهة ثانية عن اتجاه حقيقي لخلق مراكز جديدة وكبيرة تمثل بتنوعها وثباتها إضافة الى الصين الصاعدة وروسيا واليابان والهند تعداداً قطبيا يحد مع الوقت من الهيمنة الأمريكية الأحادية القطبية على العالم مما يؤدي الى تعاظم دور ناظم للحياة.

4- الاستنتاج الرابع هو ان هذه الأزمة المالية العاصفة، انما تتطلب من الطامحين الى التغيير في بلداننا باسم اليسار الجديد خصوصا بمدارسه المختلفة ان يجهدوا وبكل طاقاتهم لصياغة برنامجهم او برامجهم الرامية الى تحقيق هذا التغيير.

وفي تحديده للعوامل التي تعيق تكوين نظام عالمي جديد حدد هذه العوامل كما يلي:

1- العامل الأول، من حيث المبدأ هو الأساس الذي يقوم عليه النظام الرأسمالي وتقوم عليه بنيته وقوانينه الخاصة به وهو نظام استغلال وقهر وظلم وهو النظام الذي تولد فيه على الدوام ظاهرات متعددة من أشكال استعباد البشر واستغلالهم والاعتداء على الطبيعة وعلى محيطها الخارجي.

2- العامل الثاني يتمثل بالقوة التي ما يزال يتمتع بها المحافظون الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا في معارضتهم لسياسة الرئيس الأمريكي وما جاء في سياسته وطروحاته التي يستحسنها السامع ويأمل في تحقيقها.

3- العامل الثالث فيتمثل في بقايا حروب التدخل التي قامت بها الإدارات الأمريكية السابقة في الشرق الأوسط وفي أفريقيا.

4- العامل الرابع هو التفاوت الكبير والخطير المتزايد على الدوام بين الشمال والجنوب في الثروة والتطور وأنظمة الحكم وهو تفاوت ولد وما يزال يولد الفقر والجوع والمرض والنزاعات القبلية والحروب الاهلية وكل أشكال التطرف التي تعمل على بقاء الجنوب في حالة مديونية كبيرة مع استبداد في أنظمة الحكم وفساد مستمر.

5- العامل الخامس يتمثل في الموقف الثابت والمساند للكيا ن الصهيوني لدى الإدارات الأمريكية كلها من القضية الفلسطينية و التي تقف موقفا عنصريا بغيضا وتتجاهل حقوق الشعب الفلسطيني.

6- العامل السادس يتمثل في عدد من قضايا الأقليات القومية والدينية في أسيا وأفريقيا ومنها بلداننا العربية مازالت تستعصي على الحل مما يولد حروبا اهلية لا تنتهي ويعد السودان مثالا بارزا على كل ذلك.

7- العامل السابع يتمثل في استمرار العديد من بلدان أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أسيرة أنظمة الاستبداد التي تمارس القمع لشعوبها وتشرع للفساد والجريمه مما يبقي هذه الدول اسيرة الفقر والمرض والجوع والنزاعات.

8- العامل الثامن يتمثل في التطرف الأصولي ولاسيما ما صار يعرف بالإرهاب الدولي وقد اصبح ذلك خطراً حقيقيا على الاستقرار في أسيا وأفريقيا وفي مناطق اخرى من العالم.

9- العامل التاسع يتمثل في السباق على التسلح النووي في بعض مناطق العالم ولاسيما في الشرق الأوسط واسيا.

10- العامل العاشر يتمثل في تراجع القوى الديمقراطية في العالم واليسار منها على وجهة التحديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ويترافق مع تراجع هذه القوى تحول أقسام منها الى وحدات راديكالية شعبوية، تمثل ردود فعل على التوحش الرأسمالي وتخلق أوهاما حول مستقبل لا تتوفر فيه شروط واقعية لتحقيقه في مدى التطور.

هذه مجموعة من العوامل التي تعيق تكون نظام اقتصادي عالمي جديد.

ولذلك على اليسار العربي مهمة تاريخية هو ان يمتلك القدرة على وضع برنامج جديد للتغيير في مواجهة هدف التحولات بجانبيها السلبي والايجابي.

ويحدد المؤلف مهمة اليسار الجديد (اليسار العربي الجديد) في هذا الظرف التاريخي بالتحديد بانها العمل على تحديد دقيق وواقعي للأهداف الممكنة التحقق، الأهداف التي تتصل بنقل بلداننا من حالتي التخلف والاستبداد ووضعها على طريق الحرية والتقدم واحترام حقوق الإنسان وإدخال القوانين الديمقراطية الى مؤسسات الدولة التي تجعلها جزءاً من العصر ومن تحولاته وهذه المهمة التاريخية تمثل تواصلا مع ما ارتبط بالفكر الاشتراكي، وان المشروع الذي يقترحه المؤلف لليسار في العالم العربي في هذه الظروف يجب ان يعلم أهل اليسار بانهم ليسوا أوصياء على الجميع وليسوا هم المالكين المطلقين للملكية ولا تمثل برامجهم بالضرورة وفي كل الأوقات كل ما تطمح اليه شعوبهم في حركة التغيير، بل ان على اهل اليسار هؤلاء من كل المواقع والعاملين ان يعملو دائما لتصويب وتسديد مواقفهم وسياساتهم وان يبذلوا أقصى جهدهم لإقناع الجماهير التي يمثلونها ومجمل الشعب بأنهم أوفياء في الممارسة السياسية والأخلاقية، لما يقدمونه من برامج ترمي الى تقدم أوطانهم وتحقيق سعادة شعوبهم وعليهم ان يعترفوا بشركائهم في التغيير، وحدد المفكر اللبناني المؤلف كريم مروه –المرتكزات الأساسية في مشروع التغيير باسم اليسار، علما ان التغيير ليس مجرد شعار يطلقه الناس يرغبون في تغيير واقع ظالم في بلدانهم في اتجاه الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية بل هي عملية لها شروطها التي في حال تجاوزها يصبح التغيير المنشود متعذرا. وأولى هذه المرتكزات –هو إعادة الاعتبار الى السياسة بمضمونها الثقافي والعلمي

والاقتصادي والاجتماعي وباستنادها الى الأخلاق والمعني بالأخلاق هو تحرير العمل السياسي من النفاق والتزوير والفساد وإثارة الغرائز والشرط الأساسي لممارسة السياسة هو يجب ان تسود ثقافة التنوع والتعدد وحق الأفراد والجماعات في التعبير عن اختلافها في الأفكار وفي المواقف وفي الانتماءات الاجتماعية والسياسية، اذ ليس من المنطقي ان تعطي المجموعات السياسية لنفسها الحق في احتكار الحقيقة وان تتهم أية مجموعة كانت من الآخرين باتهامات باطلة وبعيدة عن الواقع وان تلحق بالآخرين تهما باطله وغير دقيقة ، كالكفر عند الدينين والتحريفية والارتداد او ما شابهها عند الاشتراكيين وتعطي لنفسها الحق في ممارسة القمع للمختلف سواء بالطرد او بالتنكيل عند البعض او بالإقصاء او بالقتل عند البعض الآخر، ويعد التأكيد على القيم الإنسانية واحترامها، قيم الحرية والتقدم والعدالة والمساواة من المهمات الأساسية لكل حركة تغيير، فان مفاهيم المواطنة وهي ان يشعر الانسان في بلده انه مواطن وله الحق في حمل اسم بلده وان يتمتع فيه بكامل حريتة والحقوق والواجبات في دولة أساسها القانون والحق اذ يعد ذلك من الشروط الأساسية التي تقوم عليها دعائم الدولة الحديثة وحدد المؤلف برنامجاً مقترحاً يمكن ان يكون برنامجاً للتغيير لليسار في العالم العربي مع اختلاف الظروف والمعوقات في كل بلد عربي ويتضمن البرنامج مجموعة من القضايا وكانت كالأتي:

1- القضية الأولى هي المتعلقة ببناء الدولة اذ ان الوقت قد حان للتخلص من النظم الاستبدادية للدول السائدة فيها مثل هذه الأنظمة والبديل طبعا هو الدولة الديمقراطية الحديثة وهي دولة حق وقانون ومواطنة، دولة مؤسسات ديمقراطية، تلتزم بما هو معروف في تاريخ الدول الحديثة وتحرير الدولة من الاستخدام السيء للسلطة وللدين، فالدين هو الداعي للإرشاد والدعوة الى المحبة والألفة وسيادة العدل دون أكراه او قسر او تكفير اذ دفعت الشعوب العربية ثمنا باهظا من تدخل المؤسسات الدينية في شؤون الدولة.

2- القضية الثانية تتعلق بالمجتمع المدني بمؤسساته المختلفة، والمجتمع المدني هو البديل من المجتمع الأصلي، فالمجتمع المدني خلاف للمجتمع الأصلي هو الذي يتوزع فيه المواطنون بين قبائل وعائلات وتيارات دينية متنازعة فيما بينها يتوزع المواطنون مدنيا بين أحزاب ومؤسسات وجمعيات اجتماعية وثقافية ونقابات عمال .

3- القضية الثالثة تتعلق بالمسألة الوطنية في كل بلد بالدفاع وبالوسائل المتاحة تحت سلطة الدولة عن الاستقلال والسيادة الوطنية ومنع أي تدخل خارجي في شؤون البلد المعني ان للاستقلال والسيادة معنى واحداً لا يتجزأ.

4- القضية الرابعة تتعلق بشرط تحقيق التقدم الاقتصادي لإخراج بلداننا من تخلفها المزمن في كل جوانبه، واذا كانت الخطط الاقتصادية للتنمية التي اتبعتها بعض الدول العربية التي سادت فيها أنظمة شمولية قد فشلت، وفشل معها القطاع العام الذي ساد في تلك الأنظمة وكان مركزا للفساد والهدر للمال العام وللإثراء غير المشروع للقيمين عليه بدلا من ان يكون مصدر غنى للدولة، وان ما سمي بالانفتاح الاقتصادي بديلاً عن تلك الخطط، قد ادى الى المزيد من البرامج يأخذ في الاعتبار

ضـرورات تحقيق التنميـة الاقتصـاديـة المنشـودة، شـريطة ان تقتـرن تلك البـرامج بإصلاحات مالية وضريبية في الاتجاه الذي يخدم خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

5- القضية الخـامسـة وتتعلق بـالموارد الطبيعية التي تشكل ثروة البلدان العربية المحقق منهـا وغيـر المحقق، وهـذه الثروة بـأنواعها المختلفة هي من حيث المبدأ تشكل مصدرا غنياً للبلدان العربية وأساس تقدمها الاقتصـادي والاجتماعي كونـها في الواقع الراهـن النقيض لما هـو مطلـوب منها في مستويات مختلفة.

6- اما القضيـة السادسـة فهي تتعلق بالتنمية الاجتماعية وهي التنمية التي تعنى بالبشـر، بحياتهم بمعيشتهم بـالضمـانات الصحية والاجتماعية التي يجب ان تشمل كل جوانب الحياة.

7- القضية السابعة تتعلق بـالضمـانات الاجتماعية وفي مقدمتها الضمانة الصحية التي يجب ان تشمل جميع المواطنين من دون استثناء ذلك ان الضمانات الاجتماعية في بلداننا لم تسلك طريقها الـى التحقق الا جزئيا.

8- القضية الثامنة -تتعلق بـالاهتمام بـالثقافة وبـالمعرفة في كل فروعها إنتاجا وتقيما وبكل الوسائل والوسـائط الا ان اهم ميدان لإنتـاج الثقافة والمعرفة هـو المدارس والجامعات والتعليم الرسمي في كل مرحلة.

9- القضيـة التـاسعة تتعلق بـالبحث العلمي للعلوم ومراكز البحث العلمية لها دور أسـاسي يعـود للـدولة في تـقريره وتطويره والإنفـاق الـواسع عليه وعلـى البـاحثين في ميادينه، فـالبحث العلـمي هو عـامل أسـاسي في تقدم الدول في ظل الميادين.

10- القضيـة العاشـرة تتعلق بكل مـا يتصل بالتراث الثقافي والاجتماعي الذي هو الأساس في تحـديد الهوية لشعوبنـا العربية بـالفرد والمجتمع، فـان الاعتـزاز بـالهـوية والـتمسـك بها وتطوير عنـاصر الـشخصـية الوطنية، هي من الأولـويات التي من دونها لا يقوم كيان وطني موحد.

11- القـضيـة الحـاديـة عشـرة تتعلق بالاهـتمام بـالشـباب، تنشئة وتعلما وتـوفير فـرص عمل وشـروط النـشـاط البـدنـي والترفيهي والسهر علـى تلبية الحـاجات الأسـاسيـة لـهم والتي تسـاهـم في بنـاء الشخصية لهم، باعتبار الشباب هم طاقة المجتمع العـاملـة والتي سـتصبـح فاعلة في بناء المجتمع.

12- القضية الثانية عشرة، تتعلق بحقوق المرأة اذ رغم مـا تحقق من تقدم في مجـال حقوق المرأة في البلدان العربية الا انه مازال بسيطا وجزئيا، فان المرأة ما تزال تعاني من إشكال متعددة من الظلم والاستبداد وتحرم من الـدور الـذي يعـود لهـا في بنـاء المجتمع وتحمل المسؤولية الى جـانب الدولة لبعض المؤسسات السياسية والاجتماعية وبعض الحركات الأصولية الـتي تبتـدع نصـوصا ومقولات واجتهادات تقلل من شأن المرأة.

13- القضية الثالثة عشرة تتعلق بالنضال ضـد التطرف الذي صـار يحمل في بلداننا وفي العالـم صفة الإرهـاب بكل المعـاني وهو إرهـاب يـتخـذ أصحـابه شعـارات سلفية يلحـقونـها بـالديـن تعسـفا ورياء وتتناقض تمـامـا مع جـوهـر الـديـن وقيمه الـروحية وبمعزل عن الشروط والأسباب التي أدت الى استفحـال الظاهـرة والتي يجب ان تـواجههـا الدولة والمجتمع.

14- القـضيـة الـرابعـة عشـرة تتعلق بـالاهتمـام بالبيئة وبـالمحيط وبكل مـا يتصل

بالحفاظ على الحياة وبحماية الطبيعة من محاولات تدميرها وفي مواجهة اخطار التصحر، الا ان الأخطار التي تهدد البيئة لا تنحصر فيما تقوم به القوى المهيمنة في بلداننا وفي العالم التي تتحكم في مصائر الشعوب تأمينا لمصالحها، بل ان الناس أصحاب المصالح المعنية في الدفاع عن حياتهم انما يسهمون في توليد هذه الأخطار بسبب الجهل السائد.

15- القضية الخامسة عشرة –تتعلق بالنضال ضد أنظمة الاستبداد وضد أشكال تحكم سلطاتها في شؤون البلاد كلها، والنضال خصوصا في اتجاهين، الأول القوانين الاستثنائية وتحرير البلاد والشعوب والمواطن من وسائل القمع التي تتعرض لها حرياته ونشاطه في شتى الميادين.

16- القضية السادسة عشرة تتعلق بالقضية الفلسطينية وهذه القضية مستمرة منذ خمسين عاما وتحديدا بعد قيام الكيان الصهيوني، ويجري تسويف حقوق الشعب الفلسطيني دون ان يكون هناك بارقة امل في حل هذه القضية اذ مر على التطبيع 23 سنة واعتقد الناس ان حل المشكلة الفلسطينية سيكون بعد التطبيع ومنذ ذلك الحين والكيان الصهيوني اشد إصرارا على عدم أعطاء حقوق الفلسطينيين في إقامة دولتهم المستقلة، والمشكلة الحقيقية في هذا الكيان والمجتمع الدولي.

17- القضية السابعة عشرة تتعلق بمسألة الأقليات في العالم العربي، فمعظم هذه الأقليات هي اقليات قومية واثنية وبعضها أقليات دينية وجوهر المشكلة يكمن في ان الاكثرية الدينية والأكثرية الإسلامية في البلدان العربية تتعاملان بطريقة عنصرية مع هذه الأقليات.

18- القضية الثامنة عشرة تتعلق بالسهر على توحيد علاقات التكامل بين البلدان العربية في شتى المجالات الاقتصادية والثقافية والعلمية وذلك على قاعدتي العلاقة التاريخية والمصالح المشتركة، فهذا التكامل هو الأساس في تحرر هذه البلدان و يمس سيادتها وخصوصيتها الوطنية.

19- القضية التاسعة عشرة، تتصل بعلاقة بلداننا بالعالم، فبلداننا ليست ولا يمكن ان تكون جزرةمعزولة ولا يمكن ان تكون محكومة فقط بعلاقاتها الإقليمية، فالعلاقات الإقليمية هذه هي علاقات شديدة التعقيد، كما تشير الى ذلك الوقائع الراهنة وطبيعي ان تكون لقوى اليسار في البلاد العربية ولسائر القوى الديمقراطية مواقفها مما يجري في العالم من تحولات وأحداث وأول ما ينبغي ان يكون في مركز اهتمام اليسار الموقف الحازم من السياسة التي سلكتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة في تدخلها الفظ في شؤون بلداننا، بما في ذلك العدوان العسكري المباشر كما حصل في العراق ودعم العدوان على الشعب الفلسطيني من الكيان الصهيوني، وعن ظاهرة الأصولية التي ظهرت في بعض البلدان العربية، مطلوب من اليسار تحديد مواقف حازمة ضد ظاهرة "الأصولية" السلفية التي تمارس باسم الدين الإسلامي بالضد من قيمه وباسم ما تدعيه من نضال ضد رأس المال المعولم وضد وسائطه وقواه الدولية تدميراً همجياً ومنظماً للحياة الإنسانية.

20- القضية العشرون، وتتعلق بقوى التغيير في العالم العربي على اختلاف مكوناتها وبإشكال وصيغ التعاون فيما بينها لتحقيق ما يمكن ان يكون برنامجا مشتركا

يدعم استقلال البلدان العربية وسيادتها، بالفرد والمجتمع، ويحقق التكامل بين هذه البلدان عن طريق الاتحاد العربي المنشود وتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي ويحقق لشعوبها الحرية والسعادة وركز القسم الثاني من الكتاب على نصوص مختارة من ماركس وانجلز ولينين وبليخا نوف وروزا لوكمسيورغ وغرامشي وهي نصوص مقتناة بعناية والقصد من هذه النصوص هو التأكيد بان افكار ماركس والماركسيين الكبار المكملين لفكره هو في الأساس فكر مستقبلي، فكر متحرك وغير ثابت، فكر جدلي لا ينحصر فيه هم ماركس وهم هؤلاء الماركسيين الكبار باللحظة التاريخية التي كانوا فيها وأنتج فيها مجموعة أفكارهم وانما ان هذه الافكار التي ولدت في ذلك الحين صالحة للمستقبل.

وأولى النصوص المختارة هو الاتي "ان تحرير العمل يتطلب رفع وسائل العمل الى مستوى ملكية المجتمع بأسره، وضبط العمل الإجمالي بصورة جماعية، مع توزيع دخل العمل توزيعا عادلا (من موضوعات برنامج غوتا) لحزب العمال الألماني.

ويعني بذلك الملكية العامة لوسائل العمل (الإنتاج) وإتاحة الفرصة للمشاركة من قبل القوى الأخرى القادرة على العمل من اجل الحصول على مشاركة في الدخول الناتجة عن العمل المشترك في وسائل العمل المشتركة.

وفي موقع اخر رفض ماركس وانجلس ظاهرة عبادة الفرد وبالتالي كانا ضد تكريس العبادة الخرافية للرجال العظام، اذ ان النصوص المختارة كانت تعزز الا فكار والطروحات التي جاء بها الأستاذ كريم مروه والاحرى انه استمد أفكاره التي طرحها في كتابه من أفكار هؤلاء المفكرين مع تجربته الغنية بالأفكار والطروحات، وفي الختام تحية الى الأستاذ مروه ونحو مزيد من الطروحات الغنية والبناءة، أمنياتنا له بالصحة الدائمة والعمر الطويل ونتمنى أيضا ان يكون القارئ على إحاطة بالكتاب من خلال هذا الاستعراض الذي ربما يكون طويلا اذ ان كل الكلام الذي ورد في الكتاب هو جدير بالاستعراض والطرح.

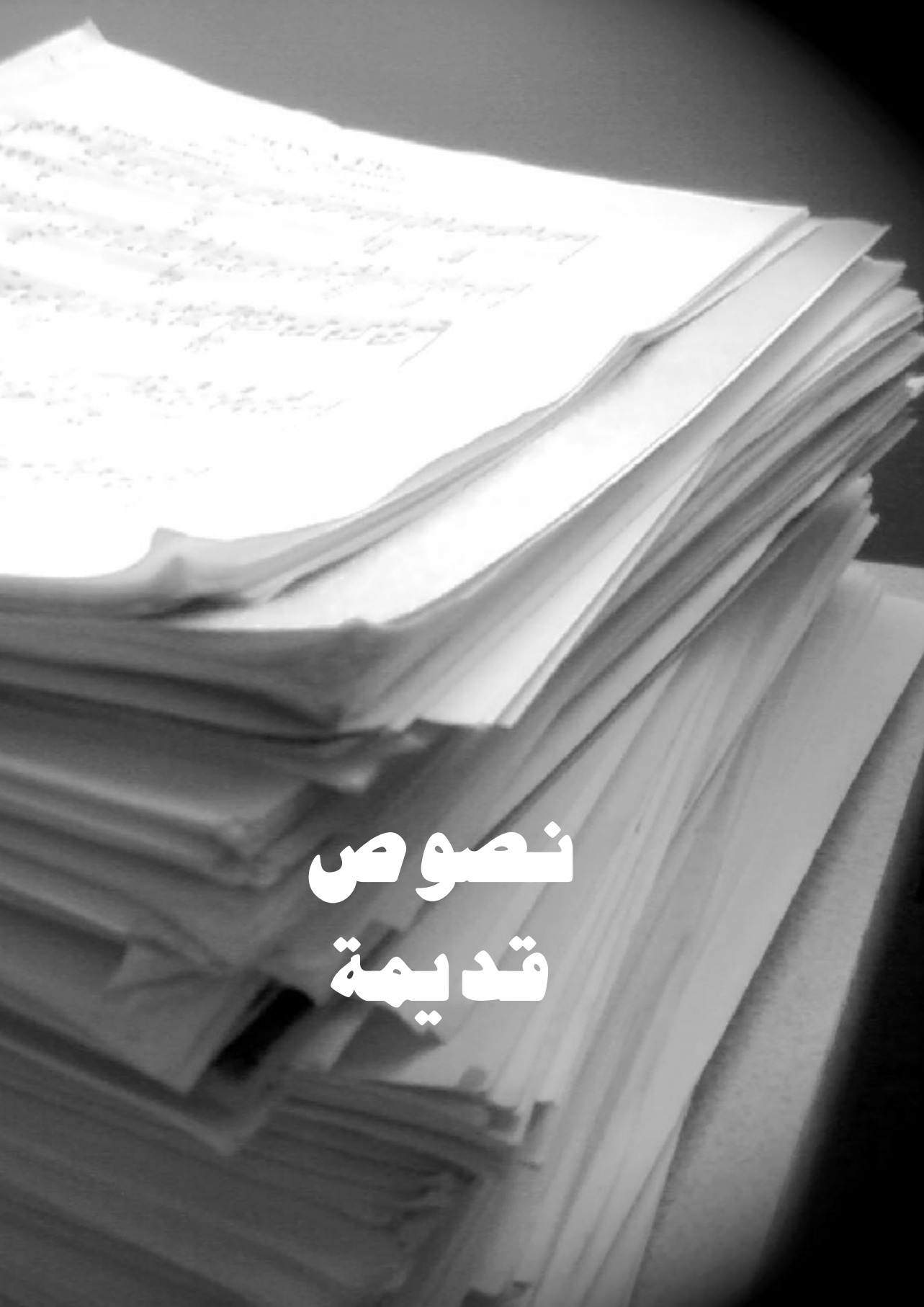
نصوص
قديمة

بمناسبة الذكرى 25 لثورة تموز المجيدة
خواطر وذكريات *

عامر عبد الله

كلمة لابد منها:

هذه الذكريات هي في الأصل مقالة نشر معظمها في (طريق الشعب) قبل ست سنوات، ولم تكن تتضمن بعض الوقائع الواردة في مقالة أخرى نشرت قبل تسع سنوات وكانت مكرسة لرثاء الصديق (رشيد مطلك) الذي كان حلقة الوصل بين حزبنا وعبد الكريم قاسم. ومثلما اعتذرت للقراء الأعزاء في وقته من العجالة في إعداد هذه المقالة وضيق فسحة الزمن التي إتيحت لي من بين المشاغل آنذاك؛ أجدني ويا للغرابة، مضطرا الآن إلى الاعتذار مجددا لنفس الأسباب. كذلك أود أن أؤكد كما فعلت سابقا، إلى أني لا أقوم بتحليل أو تقييم لهذه الثورة، وإن ما أقدمه هو مجرد سرد لبعض الوقائع والذكريات؛ وإنني لا انتدب نفسي (مؤرخا) لهذا الحدث الكبير في تاريخ حركتنا الثورية، وذلك لقصور في الاطلاع والاستذكار لأحداث ووقائع كان الكاتب شاهدا على (بعض فصولها) أو متابعا لها. فضلا عن إن الكثير من الوقائع والأسماء الواردة في هذه المقالة مستمدة من معين المعلومات الكثيرة التي تكدست لدى الحزب في عشية الثورة، لأن الحزب كان في الواقع في صميم الإعداد لهذا الحدث منذ البداية، وكان على تماس مباشر ودائم مع حركة الضباط الأحرار.

وأرى إلزاما أن أكرر هنا أيضا ما سبق ان قلته في مطلع المقالة المنشورة في (طريق الشعب) وهي: إن طائفة من الحقائق الصحيحة قد قيلت في ثورة تموز؛ ولكن قدرا أكبر من الروايات والأحكام الجائرة أو غير الصحيحة قد قيلت فيها أيضا – كما

تشهد على ذلك بعض الكتب والمطبوعات العربية والأجنبية – ولذلك يتطلب الأمر ممن ساهموا وعاشوا هذه الثورة أن يدلوا بما عندهم من وقائع وشواهد، وأن يقولوا فيها قولا يضع الحقائق في نصابها الصحيح.

وبعد، فأود أن أؤكد إن هذه المقالة التي تتضمن تفاصيل أكثر قليلا مما ورد في المقالة التي نشرت في (طريق الشعب) هي مجرد استطراد عفوي في سرد بعض الذكريات والوقائع السابقة لثورة تموز. أما الفترة اللاحقة لثورة تموز، وما اقترنت به من افتراءات مغرضة بشأن الكثير من مواقف الحزب، وما حفلت به من أحداث وتطورات خطيرة، فلها مجال آخر، قد يتسع الوقت لوضعها أمام أنظار التاريخ.

***

كانت البداية في ظهر يوم قائظ من صيف عام 1956، عندما وصلني من (رشيد مطلك) طلب عاجل للقاء بي، فطلبت من الرسول أن يأتي به إلي في الدار التي كنت أتخفى بها في (كمب الصليخ).

التقيت مع رشيد بعد انقضاء أربع سنوات على افتراقنا، فأبدى رشيد شيئا من الدهشة، منوها بأنه كان ينتظر أن يراني ملتحيا أو متنكرا؛ وتساءل بطيبة وبساطة عما إذا كنت أعيش هكذا (قابعا) في الدار لا أبرحها كل هذه السنين! وازدادت دهشة عندما بينت له إننا والآخرين من الرفاق لا نكاد نجد الوقت الكافي للتنقل والعمل والحركة في الليل والنهار.

بدا رشيد منفعلا متعجلا وقال: عبد الكريم قاسم في بيتي الآن، وهو يبلغك السلام.. وقد بعثني بمهمة إليك، وهو يستحثني للعودة إلى البيت بسرعة لأنه سيغادر إلى مقر عمله في معسكر (جلولاء) مساء هذا اليوم.

لم أكد أستوعب القضية بسرعة، فمعرفتي بعبد الكريم قاسم كانت تمتد إلى أواخر عام 1949 كما أذكر. وقد اعتدنا أن نلتقي في مطعم (شريف وحداد) الذي كان يديره رشيد مطلك. وكان هو وعبد الكريم أصدقاء قدامى منذ الطفولة حيث نشئا في محلة واحدة، ودرسا في مدرسة واحدة. واقتصرت علاقتي مع عبد الكريم قاسم على معرفة سطحية. فرغم ان الرجل كان جذابا، إلا انه كان مقلا في الحديث، ضعيف الاستجابة وخاصة في شؤون السياسة.

وفي أحيان قليلة كان يتحدث عن ذكرياته في حرب فلسطين. كما كان يلوذ بالصمت أو يبتسم ونحن نتحدث عن حركة الضباط الأحرار في مصر وثورة يوليو. وانقطعت عن رؤية عبد الكريم قاسم منذ أواخر عام 1952 عندما طلب مني الحزب التخفي وعدم الاستسلام للسلطة بعد انتفاضة تشرين؛ ولم أعرف عن وضعه شيئا حتى زارني رشيد مطلك، وفاجأني بالمهمة التي أوفده من أجلها.

قال: عبد الكريم يود أن يخبر الحزب الشيوعي من خلالك عن عزمه على القيام بثورة (لم يقل إنقلابا عسكريا) وهو يطلب مساندة الحزب بالمظاهرات الجماهيرية؛ ورأي الحزب في هذا العمل، وما لديه من مطالب ومقترحات، لأنه حدد وقت المباشرة بالانقلاب في مناورات الخريف القادم.

وأردف، إن صاحبنا يقول: "إننا سنحرر السجناء الشيوعيين من سجن بعقوبة ونجلبهم معنا ونحن في طريقنا إلى بغداد"!.

دهشت من هذا العرض، فلم يكن عبد الكريم

قاسم قد ترك لدي أدنى إنطباع بأنه يمكن أن يفكر بمثل هذه الأعمال. سألت (رشيد) ما هي رتبته الآن حتى يتولى تحقيق مثل هذا الانقلاب؟ قال: لقد أصبح (زعيم ركن) وتحت قيادته قوات كافية. ثم روى لي بعضا من أحاديثه وذكرياته عن إبن خالته المقدم الطيار "محمد علي جواد" الذي ساهم بانقلاب بكر صدقي عام 1936 وراح ضحية لتنكيل نوري السعيد، وكذلك عن ضرورة "القضاء على الظالمين" على حد تعبير قاسم؛ وعن الاتفاقية العسكرية مع الولايات المتحدة التي ساهمت على حد قول قاسم لرشيد، بتحسين تسليح القطعات العسكرية التي تعمل بإمرته. ما العمل ورشيد يريد جوابا مستعجلا، وأنا لا أملك حق البت في مثل هذه الأمور الخطيرة؟ ومع ذلك، قررت المغامرة بتحرير جواب مكتوب؛ حيث استأذنت (رشيد) ساعة من الزمن، واعددت مقترحات بنسختين اعطيته واحدة منها واحتفظت بالثانية. وفي مساء اليوم نفسه زارتني الرفيقة (أم إيمان) وهي ترتدي زي النساء الشعبيات، وكانت رسولا بين الرفيق "سلام عادل" وبيني. طلبت منها أن يأتيني على عجل، فجاء في صباح اليوم الثاني، وكان كالعادة يرتدي زي الفلاحين. عرضت عليه الأمر، ونسخة المقترحات فاستحسن المبادرة، ووافق على ما فيها من مطالب وأفكار، خصوصا وإن الحزب كان قد قرر التوجه للعمل في الجيش، رغم إن هذا العمل كان في بدايته تماما. ولم يبد "سلام عادل" استغرابا أو دهشة مما حدثته به، وطلب إدامة وتوثيق هذه الصلة، وفاجأني بالقول إن له صلة ما بفريق آخر من العسكر. وهكذا اقتسمنا العمل، أخذنا في المرحلة اللاحقة نقدم التقارير بعضنا لبعض عن التطورات في عمل الضباط الأحرار ومنظماتهم المختلفة. وكانت طبيعة هذا العمل وتقاليد عملنا السري قد وضعتنا "سلام عادل وأنا" في حالة إلتزام عفوي؛ حيث لم يذكر لي أية أسماء أو تفاصيل عن صلته بفريق من الضباط الأحرار، ولم يطلب مني اسم عبد الكريم قاسم أو رشيد.. وسارت الأمور على ما يرام وفق مصطلحات اعتدنا عليها مثل "صاحبنا" و"الوسيط" و"الجماعة".. إلخ.

كانت المقترحات التي قدمناها لقاسم برنامجا متكاملا تقريبا لسائر أهداف الحركة الوطنية، وقد نشرت في (طريق الشعب) قبل تسع سنوات، ولم أعد استذكر نصوصها الآن. ولكن كان بضمنها: الخروج من حلف بغداد، إجلاء القوات البريطانية؛ إلغاء اتفاقية الأمن المتبادل مع الولايات المتحدة إلغاء اتفاقية الأمن المتبادل مع الولايات المتحدة؛ وبالتالي تصفية جميع الارتباطات والمواقع الاستعمارية. كما تضمنت ضرورة استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي وتوثيق التضامن مع مصر وسورية ودعم القضية الفلسطينية وثورة الجزائر.. إلخ.

وبالطبع جرى التأكيد في المطالب على إطلاق سراح السجناء، وإطلاق الحريات الديمقراطية، وتطبيق حل ديمقراطي للقضية الكردية؛ وطائفة من المطالب المتعلقة بتوزيع الأراضي على الفلاحين، وتلبية حقوق العمال ومكافحة البطالة، وحل مجلس الاعمار، وانتهاج سياسة وطنية مستقلة معادية للاستعمار. وفي مقدمة المطالب التي قدمت لقاسم، وفي مختلف مراحل الاتصالات معه، كنا نؤكد على حق التنظيم السياسي

والنقابي، وعلى شرعية الحزب الشيوعي والأحزاب الوطنية الأخرى. وكانت استجابة قاسم وقتذاك هي "اعدوا منذ الآن لافتة لتضعوها على مقر حزبكم"!.

كما تضمنت مقترحاتنا لقاسم العديد من المسائل الفنية لضمان النجاح في تنفيذ الثورة. ورغم حرص قاسم على تعهد الحزب بالمباشرة فورا بتنظيم المظاهرات الجماهيرية لاسناد الثورة، إلا انه أبدى حرصا غير اعتيادي للاتفاق على تطبيق منع التجول. ولم يجد الحزب في هذه الأمور ما يتطلب الجدل. كما أبدى الحزب تساهلا حتى إزاء مقترح قاسم في الإبقاء على الملك بصورة شكلية، كما تبين لاحقا، رغم إن قاسم استدرك هذا الموقف عام 1957، وقرر إقامة نظام جمهوري وأبلغ الأحزاب الوطنية بذلك على أساس "إنه لا يريد أن يقوم بثورتين" على حد تعبيره.

ما هي دوافع قاسم في الإبقاء على الملك؟ في ظني إنه كان يقتدي بعبد الناصر وطريقته في التعامل مع النظام الملكي. بالإضافة إلى إن قاسم كان ولوعا بالمشاهد المثيرة وإذلال خصومه. حتى إنه – كما روى لي الشهيد وصفي طاهر، قد زود بتعليمات صارمة بأن يأتيه بنوري السعيد حيا. ولكن وصفي أخفق في تخليصه من أيدي الجماهير. ولما جيء به إلى وزارة الدفاع، نزل قاسم إلى السرداب، وحسب رواية وصفي طاهر اكتفى بإلقاء نظرة على جثته، وقال: "هذه نهاية الظالمين" وخرج.

***

في فجر الرابع عشر من تموز كان الاعصار.. وكان الشعب بكل جبروته وإرادته القاهرة في ميدان العمل؛ وكان الحزب في طليعة الجماهير وفي مواقع الفعل الثوري متأهبا للعمل قبل ثلاثة أيام من انطلاق شرارة الثورة. فما هي قصة تموز الحقيقية؟ وما هو دور الحزب الشيوعي في الإعداد لها والمشاركة الفعالة في انتصارها؟.

ليسمح لي القراء الأعزاء أن استوقفهم لدى فكرة تلح على خاطري في معرض استذكار الفترة التي عاصرت الإعداد لثورة تموز، فأقول:

العمل المجهد الصبور الذي تستثيره الآمال العظيمة، والأحلام الجريئة، والسياسة الصحيحة والخطة المحكمة؛ والرماية المنسقة على الهدف من كتيبة متلاحمة الصفوف مكتملة العافية. كان متوفرا في الحزب ومناضليه عشية ثورة تموز؛ فكان يتقد بالحيوية وسرعة الحركة والمبادرة، وبالتضامن والعمل الجماعي، وبالجرأة الفائقة على وضع وتعديل سياسته وخططه حسب تبدلات الظروف ومتطلبات الموقف. وكان الجميع يعيشون حلم الانتصار، ويتطلعون نحو أهداف جليلة كبرى، ويعملون على دك قلعة كانت تبدو وقتذاك منيعة لا تقتحم.

ليس في نيتي وأنا أستوقف القارئ عند هذه الفكرة أن أحيط الحزب ومناضليه ببهرج اسطوري، رغم ان بعض من سجايا واعمال ومواقف الكثيرين من المناضلين الشيوعيين كان يرقى حقا الى مستوى الاساطير. فهناك الصفوة من قادة ومناضلي ذلك الجيل الذين تعاملوا مع الموت برجولة فذة وعقيدة ثابتة.

وهناك المئات والالوف ممن قاسوا عذاب واهوال السجون. واحتمل آخرون كثيراً من العناء والحرمان. وفي ظني ان كلا من هؤلاء واولئك كان يحس انه يؤدي واجباً اعتيادياً،

دون ان يخطر بباله انه يضع مآثر واساطير.

وبالطبع لم يكن الجميع على هذه الشاكلة، وهـذا امـر مسلم،؛ في أي حـزب وفي أي جيش يقاتل في ظروف بالغة العسر وعلى امتداد اعوام طوال. ومع ذلك فينبغي القول بحق، انه كـان لهـذا الجيل عـزيمته الفـذة ومثابرته العجيبة، وفي الطليعة منهم نخبة من رجال صمدوا لاختبارات رهيبة، واقتحموا بثبات فخور درب الرواد والشهداء.

وبعد، فما كان أحد من جيل هذه الفترة، وكلهم من الشباب تقريباً، مستكملاً لمعارفة النظرية، او تجربته السياسية.. ومع ذلك فقد وجـدوا انفسـهم يقتحمون دربـاً شـائكاً، وينتدبون انفسهم لمهمات هـي اكبـر من معارفهم وتجاربهم. ولكن فضيلتهم تكمن في حرصهم على التتلمذ على الحياة، واجهاد النفس في محاولة الوصول الى الحقيقة، فكانوا يستنطقون الاحداث، ويرهقون الواقع بالتساؤلات، فيستبدلون تحليلاً بآخر، وخطة بأخرى، بـروح انتقادية جـريئة، دون ان تعتريهم خشية إلا من مبادئهم وممن منحوهم الثقة لقيادتهم.

لجأت الى هذا الاستطراد الوجيز بهدف عـرض ملامـح اولية لحيـاة ونضـال جيل سابق، عسى ان يستطيع الجيل الفتي من الشيوعيين ان يستلهم منها حافزاً او تجربة. وفي اعتقـادي ان من واجب اولئك الـذين حـالفهم حظ النجـاة من صـواعق القـدر الغاشـم، ان يبادروا لعرض مشـاهـداتهم وتجاربهم حول ما حفلت به العهود الماضية من حياة الحزب والحركة الثورية من احداث جسام؛ لان رواية بعض الاحداث على لسان بعض شهودها، قد يوفر للمؤرخ مادة اولية، حتى ولو تم ذلك بإعتصار الوقائع من ذاكرة مجهـدة. فبـالتدقيق والمقارنة على ضوء الحقيقة يمكن كتابة هذه المسيرة بموضوعية وتجرد. والواقع انـي لا اكاد ارى أي وسيلة اخرى اكثر سيراً لكتابة هذا التاريخ بصوره الاولية، إلا عن طـريق سـرد المشـاهـدات والذكريات ابتداءاً، وهذا مـا احاول ان افعله في هـذه المقالة، وربمـا في مقالات لاحقة لا كمـؤرخ – كمـا اسلفت – بل كـراوية او شاهـد. ومع ذلك فليس بمقدور هذا "الراوية" وهـو يـدير شـريط الاحداث الـى الـوراء، ويتسمع الـى ايقـاع الـزمن البعيد، إلا ان يسلط قـوة عـاتيـة على عـاطفته وانفعـالاته. وبـالتـالي فهـو ملـزم بـأن يقتطع الكثير من المشـاهـد، ويتجـاوز العديـد من المنعطفات الحرجة. فليس ممن حقه وهو فرد في جحفل منظم، ان يصور احكاماً على تجربة ضخمة لم يتكامل تدقيقها بعد.

وعـندمـا يتـعين عليه ان يخـتزل الامـر الى روايـة او مشـاهـدة او متـابعـة، فعليه قـدر الامكان ان يتجنب افتعـال "موعظة" لـم يعد احد بحـاجة اليـها، او ينتـدب نفسه "مـؤرخاً" لمسيرة حـافلـة شاقـة ولمسيرة شـارك فيـها الالـوف مـن الابطـال الحقيقيين. وبعـد، فـأستأذن القـارىء بالعودة الـى ملحمة، ودور الحزب فيها اعداداً وتنفيذاً .

***

في العاشر من ايلول 1956 وبعد اختتام اجتماعات الكونفرنس الثاني مباشرة، عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً في دار تقع في محلة (تل محمـد) ولمـدة ثلاثـة ايـام. وفي هـذا الاجتمـاع قدم سلام عـادل لاول مرة تقـريراً موجزاً عن الشوط الذي قطعته حركة الضباط الاحـرار، ومـوقف الحـزب من هـذه الحـركـة، وتطـور صلاته بهـا، والـدور الـذي يجب ان

يلعبه في توحيد صفوفها، وتقويم وجهتها واهمية مساندتها ومساعدتها على الانتصار.

ومثل اية مفاجأة مثيرة، كان لهذا التقرير وقع شديد على الرفاق الحاضرين؛ وتركز الكلام على ضرورة تصفية النظام الملكي واقامة الجمهورية، ورفض فكرة الإبقاء على (الطفل) – أي الملك – كما كنا نسميه في مخاطباتنا مع قاسم. والواقع ان هذا الامر كان محسوماً في (المكتب السياسي) قبل ان يغير قاسم موقفه من هذا الموضوع. وقد وضعت من اجل تحقيقه طائفة من التدابير العملية من بينها المباشرة بالاستيلاء على (قصر الرحاب) واسر العائلة المالكة بواسطة انصار الحزب في (معسكر الوشاش). وبناء على إلحاح الرفاق، اضطر (سلام عادل) ان يقدم للرفاق التطمينات الضرورية بهذا الشأن، وان يستصدر قرار بإبلاغ قاسم بعدم معارضته الحزب للإبقاء على الملك! وتقرر بالنتيجة تحرير رسالة الى قاسم تتضمن طائفة من الافكار والمقترحات الاضافية، وبعض التدابير العملية. واذكر، للطرافة، انني كلفت بتحرير هذه الرسالة وإنجازها اثناء الاجتماع لغرض مناقشتها وإقرارها، فلم اجد في هجير الحر مكاناً افضل من درج الدار المؤدي الى السطح حيث يمكن استخدام درجة للجلوس واخرى للكتابة. وحيث لم تكن لدينا مروحة فقد اعتدنا ان نسكب صفيحة من الماء من اعلى درجات السلم لاغراض التبريد والاستفادة من تيار الهواء، وبالمثل فقد انتحى (سلام عادل) ركناً آخر وكتب رسالة الى رفاقنا في السجن، حيث تداولنا معاً في اختيار عشرة منهم، واخبرناهم في هذه الرسالة بأن وقت تحررهم من السجن بات قريباً.

اوصلنا نسخة من هذه الرسالة الى قاسم بواسطة رشيد، واحتفظنا بنسخة اخرى غلفناها بعناية بورق (سيلوفين) واخفيناها في سقف دار كنا نسكنها معاً (سلام عادل، وام ايمان، وايمان الصغيرة، وانا) في محلة (ابو جمعة) في الكرادة في زقاق يقع بين سوق الخضار ومحلة (سيد ادريس). وعلى الارجح، فإن هذه الرسالة لا تزال محفوظة في مكانها حتى اليوم ان لم تكن هذه الدار قد هدمت او اعيد تعميرها.

كانت من بين مطالبنا ومقترحاتنا التي تضمنتها هذه الرسالة:

*** ضرورة إعلام الحزب مسبقاً بموعد البدء بالحركة والاتفاق على توقيتها.**

*** الاستمرار بالاتصالات والمشاورات لاختيار الفرصة المناسبة.**

*** ضمان وجود عبد الاله، ونوري السعيد، والملك فيصل في العراق لدى البدء بالحركة.**

***

خلال فترة قصيرة توطدت واتسعت صلات الحزب بمختلف العناصر العاملة في تنظيمات الضباط الاحرار وكان للحزب دور كبير في معالجة مشاعر الحذر بين هذه العناصر والسعي لتوحيدها في منظمة واحدة. وكان ابرز رجالنا في هذه الصلات، بالاضافة الى (رشيد مطلك)، الشهيد (فاضل البياتي) والشهيد (وصفي طاهر) و (سعيد مطر)، و (حامد مقصود) الذي كان يعمل بأمرة عبد الكريم قاسم كما كان الشهيد (جلال الاوقاتي) الذي كان يحظى بقدر كبير من الاحترام والتقدير من جانب زملائه الضباط رغم انه كان متقاعداً، يلتقي بنا وينظم لنا بعض اللقاءات ومن بينها لقاء لم

يتحقق (بسبب الالتباس في الموعد) مع ناظم الطبقجلي، ومحي الدين عبد الحميد (الذي كان على راس حركة من ثمانية عقداء في معسكر الرشيد).

كان الحزب يبذل جهداً كبيراً لصيانة اسرار حركة الضباط الاحرار، وذلك للاطمئنان على سلامتهم رغم ان عبد الكريم قاسم كان يؤكد ان الامر قد خرج من ايدي الحكام، وان أي اجراء مضاد قد يقومون به لا بد ان يعرف به قبل ان يقع. وكان واضحاً انه يستند في ذلك الى عدد من الضباط الاحرار الذين كانوا يشغلون مواقع حساسة في مديرية الاستخبارات بوزارة الدفاع شعبة الحركات، والانضباط العسكري، والحرس الملكي وغيرها وفي مقدمة هؤلاء: وصفي طاهر، وفاضل البياتي، وعبد الوهاب الامين، وعبد الكريم الجدة، ونعمان ماهر الكنعاني (الذي اعتقل واحيل على التقاعد) – الى جانب تنظيمات اخرى في معسكرات بغداد، وجلولاء، والمنصورية، وكركوك، والمسيب، والبصرة، واربيل.

وقد ظل (قاسم) على هذا الراي– رغم الوشايات التي ادت الى إحالة عدد من الضباط الاحرار على التقاعد، ونقل البعض الآخر الى مواقع اخرى بعيدة، وبالتالي نشوء حالة مؤقتة من التطير بالنسبة لبعض القادة الذين طالبوا بتجميد العمل لمدة شهرين.

وقد وصل الى علم الحزب وقتذاك ان الفريق المعارض لتجميد العمل قد طالب بالمباشرة بالثورة فورا.. ولكنه لم يفلح. وهنا استحوذت على قاسم فكرة قد تكون راسخة في ذهنه من قبل، وهي ان يأخذ على عاتقه والقوات التي كانت تحت امرته والانصار المقربين اليه زمام المبادرة، وهذا ما تم فعلاً.

خلال هذه الفترة.. كان الحزب يقوم بإستطلاعات واسعة للتعرف على القوى المساندة والمناوئة للحركة في صفوف الجيش. واذكر من ضمن مساعي الحزب في هذا المضمار محاولة استكشاف موقف قائد الفرقة الثانية في كركوك (صالح زكي توفيق) وبالفعل فقد نظم الحزب لقاء معه على العشاء في دار (كمال عمر نظمي) في خريف عام 1956، واجرى معه حوار طريف يتناسب مع طبيعته الهازلة. فقد اشار الى انه –شأن جميع العسكر في العراق – على حد قوله – ليسوا فرساناً في هذه القضية الخطيرة، التي تحتاج الى علم وفلسفة – كما هو الحال بالنسبة لعبد الناصر وجماعته. ولكنه استدرك (وكان هذا امراً باعثاً على الدهشة) بأن شخصاً واحداً فقط يستطيع ان يفعل شيئاً وهو (عبد الكريم قاسم).. وانه بالتالي مستعد لتأييده. ثم بدأ يطري في القتال ابان حرب فلسطين ويؤكد بأنه مغامر من طراز فريد!

فهل يكون قاسم قد ضمن مساندته مسبقاً؟ ذلك امر لم نعرفه – رغم ان قائداً آخر قد حل محله في الفرقة الثانية فيما بعد، واتخذ موقفاً مناوئاً للثورة، لولا ان تشل مساعيه مبادرات الضباط الاحرار – ومن بينهم ناظم الطبقجلي، ومحمود عبد الرزاق، وخليل سعيد، وصبحي علي غالب، وغيرهم.

كانت مسالة توحيد حركة الضباط الاحرار وتصفية هواجس الارتياب فيما بين الكتل والتجمعات والافراد واحدة من اكبر مشاغل الحزب وقتذاك.

ويعود فضل كبير في ذلك الى الشهيد (فاضل البياتي) الذي كان يتمتع بثقة الجميع، بمن في ذلك بعض الضباط القوميين

الذين كانوا يلتقون في داره. وقد افلحت المساعي المبذولة في هذا الشأن، حيث جرى تثبيت (منظمة القادة) بإنتساب جماعة (عبد الكريم قاسم) الى جماعة (محي الدين عبد الحميد) وبالتالي انتخاب عبد الكريم قاسم رئيساً للمنظمة. وخلال ذلك، حلت مشكلة (عبد السلام عارف) الذي كان الضباط الاحرار يرفضون انتسابه للحركة. وانتهى الامر بقبول التعهدات والضمانات التي قدمها عبد الكريم قاسم بشأنه وتحمل مسؤولية تصرفاته، كما تعهد رجب عبد الحميد بأن يكون صلة الوصل بينه وبين المنظمة. لقد كان للتنظيم الوطني الذي اقامه الحزب بالجيش بإسم (اتحاد الضباط والجنود الاحرار) دور ملموس في تعزيز الجهود المبذولة لتوحيد الحركة، كما كان للبرنامج الوطني الذي اصدره الاتحاد صدى واسعاً ومؤثراً في صفوف الضباط. وقد جاء اصدار (حرية الوطن) من جانب الحزب عاملاً مشجعاً بالنسبة للكثيرين من منتسبي الجيش. ولكن التاثير الحاسم على رص وحدة الضباط الاحرار، وتعزيز نشاطهم اللاحق قد ارتبط بولادة ونشاط (جبهة الاتحاد الوطني) التي كان قيامها ايذاناً بعمل مثابر على المستويين، الشعبي، والعسكري، كما كانت منعطفاً تاريخياً حاسماً في حركتنا الثورية، واساساً سياسياً وطيدياً لقيام وانتصار ثورة تموز.

لم تشر المعلومات المتجمعة لدى الحزب آنذاك، الى أي دور مؤثر لحزب البعث في حركة الضباط الاحرار، وغير صحيح بالتأكيد ما نسب لهذا الحزب في ثورة تموز. كما لم يدع (فؤاد الركابي) – الامين العام القطري للحزب وقتذاك – أي شيء من هذا القبيل قبل الثورة. كنا نسمع بأن (ذياب العكاوي) كان في عداد الضباط الاحرار في كركوك، و(صالح مهدي عماش) في وزارة الدفاع ببغداد. ولكن هل كانا منتسبين لحزب البعث في ذلك الوقت؟

اما الضباط الذين انتسبوا لهذا الحزب بعد انتصار الثورة او وضعوا انفسهم تحت خيمة البعث لمناوأة الثورة والتآمر عليها، امر اولئك الذين فعلوا ذلك قبل وبعد ردة شباط الفاشية، فذلك شيء آخر. كذلك الأمر بالنسبة لعبد السلام عارف، حيث لم يكن بعثياً في يوم ما، وقصته معروفة، وايضاً بالنسبة لفريق آخر من الضباط الاحرار مثل، ناجي طالب، صبحي عبد الحميد، وعبد الستار عبد اللطيف، وعبد الكريم فرحان، ورجب عبد المجيد، والدراجي وغيرهم. اما عبد الوهاب الشواف، وناظم الطبقجلي وقتذاك فكانا اقرب الينا من أي حزب او تيار آخر، ان الانتقاص والتحيز، كلاهما، اسلوب زائف في كتابة التاريخ.

والامر الذي لا ريب فيه هو ان أي حزب بمفرده، بما في ذلك حزبنا، لا يستطيع الادعاء بأنه وحده وراء ثورة تموز اعداداً وتنفيذاً. وانصافاً للواقع المعاش في تلك الفترة، نقول انه كان لكل حزب من الأحزاب المؤتلفة في (جبهة الاتحاد الوطني) صلات مختلفة، وثيقة أو ضعيفة، مباشرة أو غير مباشرة ببعض الضباط الأحرار أو بالحركة عموما.

وكان لبعضها دور سياسي وللبعض الآخر أعضاء وأنصار في الجيش. وبعد، فإن مأثرة أي حزب أو جماعة أو فرد، هي شرف له وملك للحركة الثورة كلها. وما على الحزب أو الفرد إلا أن يرمي بما عنده من

وقائع أو حقائق، دون ادعاء أو زيف، وذلك من أجل أن تستكمل الصورة معالمها، ويكتب التاريخ كما وقع.

لقد كان الجميع منغمرين حقا بعمل مجيد في تلك الفترة، وكان التضامن بين الأحزاب والقوى الوطنية على صورة تبعث على الاعتزاز.

فالأحزاب الوطنية جميعا كانت تتحرك بشكل منسق في هذا الميدان، وتصون أسرار بعضها البعض، وترسم مواقفها الموحدة بصورة مشتركة، في إطار جبهة الاتحاد الوطني، ومن خلال صلاتها الخاصة بالقوات المسلحة.

وإنه لبليغ الدلالة على هذا النمط الفريد والفعال من التضامن والأخوة الكفاحية بين الضباط الأحرار، وبينهم الأحزاب الوطنية، إن يشار في هذا الصدد إلى حدثين مهمين:

الأول: هو حرص قائد الحركة عبد الكريم قاسم على إخبار أحزاب الجبهة وإبلاغها بوقت مبكر بموعد المباشرة بالثورة، والاتفاق الضمني الذي تم بين أحزاب الجبهة على اسناد الحركة والانخراط فيها وذلك في اجتماع اللجنة العليا للجبهة عقد في العاشر من تموز 1958- على ما يذكر الجميع.

أما الثاني: فهو محاولة تنفيذ الانقلاب في الحادي عشر من مايس 1958 - أجمع أمرهم على هذا العمل أكثر من (70) ضابطا من المستقلين خاصة ومن المؤازرين للحزب وللأحزاب الوطنية الأخرى، ومن ذوي الميول القومية والتقدمية. غير إن المحاولة قد أجلت دون أن تستطيع السلطة الملكية ودوائر التجسس التابعة لحلف بغداد أن تكتشف أمرها. ومما هو ذو دلالة على مدى التضامن الذي بلغته حركة الضباط الأحرار هو امتثال عبد الكريم قاسم للإيعاز الصادر من هذه المجموعة بإسناد المحاولة، والبقاء في معسكره، ريثما أبلغ في اليوم الثاني بتأجيل الحركة.

وعلى غرار ذلك اتخذت جميع فصائل الحركة دون استثناء موقف الإسناد والتأييد الحازم لعبد الكريم قاسم عندما تسنى له أن يأخذ زمام المبادرة في تفجير ثورة تموز.

إن المأثرة البطولية للمئات والألوف من الضباط والجنود وأبناء الشعب الذين صنعوا هذه الملحمة، يتيح في الوقت نفسه الإشارة المنصفة إلى الأدوار المرموقة التي أداها رجال شجعان من قادة الأحزاب السياسية في الإعداد لثورة تموز: سلام عادل، ومحمد حديد، وصديق شنشل إلى جانب العديد من قادة منتسبي الأحزاب والقوى والشخصيات التقدمية.

وفي هذا الصدد، أرى لِزاما أن أشير بإيجاز إلى وقائع مشهودة، لم أكن شاهدا عليها، ولكنها وقائع يمتلك الحزب الدلائل على صدقها:

ففي صبيحة الرابع عشر من تموز، وعندما تأزم الموقف على أسوار قصر الرحاب، قام الملازم (عبد الرزاق غصيبة) وبمساعدة ضمنية من (العقيد سلمان الحصان) بانتزاع مدرعتين من معسكر الوشاش وهي بكامل سلاحها وعتادها وأفرادها، وانطلق بها نحو قصر الرحاب. وقد ركز احداهما على مدخل الطريق الخاص المؤدي إلى القصر، واقتحم بالثانية باب الحديقة، وبدأ يصلي القصر، بالقذائف والرشاشات. وهنا تغير الموقف كله على ما هو معروف، بالإضافة الى المبادرات الجزئية التي قامت بها (دون إيعاز مسبق) منظمات

وعناصر الضباط الأحرار في معسكر الوشاش، والموقف المتوازن الذي اتخذه قائد الحرس الملكي (طه البامرني).

– وفي صباح اليوم نفسه، ساهمت قوات من صنف الدروع في إسناد الثورة. وكان في المقدمة من هؤلاء الرجال (خزعل السعيدي، وخليل) الذين تطوعوا لقيادة وتوجيه عدد من الدبابات إلى دار الإذاعة، ووضعوها تحت تصرف عبد السلام عارف.

– وبالمثل، قام عدد من الجنود وضباط الصف المسؤولين عن صيانة وتجهيز الطائرات في قاعدتي الرشيد والحبانية، لمنع أي تحرك للقوة الجوية ضد الثورة وبذلك عززوا مواقف بعض الخلايا الصغيرة لضباط القوة الجوية في قاعدة الحبانية خاصة. ولا شك إن تدقيق هذه المواقف يبرز أسماء رجال جديرين بالتقدير.

لقد كانت هذه المبادرات، جهدا إضافيا للقوة الضاربة الحقيقية وقادتها البواسل الذين اخذوا على عاتقهم مهمة التخطيط للثورة وتنفيذها. ومع ذلك ينبغي أن تبقى بعض الحقائق في الظلال.

***

كانت الثورة تدق على الأبواب كما يقولون.. فكان للحزب معها موعد في مناورات الخريف عام 1956– كما ذكرنا.

لكن هذه المناورات قد الغيت قبل إجرائها بثلاثة أيام، وتقرر إرسال عبد الكريم قاسم على رأس جحفل إلى الحدود السورية – الأردنية. وفي عشية السفر، أوصل للحزب تساؤلا (عن طريق رشيد مطلك) عما إذا كان يجد من المناسب أن يحتل بغداد بقوته. وكان الجواب: كلا. لأن الملك فيصل كان وقتذاك في زيارة لميناء (الدمام) في السعودية ونوري السعيد على ما أذكر كان خارج العراق. وفي ذلك كله محاذير جدية للتدخل الأجنبي، تحت غطاء المشروعية الدولية. غير إن (قاسم) حتى بعد أن نزل بقواته في الصحراء كان مصرا على اقتناص فرصة ما لاستخدام قواته، منها على سبيل المثال:

– اتصاله بالسوريين لتأمين غطاء جوي لقواته عند الزحف على بغداد.

– إعداد فريق لاغتيال الوصي ونوري السعيد عندما قررا زيارة القطعات في الصحراء. ولكن ما حدث هو ان حطت الطائرة بدون نوري السعيد، فأجلت المحاولة.

محاولة احتلال بغداد عند عودة قاسم بقواته التي اوقفت عند مشارف بغداد، ثم امرت الانتقال الى معسكر جلولاء مجزأة وعلى فترات.

– ومحاولة أخرى عند إجراء تمرين عسكري في الرطبة، وأخرى في يوم الجيش (6) كانون الثاني سنة 1958.. الى جانب محاولات أخرى لفريق من الضباط الاركان.

كانت كثير من محاولات وتحركات قاسم تأتي للحزب عن طريق (رشيد مطلك) و (وصفي طاهر) ومن خلال (فاضل البياتي)، ثم عن طريق الملازم (خالد عبد الرحمن) الذي كان ضمن قوات قاسم في الصحراء، حيث كان يزورني في مكان إختبائي كلما جاء الى بغداد لقضاء إجازته.

وقد ظلت هذه الاخبار تتوالى على الحزب مؤكدة على اصرار قاسم على العمل كما بلغت الحزب انباء اجتماعه بالقادة العسكريين السوريين في موقع قرب (درعا).

***

وفي ليلة ما من ربيع 1957، وكنا نبيت

(سلام عادل وانا) في غرفة فوقية في احد الدور اقترح عليّ ان اسافر الى سوريا، وان امكن الى الاتحاد السوفيتي لغرضين:
الاول: تدبير شحنة من السلاح من سوريا.
والثاني: السعي لتأمين مساندة الاتحاد السوفيتي للثورة تلبية لطلب قاسم.

كان يحتفظ في درج الطاولة ببعض الادوات البدائية لصناعة (جوازات سفر).. وكنا نطلق عليها مزحاً (مديرية السفر)! وكان يمتلك يداً ماهرة في هذا الشأن، فقد تركته صباح اليوم التالي، وعدت في المساء، وانا اعلم انه مسافر الى الفرات. فقد صمت طويلاً قبل ان ننام، ثم قام واحضر عقاله وملابسه الفلاحية.. فأدركت انه ذهب للإجتماع بمنظمة الفرات الاوسط، كما هي عادته. وقد وجدت على الطاولة ورقة يقول فيها (الجواز جاهز .. ارجو رفع يدك عنه..) وكان السبب في ذلك هو أنني اتلفت احد الجوازات وانا احاول (تصنيعه) رغم ان الحصول عليها وقتذاك كان امر بالغ الصعوبة.

***

سافرت الى سوريا، هناك التقيت بالرفيق (خالد بكداش) الذي سألني عن الوضع في العراق، فأخبرته بالحقيقة عن موقف الجيش، وتطور الحركة الثورية في صفوفه، وموقف حزبنا من هذا المسألة، وقد وجدت انه يعرف اسم عبد الكريم قاسم نقلاً عن رئيس الاركان وقتذاك اللواء (عفيف البزري) الذي كان ضمن الفريق السوري الذي التقى بقاسم قرب(درعا) وكان عليّ ان استطلع حقيقة هذا اللقاء، وطلب المساعدة لايصال شحنة من السلاح الى العراق، فأستعنت بالطبيب الاردني صديقنا الدكتور (عبد الرحمن شقير) لتدبير مواجهة مع (عبد الحميد السراج) وكان إذ ذاك وزيراً للداخلية وصديقاً حميماً للدكتور شقير.

وجدت نفسي امام شاب سبقته شهرة اكبر من عمره فبدأ معتداً بمواقفه وانضوائه تحت راية الناصرية المكافحة وقتذاك. وما ان استعلمت عن حقيقة اللقاء حتى بادر بكلام لم استسغه قال:
– جاءنا عبد الكريم وعبد السلام.. وبينوا انهم يقودون قطعات وطنية ويريدون الزحف على بغداد، ويطلبون حماية جوية لا نستطيع توفيرها..

واستطرد قائلاً:
– انا لا اصدق انهم جادون.. ولن يفعلوا شيئاً.. ثم اردف بإعتداد:
– اقسم باللّه بأنه لو كان معي عشرة ضباط، لما تركت نوري السعيد في الحكم يوماً واحداً.. من يا سيدي في العراق سيدافع عن نوري السعيد؟
ثم انهى حديثه في بالقول:
– نصحناهم ان كانوا حقاً وطنيين، ان ينضموا بقواتهم الى الجيش السوري.. "وحالنا حالهم" .. ولكنهم رفضوا. ما رأيك؟
– قلت: لا ادري. (وكنت اريد ان اقول انهما على حق وانت على خطأ).

***

اثمرت مساعينا في سوريا في تدبير بعض الاسلحة والقنابل والمفرقعات وكانت حمولة ثقيلة.. واصطحبني في سيارة عبر الصحراء الشهيد (عبد الجبار وهبي) – وكنت قد رجوته ان يحضر من (دير الزور) – حيث كان يعمل مدرساً هناك. وكانت رحلة شاقة طويلة عبر مئات من الاميال على طريق وعرة. وكأن السماء ارادت هي الاخرى ان

تسهم بإطالة هذا السفر.

فراحت تصب علينا وابلاً من المطر لم ينقطع طوال ثلاثة ايام بلياليها.. وكان (ابو سعيد) هو الآخر من ذوي الخيال الرحيب والحلم بالمخاطرات. فرغم الضنى والارهاق والسهر، كان يقول: كم تستهويني مثل هذه الاعمال؟ وانطلق يغني بعضاً مما يحفظ من اغنيات شائعة فتركته على سجيته يغني متمتعاً بهذه (المخاطرة)! بلغنا القرية التي قصدناها، ووفقاً للموعد المقرر للقاء بالرفيق الموفد من الحزب، تم هذا اللقاء في سوق القرية ولاول مرة ادركنا ان (البعير) – هذا الحيوان المهيب غير قادر على حمل اكثر من (مائة كيلو) لمسافات طويلة. ولم تكن هذه مشكلة، فقد اعد الرفيق القادم من العراق للامر عدته، وبقي علينا ان نعيد رزم المواد في اكياس من الخيش، وان نحشوها بمواد لينة، لا تؤذي ظهر البعير. ولم نأخذ طريق العودة إلا بعد ان انطلق ركب الجمال، وفي دمشق تسلمنا رسالة من الحزب تفيد ان الارسالية قد وصلت بسلام.

***

طلب مني الرفيق (خالد بكداش) ان اسافر الى (كولومبو) في معية (الاستاذ عزيز شريف) للمساهمة في مؤتمر السلم، ريثما يرد جواب الرفاق السوفيت بشأن سفري الى موسكو. ولكن حدث في (كولومبو) ان وجه الوفد الصيني الى المؤتمر دعوة للوفود العربية لزيارة الصين. وكان الامر وقتذاك باعثاً على الإغراء بحق. وفي الصين طلبت مقابلة المسؤولين في اللجنة المركزية، فلم احظ بجواب ولكني...اقتنصت فرصة قصيرة مع (شو ان لاي) في حديقة البرلمان، الذي دعينا لحضور احدى جلساته. وكنت بصحبة (لطفي الخولي) في هذا اللقاء.

رحت أفكر بالطريقة التي أعرض فيها المهمة التي كلفنا بها عبد الكريم قاسم، فلم اهتد إلا الى تساؤل قصير. قلت لـ (شو–أن–لاي) بعد ان عرفته بهويتي الحزبية.

– لو فرضنا ان مجموعة من الضباط الوطنيين الذين يثق بهم حزبنا، قد قرروا أن يقوموا بانقلاب يطيح بالنظام القائم في العراق، فهل يستطيعون ان يركنوا الى موقف اسناد لحركتهم من جانب الصين الشعبية؟

قال (وقد بدأ غير مصدق):

– "أن طريق نضالكم متعرج شاق، وليس طريقاً مستقيماً".

قلت:

– ولكن سؤالي لا يزال قائماً.

فأجاب

– " نحن اصدقاء الشعب العراقي".

واعدت التساؤل بدافع الرغبة في ان احصل منه على جواب أكثر وضوحاً، ولكنه عاد وكرر قوله:

– " نحن اصدقاء الشعب العراقي".

واكتفيت بذلك.

في الصين تلقت الوفود العربية دعوة لحضور(مهرجان الشبيبة والطلبة) في موسكو، فسافرنا الى الاتحاد السوفيتي، وهناك إلتقيت بالرفيقين (جمال الحيدري، وجورج تلو). وكان (جمال) قد وجد فرصة للعبور الى سورية إبان سفرته الاستطلاعية في المنطقة الشمالية. وأما (جورج) فكان يقيم في سورية مؤقتا وقد اتفق مع قيادة الحزب الشيوعي السوري على السفر الى موسكو لاجراء محادثات مع اللجنة المركزية هناك. اتفقنا بعد مداولة قصيرة (وبناء على

قرار من الحزب) ان يعود الرفيق (جورج) الى العراق، وأن نتريث نحن الاثنين لاجراء المحادثات المنتظرة مع اللجنة المركزية.

لقد ابدى الرفاق السوفيت اهتماما فائق الحد بمهمتنا، وبراحتنا أيضاً، حتى أنهم أرادوا ان يستبقونا لغرض الراحة مدة أطول، خصوصا بعد ان اطلعوا على ظروف العمل الشاقة التي كان يعيشها حزبنا. غير أننا إستاذنا منهم بالعودة الى العراق في نفس اليوم الذي انهينا فيه محادثاتنا معهم. وكان في ذهننا دوما عقيدة وتقاليد حزبنا الثابتة، في أن ساحة النضال الحقيقي هي ارض الوطن، وليس خارجه (إلا عند الضرورة القصوى).

واختير لنا طريقان للعودة الى دمشق، سبقني فيه (جمال) وتسنى لي في الايام اللاّحقة أن أشهد إفتتاح مهرجان الشبيبة والطلبة العالمي في موسكو، وان اتمتع بمشهد الوفد العراقي الذي إستطاع الكثيرون منهم أن يخترقوا الموانع والحدود بوسائل مختلفة، ليسهموا في هذا الحدث العالمي. وكان الوفد بقيادة الرفيق(محمد صالح العبلي).

وكانت فرصة ممتعة حقاً، عندما نظم لي الرفاق السوفيت ثلاث لقاءات منفردة مع (محمد صالح)، تداولنا فيها بأمور كثيرة، وكان بضمنها تكليفه من قبل الحزب بمواجهة (ملا مصطفى البارازاني)، وذلك في سياق النهج العام للحزب والحركة الوطنية آنذاك، في ضرورة توثيق الاتصالات مع سائر القوى والعناصر المعارضة للنظام الملكي. وكعادته، اخبرني محمد صالح، بعد مواجهة البارازاني ،وبتعبيره الاثيره لديه بأنه لم يصل الى نتيجة ملموسة.

***

في دمشق، وجدت أن (جمال) قد إستعجل العودة الى العراق بطريق الجزيرة. ثم تبعه(جورج) وكنا قد اتفقنا مع مركز الحزب في بغداد، أن يترأس (سلام عادل) وفد حزبنا الى (مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية) الذي كان مقرراً ان يعقد في موسكو بمناسبة الذكرى الأربعين لثورة أكتوبر.

كانت الطريق الى سورية سالكة – كما يقولون، وتبادل المواقع والمسؤوليات في الحزب يسير بنمط مفعم بالتضامن والمحبة – خصوصا بعد ان استتبت أمور الحزب، وتعززت وحدته، وتوطدت مكانته بين الجماهير. وقد أتاح هذا الوضع لاعضاء قيادة الحزب أن يخرجوا الى العالم ويعودون مزودين بالخبرة والمشاهدة.

كانت عجلة الحزب تدور بنسق منظم، ولذا، كان يكفي أن يتولى القيادة أي عدد من الرفاق دون ان يشعر أحد بالقلق على أوضاع الحزب. وفي اليوم المحدد، والفندق المحدد في ساحة المرجة، والاسم المستعار في جواز سفر(سلام عادل)، اقتحمت عليه الغرفة في دمشق، وتعانقنا، بشوق، ثم دخلنا على الفور بحديث طويل والتهمنا كيلوين من العنب. واستبدت بنا لهفة الجائع الى الحرية والانطلاق، فخرجنا الى الشوارع نجوبها على غير قصد حتى انتهينا في المساء الى مقهى صغير جميل في (شارع بغداد).

وكمن يلهو بنفسه، او يسخر من همومه ومتاعبه قررنا أن نشرب ونأكل وجبتين من الكباب، ونطلب لكل منا نركيله.. واستحوذ علينا مرح طفولي، ونحن نحاكي أهل الشام في هذه الهواية ونقد (سلام عادل) نادل

المقهى ليرة سورية وهو يهتف بمزح "فلوس موجودة"! كان يسخر من فقرنا لأننا اضطررنا بعد ذلك الى استدانة (600) ليرة لتغطية ثمن تذاكر السفر الى براغ من الرفيق (مادويان) المسئول عن الشؤون المالية والادارية للحزب الشيوعي السوري – اللبناني، وأقسمنا مع أنفسنا ان لا نرد له الدين بسبب ما لقيناه من عذاب ونحن نحاوره ونسعى لانتزاع هذا المبلغ منه. وبالفعل لا يزال هذا المبلغ في ذمة حزبنا حتى اليوم.

***

سافرنا معاً الى موسكو، وحضرنا مؤتمر الأحزاب. وتعرفنا لأول مرة على زعماء الحركة الشيوعية العالمية.. كان هناك الى جانب القادة السوفيت (خروشوف و سوسلوف و وبولكانن و كروميكو).. هوشي مين، وماوسي تونغ، وموريس توريس وجاك دوكلو، وتولياتي، واولبرخت، ونوفوتني وجيفكوف وكادار، و كومولكا وفرج اللّه الحلو، وفؤاد نصار، وعبد الخالق محجوب، وخالد بكداش.. وغيرهم.

والقى (سلام عادل) كلمة الحزب.. ودارت في هذا الاجتماع التأريخي نقاشات لها قصة ليس هذا أوان سردها، خصوصاً ما تعلق منها بالأفكار التي طرحها ماوسي تونغ على مدى خمس ساعات متواصلة.

وانتهى الاجتماع، فكان عليّ أن اعود الى العراق، بينما مكث (سلام عادل) في موسكو لاجراء محادثات مع اللجنة المركزية.

وخلال ذلك تلقى دعوة لزيارة الصين، بينما كنت وقتذاك قد وصلت الى دمشق. وهناك في دمشق كانت بانتظاري رسالة (مفجعة) من (جمال) تتضمن اخباري بكبس مطبعة الحزب والتدابير التي اتخذتها القيادة لمحاصرة عواقب هذه الحادثة. ولم يكن هذا كل ما في الامر. فقد طلب (جمال) تدبير مطبعة على الفور، وهذا أمر بديهي. ولكنه في الوقت نفسه ارسل مسودات عدد من الجريدة وطلب طبعها في دمشق وأرسالها إلى العراق فوراً وبكميات كافية.

مرة أخرى مع (جمال) في مطامحه الكبيرة وخياله الثوري الخصيب والحق ان (جمال) كان معذوراً وهو الذي يعرف قدر تلك الآمال العظيمة التي يعلقها الناس على دور الحزب، ويستكشفون عافيته من خلال مواضبته على تقديم الحقيقة للشعب من خلال جريدة الحزب والمطبوعات الأخرى.

بيد ان الوضع لم يكن دافعاً على كل هذا التعجل.. فكتبت الى (جمال) رسالة رقيقة هادئة قصدت منها تهدأة خاطره والتخفيف عن متاعبه. وقد وعدته بالسعي لتدبير مطبعة افضل، واستأذنته بصرف النظر عن طبع الجريدة في دمشق.

بنفس المعنى كتبت رسالة الى (سلام عادل) في موسكو، وطلبت رأيه. وخلال ذلك كنت استعين بالرفاق السوريين واللبنانيين للأهتداء الى مطبعة صغيرة، فأرشدوني الى عنوان في بيروت.

وكانت مفارقة مسلية، فقد وجدت نفسي أتجول في (حي مشبوه) في بيروت، واتساءل عن عنوان احدى المطابع حتى وجدته. وهناك التقيت بعمال شرفاء في هذا الحي الغريب الذين أبدوا اسفهم الصادق لعدم وجود مطبعة من هذا القبيل.

عدت الى دمشق. ومنها ذهبت الى "حلب"، واشتريت (مائة) كيلو من الحروف ولكنني لم افلح في ايجاد مطبعة صغيرة.

وارشدني اصدقاء شخصيون وشرفاء في حلب الى مطبعة من هذا القبيل في "اللاذقية"، واستصحبوني بسيارتهم الى هناك. ولأول مرة استمتعت بمشاهد الطبيعة الآخاذه على هذا الطريق، واكتفينا بتناول وجبة شهية من السمك في اللاذقية، ثم عدنا دون ان نعثر على شيء.

واخيرا أمكن بمساعدة هؤلاء الاصدقاء، تصنيع (رولة متطورة) لدى احد السمكريين المهرة.. ثم شحن الحروف وهذه الحديدة الثقيلة الى " البوكمال" وهناك بمساعدة الأقارب، أقنعنا (الحاج...) من سامراء أن يحمل لنا هذه (البضاعة) على بعيره، وأن يبقيها لديه في (سامراء) ريثما يأتيه شخص بأسم معين ويستردها منه.

ولم يبد (سامر الصحراء والنجوم) مانعاً من قبول الصفقة لقاء 50 ديناراً.. فهو غير عابئ بأن تكون الحمولة المهربة ورق سكاير، او قماش، او حديد.. ووصل الحديد الى سامراء، ثم الى بغداد.. وعاش طويلاً وأنجب الآفاً من الصفحات المشعة.

***

كنت اطيل لحتي في "البوكمال" تأهباً للعبور الى العراق، عندما خابرني(سلام عادل) يطلب عودتي الى "دمشق".

وهناك أخبرني، ان حزبنا قد تلقى دعوتين للمساهمة في مؤتمر الحزب الشيوعي البلغاري، ومؤتمر الحزب الشيوعي الجيوكوسلفاكي. وان علّي أن أتولى قيادة وفد حزبنا الى هذين المؤتمرين، بالاضافة الى حضور المؤتمر التأسيسي لمجلة (قضايا السلم والاشتراكية).

أما هو فقد قرر العودة الى العراق. وبأنتظار تدبير طريق مأمون لسفره، قضينا بعض الوقت معاً في سوريا.

كانت الاقامة في سوريا وقتذاك مغرية بحق.. كل شيء كان ينبض بالحياة والحرية، وبالبطولة والتحدي..كانت الأحزاب والصحف الوطنية.. وكان البرلمان والجبهة.. والجيش والشعب، والعلاقات المتطورة مع مصر المكافحة، ومع الاتحاد السوفيتي الصديق.. وكانت سوريا وقتذاك ملاذا للمضطهدين وضحايا الطغيان من العراق والاردن والسعودية وغيرها من البلدان العربية.. وبدا الامر وقتذاك، وكأن سوريا تصنع المثل وتنسج الأمل لكل المناضلين في الوطن العربي..

***

في تلكم الفترة ، علمت القاهرة (من خلال الاستاذ عزيز شريف) الذي كان يقيم في دمشق وقتذاك بوجود شخصية على مستوى مسؤول من الحزب الشيوعي العراقي في دمشق، فأوفدت السيد(كمال رفعت) نائب رئيس الجمهورية للالتقاء به، ولقد تحقق هذا اللقاء مع كمال رفعت بحضورنا نحن الثلاثة (سلام عادل، وعزيز شريف، وأنا) للتداول في شؤون العراق، وذلك في صباح العاشر من مايس 1958 على ما أذكر.

كان حديثاً مشوباً بالتحفظ رغم بعض الانتقادات التي وجهت بأسم حزبنا لمغامرات القيادة المصرية ومراهناتها على بعض الاشخاص والجماعات في العراق، الى جانب طائفة من المآخذات على راديو (صوت العرب) وقد حرصنا على تأكيد دور حزبنا في الحركة الثورية في العراق، خلافاً للتصورات المصرية. ولكن – كمن يريد أن يقوم بحركة إختبار مفاجئة، بادرنا(كمال رفعت بالقول ولكن): –

– لدينا معلومات مؤكدة تفد بأن حركة إنقلابية ستقوم في العراق يوم الخامس عشر من هذا الشهر. فما هي معلوماتكم؟
قلنا:
– ليست لدينا معلومات. ولكن أية حركة من هذا القبيل لن تقوم بمعزل عنا او عمن نتعاون معهم من الضباط الاحرار. لقد بدا، في الواقع، ان معلومات القيادة المصرية قريبة من الواقع، حيث كان اليوم التالي(11 مارس) – كما اخبرنا رفاقنا في بغداد فيما بعد موعداً للمحاولة الانقلابية المشار اليها في هذا المقال.

اما الموعد الآخر للثورة يوم (الرابع عشر من تموز) فلم تكن القاهرة على علم به بالتأكيد، وقد ابلغ (عبد الناصر) وهو في بريوني في يوغسلافيا بقيام الثورة وانتصارها. لقد قيلت امور كثيرة، بشأن موقف مصر من مساندة ثورة تموز، ومساعي عبد الناصر لدى الاتحاد السوفيتي– عندما عرف بنزول القوات الامريكية والبريطانية في لبنان والاردن. وقد اريد القاء بعض الظلال على موقف الاسناد الحازم الذي اتخذه الاتحاد السوفيتي من ثورة تموز، واعترافه الفوري بالنظام الجمهوري الجديد.

إن لدى الحزب قصة حقيقية بخصوص التدابير الحازمة التي إتخذها الاتحاد السوفيتي وبلغاريا، ودول حلف وارشو بشأن الموقف الخطير الذي نشأ عن انزال القوات الامريكية والبريطانية في لبنان والاردن، وعن محاولات التدخل ضد الثورة في العراق. ولم يكن سراً على احد يومذاك، تلك المناورات العسكرية الجبارة التي نظمها الاتحاد السوفيتي على طول الحدود التركية الإيرانية.. تلك المناورات التي روع لها حلف بغداد ووصفتها بأنها كانت أشبه بسعير من اللهيب(احال ليل المنطقة الى نهار). كما ان لدى كاتب هذه المقالة قصة مماثلة رواها له المرحوم الاستاذ(عبد الوهاب محمود) سفير العراق لدى الاتحاد السوفيتي، نقلاً على وزير الدفاع السوفيتي وقتذاك (المارشال مالنيوفسكي) بحضور خروشوف بشأن التدابير والخطط الحاسمة التي إتخذها الاتحاد السوفيتي، لحماية العراق، وكيفية التعامل مع القوات الانكلو– امريكية التي نزلت في لبنان والاردن.

ولا بد ان يأتي وقت يعرف فيه الناس كل الحقيقة.

****

يمكن القول بعد كل هذا، وطبقاً لمتابعات الحزب وصلاته الوثيقة بحركة الضباط الاحرار (منذ عام 1956 وحتى يوم14 تموز 1958) واطلاعه على جميع الخطط والمحاولات التي تمت للمباشرة بالثورة– ان قسطاً لا يستهان به من التردد كان وراء انفراد (قاسم) بالعمل آخر الامر بالاستناد الى القوات التي كانت بأمرته، وبالتعاون مع عبد السلام وغيره من الضباط الذين كانوا يركن لهم. الواقع ان منظمات الضباط الاحرار وبخاصة (منظمة العقداء الثمانية) بقيادة (محي الدين عبد الحميد) كانت اقدر على اخذ المبادرة وحسم الامور، لو انها تحلت بدرجة كافية من العزم والاقدام. غير ان هذه المنظمة قد وقعت – طيلة عامين – ضحية التردد والاحجام، علماً بانها كانت تتمتع بتأييد نحو (300) ضباط في بغداد ومختلف انحاء العراق.

ولكن برهن (قاسم) في كل الظروف على

انه أكثر جرأة واستعدادا للمخاطرة. الدليل على ذلك، إصراره على مواصلة العمل، والمحاولات العديدة التي قام بها لتفجير الثورة، ومنها محاولات تنطوي على قدر كبير من المجازفة.

فلقد أثار دهشة زملائه مرة بعد أخرى باصراره على استغلال احدى المناورات للواء الذي كان بأمرته لتصفية الملك والوصي ونوري السعيد عن طريق سحقهم بالدبابات. وتوجيه النيران لمن كان من المفترض أن يكونوا على المنصة اثناء المناورات من رجال العهد الملكي وجنرالات حلف بغداد.

واذكر ان (رشيد) قد اخبرنا بهذه الخطة مضيفاً اليها ما أخبره به قاسم أخيراً من أن ضحايا عديدة قد تقع، قد يكون من بينها (المارشال مونتغمري) وغيره من قادة جيوش حلف بغداد الذين كانوا من ضمن المدعوين لمشاهدة هذه المناورة. وعند الاستفسار عن العواقب المحتملة لهذه العملية، ذكر ان قاسم قال ببساطة:

– " اننا سنقدم الاعتذار – والتعازي لهذه الدول"..!

وقد جوبه اقتراح قاسم هذا بمعارضة شاملة من جانب الكثير من الضباط الاحرار ولا سيما القادة الكبار منهم.

كما أبدت منظمة القادة والعديد من أنصارها معارضة متكررة لقتل الملك فيصل، وطالبوا بالابقاء عليه، وأنصاع قاسم لرأيهم مع بقائه مصراً على تصفية الملكية وإعلان النظام الجمهوري.

وعلى غرار هذه المجازفات، كان (قاسم) يفكر بإستغلال مناورة أخرى في الصحراء الغربية لتوجيه نار المدفعية نحو أركان النظام وتدميرهم. ولما سؤل عن مصيره هو بينهم ، أجاب ببساطة أيضاً:

– سأعرف كيف اختار صخرة أحتمي بها!

لقد سنحت فرص عديدة لغير عبد الكريم قاسم، ليتولوا قيادة وتنفيذ الثورة ولكن سعيهم قد إستطال أكثر مما ينبغي "لاستكمال الاستعدادات" ، واغلب الظن، هو ان قاسم، بعد أن رأى كل ذلك ، وركن الى مساندة الكثيرين، بدأ يفكر بالاعتماد على قواته وانصاره الاقربين، الى جانب حرصه المفرط على الكتمان واستخدامه عنصر المباغتة.

ولذلك، لم تكن صدفة أن يتم تفجير الثورة واحتلال بغداد بلوائين يقودهما بضعة عشر ضابطا الى جانب اعلام قادة أحزاب الجبهة بموعد التنفيذ قبل ثلاثة أيام من البدء بها، وإناطة أدوار معينة لبعض الضباط في بغداد. أما بقية الضباط في بغداد وغيرها من المدن، فقد علموا بالثورة من الراديو، فهبوا لمساندتها، كل من موقعه، وأحبطوا بعض المحاولات الخطيرة والمضادة للثورة وخاصة في الديوانية والمسيب وكركوك.

وقد اتضح بعد نجاح الثورة، أن المبادرين في تنفيذها كانوا في الاساس عبد الكريم قاسم، عبد السلام عارف، وصفي طاهر،احمد صالح العبدي، عبد اللطيف الدراجي، عادل جلال، ابراهيم عباس اللامي، عبد الستار عبد اللطيف بالاضافة الى عدد من الضباط الصغار الذين أختارهم قاسم بعد الثورة مرافقين له.

والحقيقة الاخرى، وهي انه لا عبد السلام عارف ولا اخوه كانا منصفين في قول الحقيقة.

– عندما توليا الأمر. ففي يوم الجمعة (11 تموز 1958) جاء (قاسم) الى بغداد، وحل

في بيت (رشيد مطلك). وقد اخبرني رشيد فيما بعد، انه انكب على وضع وتعديل (البيان الاول).

كما بسط امامه خريطة لخطة الثورة. وراح يدرسها بإمعان. ثم قام على حد قوله قول رشيد بـ (تصغيرها) واختزالها على ورقة صغيرة. وقد وضعها والنسخة الوحيدة من البيان الاول للثورة في الجيب الاعلى لقميصه العسكري.

كما اوفد (رشيد) لاستطلاع موقف حزبنا، والحزب الوطني الديمقراطي وإبلاغهما بعزم على تنفيذ الثورة في صباح الرابع عشر من تموز.

وقد وصل الابلاغ الى (سلام عادل) بواسطة (كمال عمر نظمي) وعاد كمال الى رشيد الذي اوصل الى قاسم موافقة الحزب.

كما قام رشيد بإبلاغ (كامل الجادرجي ومحمد حديد) بالامر وطلب الموافقة. وقد اخبرني المرحوم كامل الجادرجي انه ابلغ بدوره (الاستاذ صديق شنشل) والارجح ان (عبد السلام) هو الذي قام بابلاغ حزب البعث بموعد الثورة عن طريق (فواد الركابي) .

تلك بعض الحقائق التي تفند بعض ما ورد في عدد من المطبوعات التي تحدثت عن ثورة تموز. كما تدحض بعض ادعاءات عبد السلام عارف (رغم دوره المأثور والحازم في تنفيذ المرحلة الاولى من خطة الثورة) وما ورد على لسانه من زيف بعد ان وقع قاسم اسيرا بين يديه.

ففي هذه المرحلة الحاسمة، انخرط الى جانب المبادرين من العسكريين، عدد آخر من زملائهم في بغداد وغيرها من المدن كما بينا. والمهم قبل كل شيء، هو القوة الضاربة والهائلة لجماهير الشعب التي انطلقت فوراً في هدير كاسح اقتلع كل شئ ورسخ انتصار الثورة.

لقد اتيحت لي فرص عديدة ان ارى عبد السلام عارف مع قاسم بعد الثورة، ورأيت بأي قدر من التواضع والرهبة كان يتصرف إزاء (زعيمه).. وكم من مرة اطرى على دوره وزعامته للثورة .

كما اتيح لي، مثل المئات من الناس ان اطلع على نسخ طبق الاصل من رسائله الى قاسم.

– حيث كان الـ (قاسميون) يوزعونها بمئات النسخ في عهد تولي عبد السلام لرئاسة الدولة. وهي مرجع لا يرقى اليه الشك لمن يريد خدمة حقيقية.

****

ذلك شيء عن تموز، إستناداً الى مشاهدات ووقائع تراكمت لدى الحزب من خلال متابعته ودوره النشيط في الاعداد لثورة تموز والاسهام فيها، وابهج ما فيها اعراس الشعب بأنتصارها، والشوق الذي استقبلنا به رفاقنا من سجناء العهد الذي هوى.

كانوا، على غرار الكثيرين ممن ذكرت، سباقون في العزيمة والامل والاحلام الكبيرة وكانوا على حق.

فلماذا يحلم الاسير والثوري الحقيقي (احلاماً صغيرة)؟

ولماذا يعرض (هؤلاء انفسهم للعذاب والتضحية ان لم يكونوا اصحاب رسالة تاريخية)؟

لكم تبدو تلك الايام قريبة ، رغم ان الزمن يسير.. وجيل جديد يولد.. ونهر الاحداث يجري هادراً .. ومع ذلك تبقى ملحمة تموز

خالدة في النفوس.. مضرمة للخيال.. وتبقى قصة تموز أكبر من قدرة الرواة على استكمال فصولها.

وما على الصناع الحقيقيين لهذه الملحمة وشهودها الأقربين إلا أن يقولوا الحقيقة فيما صنعوه أو شاهدوه.

فمن حق التاريخ أن يكتب كما وقع

ومن حق هذا الجيل أن يعرف كل هذا.

ملاحظة: **أكرر الرجاء مرة أخرى ممن ساهموا في هذه الثورة، ولم ترد أسماؤهم في هذه المقالة، أو يمتلكون معلومات دقيقة، أن يوافوا الكاتب أو أسرة تحرير المجلة بما لديهم من معلومات وملاحظات، تعديلاً أو تصحيحاً أو إضافة - ولهم الشكر.**

* المقال منشور في (الثقافة الجديدة) العدد 144/تموز 1983، ص ص: 14-33

طاولة مستديرة

طاولة مستديرة لمناقشة " واقع الصناعة الوطنية العراقية " *

في الثاني من نيسان/ ابريل2011 وعلى قاعة جمعية المهندسين العراقية ببغداد انتظمت أعمال طاولة مستديرة ضمت عددا من المهتمين بالشأن الاقتصادي العراقي ومن ذوي الاختصاص والأكاديميين للمساهمة في مناقشة واقع الصناعة الوطنية العراقية.

وتسهيلا للنقاش في الطاولة المستديرة التي أدارها الأستاذ **يحيى الدجيلي**، الصناعي والخبير في الاقتصاد العراقي، فقد تم تعميم ورقة عمل ندرجها هنا تعميما للفائدة:

نبذة تاريخية عن الصناعة الوطنية:

بدأت الصناعة في العراق كصناعات صغيرة متعددة تطورت بعد قيام الحكم الوطني عام 1920 وشهدت الفترة لغاية 1958 ظهور صناعات مختلفة كتصفية النفط وصناعة النسيج والسكائر والتمور وصناعة الجلود وبعض الصناعات الإنشائية،إضافة إلى بعض الورش والمعامل الصغيرة، وقد شكل ذلك 85% من القطاع الصناعي العراقي، واكتسب التطور الصناعي في هذه المرحلة سمة خاصة ناجمة عن دخول الرأسمال الأجنبي وبخاصة البريطاني الذي استهدف إقامة المشاريع الرأسمالية، سعيا منه لتسريع عملية نمو العلاقات الرأسمالية وعاملا في نفس الوقت على تشويه المسار الطبيعي للنمو الاقتصادي، ومخضعا إياه لمصالح الرأسمال الأجنبي والحد من تبلور الطبقات الاجتماعية الوطنية واستقلاليتها في التطور والنمو.

دخل العراق بعد ثورة 14 تموز1958 في طور الصناعة الحديثة، وأحدث عقد الاتفاقية العراقية – السوفيتية عام 1959 نقلة نوعية أدت إلى قيام مصانع كبيرة وأساسية كمعامل الإسكندرية للآلات الزراعية، العدد واللوازم الكهربائية في الوزيرية وزجاج الرمادي، أدوية سامراء، النسيجية في الكوت ومعامل الأحذية الشعبية في الكوفة. وقد ساهمت تلك المشاريع في خلق قاعدة صناعية أسست لتطور الصناعات في العراق وإعداد كوادر فنية واقتصادية ساهمت في نهوض الصناعة.

إن مساهمة القطاع الخاص إلى جانب كون البرجوازية الوطنية كانت هي الأخرى ضعيفة بنيويا بسبب السياسة الاستعمارية في مجال الصناعة العراقية التي كانت تستهدف تخدير يقظة البرجوازية الصناعية العراقية وبذر صفة الطفيلية فيها وخلق روح المساومة عند الفئات العليا منها للدخول مع رؤوس الأموال الأجنبية في اتفاقات

للمشاركة في الأرباح.

إن تأميم النفط وارتفاع أسعاره الذي أدى إلى توفير مبالغ ضخمة للدولة ولنضوج الكوادر الفنية والاقتصادية والإدارية العراقية المدربة في الكثير من دول العالم، ساهمت بإعداد دراسات جدوى اقتصادية وفنية للعديد من المشاريع الصناعية في مجالات مختلفة، واستطاعت إقامة صناعات بتكنولوجيا متقدمة من مختلف دول العالم. وهذا ما يميّز الصناعة العراقية كونها متعددة المصادر منها أوربية شرقية وغربية وجنوب شرق آسيوية وأمريكية.

مشاريع وزارة الصناعة:

استمرت وزارة الصناعة باعتماد دراسات الجدوى الاقتصادية والفنية وتعاقدت وأنجزت العديد من المشاريع الصناعية وكما يأتي: الصناعات الهندسية، الصناعات الإنشائية، الصناعات الغذائية، النسيجية، الكيمياوية، الخدمية.

كل ما أشير إليه أعلاه من صناعات ونشاطات كان أداؤها جيدا في غالبيتها .وخاصة الصناعات الكيمياوية.

كان دخول العراق في حرب مع إيران قد أدى إلى تحويل عدد من المنشآت المدنية في خدمة النشاط الحربي وبخاصة الصناعات الهندسية، إلى جانب استحداث منشآت عديدة متخصصة بالإنتاج الحربي كمنشآت: **بدر والقعقاع وحطين والقادسية** وبعض المنشآت الكيمياوية. وكان الهدف من ذلك تعزيز القدرة العسكرية على حساب الصناعات المدنية التي يحتاجها المجتمع العراقي. كما أدى أيضا إلى شل ومغادرة العديد من الكوادر وبمختلف المستويات حيث زج بها في جبهات القتال وتولي عناصر غير مؤهلة لقيادة الصناعة واعتماد المزاج الشخصي إضافة إلى عدم كفاءة أداء الإدارات والتي فرضها النظام السابق واستبعاد العناصر الكفوءة. وكل ذلك قد أثقل كاهل الصناعة وأدى إلى تدني النوعية في الإنتاج حيث أرغمت الدوائر الفنية في كافة المنشآت الصناعية على عدم اعتماد وثائق حقوق المعرفة الفنية والمسارات التكنولوجية. وأصبح عنصر المزايدة هو السائد مما أساء كثيرا لسمعة المنتجات العراقية كرداءة نوعيتها وكسادها في الأسواق العراقية.

الحصار الاقتصادي وتدني الصناعة:

لقد كان للحصار الاقتصادي الظالم اكبر الأثر في استمرار تدني الصناعات المدنية كما ونوعا، حيث حرمت غالبيتها من المواد الأولية وقطع الغيار ومغادرة غالبية الكوادر الفنية لمواقع العمل بسبب الظروف السياسية والاقتصادية، في حين كانت تصرف مبالغ هائلة على الصناعات الحربية.

ومنذ عام 2003 ولغاية الآن تعرضت الصناعة العراقية وبكافة قطاعاتها الى أعمال النهب والتخريب والإهمال بشكل لم يكن مسبوقا في تاريخ العراق الحديث. هذا إضافة إلى قيام حرب عشوائية ضدها وتشويه للكثير من الحقائق ومنها تقادم المصانع وعدم وجود دراسات جدوى اقتصادية وفنية ورداءة النوعية والكلف العالية للإنتاج، وغيرها من الادعاءات الظالمة بهدف إجهاضها. الى جانب ذلك فان العديد من المنظمات وبعض الأحزاب السياسية لم تكن على إطلاع كاف على حقيقة الصناعة وحجمها، مما أدى الى عدم الاكتراث بها ولفترة طويلة من الزمن(وذلك لتدني النوعية خلال فترة الحصار).

مما تقدم يتضح أن الصناعة العراقية بشكل عام سواء القطاع الحكومي أو المختلط أو الخاص بحاجة الى شمولها بخطة التنمية ليتسنى قيامها بتحديث دراسات الجدوى الاقتصادية والفنية وإعادة تأهيلها عن طريق رصد مبالغ كافية لها لكي تساهم بتعزيز وتنمية الدخل القومي وفي حالة ظهور بعض من هذه المعامل ذات مردود اقتصادي منخفض. ولا تعني هذه الملاحظة غلق تلك المعامل حيث أنها تعمل على تشغيل إعداد كبيرة من الأيدي العاملة أو ذات إنتاج يساهم في تنمية وتغذية صناعات أخرى وتؤدي الى استقرار الوضع الاجتماعي، مع التأكيد الى إعطاء الأولوية للصناعات الإنشائية لدورها في تحريك أعمال البناء وتشغيل أعداد هائلة من العاطلين والصناعات الميكانيكية الكيمياوية لتعزيز وتطوير الزراعة كما ونوعا وسد قسم من حاجة المجتمع العراقي من المنتجات الأساسية وشركات الصناعات الهندسية (الميكانيكية والكهربائية) وبخاصة الآلات والمكائن الزراعية.

إن تطوير الصناعات بمجموعها سيفضي بدوره الى تحسين مساهمة القطاع الصناعي التحويلي في تكوين الدخل القومي وبإمكان ذلك تقليل الاعتماد على قطاع النفط والعوائد المتأتية منه بشكل تدريجي.

قضايا ملحة:

وإضافة لذلك كله هناك حاجة للتأكيد على القضايا الآتية:

1. **دور الدولة**: إن للدولة دوراً أساسياً في العملية الصناعية كونها المسؤولة عن توزيع الثروة والاستثمار في البنى التحتية والمشاريع الكبرى وحماية البيئة على أن يكون دخول الدولة محكوما بطبيعة وشروط وفعالية تدخلها. وفي ظل الخراب الهائل الذي يعم العراق وتحطم بناه التحتية وضعف القطاع الخاص الوطني لامناص للدور الفاعل للدولة.وهو يتطلب إصلاحا اقتصاديا وإداريا جذريا، يرسي معايير الشفافية والكفاءة والمساءلة ومحاربة الفساد والقضاء على جذوره ووضع سلم مناسب للأجور والمكافآت يؤمن عيشا كريما للعاملين في قطاع الدولة. وبهذا الخصوص نقترح:

• فصل كامل نشاط التعدين في وزارة الصناعة وربطه بمجلس الوزراء للأهمية الكبيرة له.

• فصل النشاط البتروكيمياوي وتشكيل وزارة خاصة به وحجز نسبة 10% من أرباح النفط تخصص لهذه الوزارة ليتسنى لها النهوض بمهامها بوقت قصير.

2. **القوانين والتشريعات المنظمة**: من الضروري أن يسبق ويرافق "التحرير الاقتصادي" في أي قطاع تشريعات وضوابط منظمة للسوق وقوانين تضمن حقوق العاملين وحرية التنظيم المهني والنقابي وتحفظ حقوق المستهلكين والأطراف المتعاقدة وشروط المنافسة وتؤمن السيطرة النوعية على المنتجات والسلع المتداولة.وخلاف ذلك تتعرض هذه النشاطات لمختلف أشكال التلاعب والتجاوزات.

3. **الموقف من الخصخصة ومؤسسات القطاع العام**: لاشك أن تنشيط دور القطاع الخاص وتوفير المناخات (السياسية والحقوقية والاقتصادية الملائمة لممارسة نشاطه من أهداف الإصلاح الاقتصادي) ولكن يحق التساؤل لماذا يجب أن يكون نموه على حساب مؤسسات القطاع الحكومي؟

فميادين العمل وإعادة الاعمار لا حصر لها وتتسع لخلق طاقات إنتاجية وفرص عمل

مضافة في حين ليست الخصخصة سوى نقل ملكية طاقات موجودة. علما بأن دروس وتجارب الخصخصة تشير الى الأضرار والمحاذير التي تتردد على الاكتفاء بقرار تتخذه السلطة. فالخصخصة عملية تتكون من حلقات مترابطة يشترط تطبيقها تسلسلا زمنيا قد يستغرق سنوات.

ولنا في تجارب بعض البلدان أمثلة شاخصة. إن خصخصة أي مؤسسة أو قطاع ينبغي أن تتصف بالشفافية وان تدر أفضل عائد على الدولة وان تضمن إنتاجية وكفاءة أعلى في القطاع المعني وان توفر السلع والخدمات بأسعار ونوعية أفضل.

التوجه المطلوب:

• **إعادة النظر في ارتباط عدد من المصانع العائدة لوزارة الصناعة والمعادن وتحويلها الى شركات قطاع مختلط، شركات مساهمة أو شركات خاصة**. على أن تقوم الدولة بإعادة تأهيل هذه المعامل حيث لا جدوى من بيعها متوقفة وتحويل عبئها من الدولة الى القطاع الخاص.

وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك معامل: الغازات الصناعية، النشا، المكواة، شمعات القدح (البلكات)، العلامات المرورية، الزوارق، الخزانات، المنظفات، معامل الطابوق، الدفاتر المدرسية، الأثاث الخشبية، معمل الأحبار، الماء المقطر، الخلايا الضوئية، الصوف الصخري، ومعامل الألبان وغيرها.

• **التوجه لخلق صناعات صغيرة وحرفية في الريف** لتساهم في زيادة دخل المواطنين في تلك المناطق وتؤدي الى تخفيف الهجرة الى المدن .

• **تامين علاقة مناسبة بين التنمية الصناعية والزراعية** لإزالة التشوه الخطير في العلاقة بينهما ومع بقية القطاعات الاقتصادية والاجتماعية.

• **إيلاء اهتمام خاص بصغار المنتجين** من كسبة وحرفيين وأصحاب الورش الصناعية الصغيرة ومساعدتهم للنهوض بمشروعاتهم الاقتصادية وبما يساهم في تشغيل وتدريب العديد من الكوادر لزيادة الإنتاج وإشباع جزء من حاجات السوق المحلية .

• **تشجيع مبادرات القطاع الخاص وإعطاء تسهيلات ضريبية تمييزية** للمشاريع التي تستخدم التقنيات الجديدة، وتساهم في استخدام المواد الأولية والخامات المحلية وتشجيع التصدير.

• بسبب سوء الوضع الأمني والاقتصادي في العراق غادر الكثير من ذوي الكفاءات والخبرات والشهادات العليا العراق وهؤلاء يمثلون جزءً هاماً من الثروة الوطنية والتي **يتوجب العمل على تحفيزهم ماديا واجتماعيا بهدف تشجيعهم للعودة الى الوطن.**

•**التركيز على فتح مراكز التدريب والتأهيل والمعاهد الفنية** في البلاد عموما الى جانب إعادة فتح مراكز التدريب المهني المرتبطة بوزارة الصناعة بما يؤدي لرفد العملية الصناعية بكافة القطاعات عمالة مدربة ومؤهلة من الشباب.

• **إعادة النظر وبشكل جاد بالهياكل التنظيمية وملاكات كافة المصانع** بما يؤدي الى تخفيض الكلف التشغيلية.

• **التوقف عن تكليف شركات القطاع العام والمختلط بدفع رواتب وأجور المفصولين السياسيين وتحميلها على وزارة المالية.**

•**إعطاء الصلاحيات المناسبة لإدارات**

الشركات العامة صلاحيات كافية لتنفيذ مهامها وبدون روتين.

•إعادة النظر جديا بنسبة التخصيصات المالية من الموازنة بما يلبي حاجة الصناعة .

• إيجاد الشخص المناسب في المكان المناسب ولكافة المستويات.

وبعد انتهاء الأستاذ يحيى الدجيلي من تقديم ورقة العمل، فتح باب النقاش الذي شارك فيه العديد من المشاركين. وأدناه خلاصة لهذه المداخلات حسب تسلسل تقديمها:

الأستاذ رائد فهمي عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي:

هناك أسئلة جوهرية تواجه البلد ككل، فلحد اليوم لا يوجد لدينا شيء اسمه إستراتيجية صناعية ما يعني وجود خلل كبير للتطور الاقتصادي اللاحق للبلد، وما هي القطاعات التي ينبغي تطويرها حيث أن غياب الرؤية والإستراتيجية يبقينا مشغولين بجزيئات القطاع الصناعي إضافة الى عدم وجود رغبة في إيجاد إستراتيجيات صناعية.

لماذا لا توجد رغبة؟ لأن هناك شبه قناعة لدى القوى المتنفذة في الدولة أن الصناعة ليست من اختصاص الدولة مما دفع تلك القوى لفتح مجالات للمنافسة وآلية السوق وبالتالي نحن بلد الآن يبدو لي في خضم هذا التطور العالمي ما هي إمكاناته في التطور الصناعي؟ توجد قناعات بأننا لا نتمكن صناعيا إلا بجزء معين. فالتجارب الخاصة للبلدان التي حققت نهوضا اقتصاديا عن طريق تبني نهج التطور الليبرالي واقتصاد السوق ولكنها أيضا استندت الى حقيقة أن الدولة لعبت دورا كبيرا في استنهاض القطاع الصناعي والقطاعات الأخرى كما هو الحال في بلدان جنوب شرق آسيا، وهناك قفزات كبيرة ولكن كان هنا نشاط كبير للدولة .

دور الدولة:

ما هو دور الدولة؟ احد أهم الأدوار أن الدولة كان عندها سياسة في تشخيص البنى، وتلعب الدولة دورا كبيرا في رعاية القطاع الصناعي سواء بالدعم المالي أو البشري أو التسهيلات في السياسة المالية... الخ، في تمكينه من النهوض وان يكون على مستوى وقدرة تنافسية عالية ورؤيا حول المجالات التي سيتم التركيز عليها وتوجيه الموارد إليها. نحن اليوم وعلى مستوى السياسة العامة لا توجد نظرة تفصيلية، هل هناك قطاعات فعلا ينبغي أن تولي هذا الاهتمام من قبل الدولة. كما نلاحظ اليوم أيضا الشركات العامة المعطلة وهناك مشروع إصلاحي ولحد اليوم حسب تصريح السيد وزير الصناعة الذي يقول بان لدينا 75 شركة تحتاج الى 250 مليون دولار في الأقل وهذا مبلغ كبير جدا ومعناه أننا لا نستطيع أن نفعل شيئا لذلك. فالدولة لا تستطيع أن تفعل شيئا وتعرض على القطاع الخاص والذي لا يملك هذه الإمكانات ويعني ذلك دخول منظومة الشركات لغرض الاستثمار. وقد بدأوا فعلا منذ أربع سنوات إلا أن هناك تعثراً. فأين نحن ذاهبون وما هو الجدول الزمني؟ وما هي الآفاق ؟ الموازنة لا يمكن إلا أن تلبي جزءا قليلا وعلينا اليوم أن نساهم في توضيح رؤية لما ينبغي أن يكون عليه القطاع الصناعي في ظل العولمة وانفتاح الأسواق والسعي لدخول منظمة التجارة العالمية والاحتمالات الضعيفة في تأمين أشكال حماية فعالة. القانون الأخير حول التعريفة الجمركية قد تم قبره قبل أن يظهر وقد بقي القانون سنة ونصف في وزارة

العدل وبعد ظهوره قالوا بان ذلك سيؤدي الى زيادة التضخم، وتم تأجيله في يوم واحد. ومعنى ذلك أن قضية الحماية ألف جهة وجهة تحفر قبرها قبل انبثاقها.

وتعرفون المصالح والمبررات التي تقال، أما عن قضية التضخم فيمكن معالجتها... هذه المعطيات الحقيقية الواقعية ونحن نريد تغيير الواقع.. ولكن ما هي تصورات الدولة العراقية عن القطاع الصناعي؟ هل نعيد إحياء الصناعات كلها؟ أم قسماً منها؟ وبالمقابل بعض الصناعات تحتاج الى دعم معين وحوافز معينة. ما هي هذه القطاعات وما هي أشكال الملكية الممكنة حاليا والفعلية؟ هل هي كلها خاصة؟ أم عامة، أم مختلطة؟ ونحن نتحدث عن إستراتيجية من هي الإشكال التي نتبناها اليوم ويجب أن تستمر لسنوات طويلة. نحن اليوم في عملية إعادة استنهاض القطاع الصناعي وبالتالي يوجد تدخل غير اعتيادي من قبل الدولة في هذا الواقع الذي نعيشه. وان التدخل يمكن أن يكون تدريجيا ثم يضمحل ويتحول الى دعم تشريفي، مالي، تحفيزي واستخدام أدوات مختلفة من السياسة المالية...الخ. وهل نحن نتجه الى صناعات تصديرية أم صناعة إحلال الواردات؟ في الستينات والسبعينات لم يكن لدينا الكثير من الصناعات وكانت صناعة إحلال الواردات مشغولة بسياسات حمائية قوية. واليوم السياسات الحمائية غير موجودة. وما هي الصناعات التي تستطيع أن تستمر في ظل غياب أو وجود سياسة حمائية ضعيفة جدا.؟

اليوم نحتاج الى صورة واقعية تأخذ بنظر الاعتبار أن الدولة تستطيع أن تدعم وتعطي دفعاً، ولكن هذه الدفعة حسب قناعتنا مؤقتة لسنتين أو ثلاث أو خمس وليست أكثر. فإذا الصناعات خلال السنوات الأربع قادرة لأن تقف على أقدامها وتواجه كل التحديات والمنافسة وتتوفر لها الديمومة، وهل هذه ممكنة في صناعات معينة أم في كل الصناعات؟ إن قضية الصناعات النفطية والبتروكيمياوية ميدان كبير جدا فهل تعمل هذه الصناعة للسوق المحلية أم للتصدير؟ وإذا كانت للتصدير فيجب أن نأخذ بنظر الاعتبار الدول المنتجة المجاورة كالسعودية ودول الخليج وهذه كلها تحتاج الى رؤى إستراتيجية بعيدة، واليوم ليس لدى الدولة إستراتيجية. وعلينا أن نبلور عددا من المطالب الاقتصادية للقطاع الصناعي التي نعتقدها وتعتقدون أنها ضرورية لنهضة القطاع الصناعي وهذه المطالب يمكن التركيز عليها والعمل الى تحويلها الى سياسات عامة مدعومة بتحرك سياسي وجماهيري. العراق مستمر باقتصاده الريعي فيوما بعد يوم تتعمق القيمه الريعية والإنتاج كله يذهب واعتقد انه بهذا يصير تراجعاً حضارياً وليس تراجعاً اقتصادياً.

د.حمودي عباس حميد
مستشار وزارة الصناعة:

كيف نعالج المشاكل التي تم تشخيصها في ورقة العمل؟ وسأتطرق الى فقرة مهمة باعتقادي والتي هي فقرة إعادة النظر بارتباط عدد من المعامل العائدة للدولة وتحويلها الى شركات أما مختلطة أو خاصة أو مساهمة خاصة. والخاصة معناها تباع والدولة الآن ليس لديها توجه ببيع أي شيء، فلنتجه نحو الحلول الممكنة. وباعتقادي أن الحلول الممكنة في الصناعة الآن حيث يوجد توجه نحو تحويل بعض المعامل التي فيها جدوى الى شركات مساهمة خاصة. يعني هذا أن الصناعة تبقى تمتلك 24.76%.

الى الجهة الراغبة بتشغيل هذا المعمل أو المشروع الإنتاجي المتوقف أو المتهالك الذي يعمل بطاقات إنتاجية محدودة .. وهذا باعتقادي حلا جيدا ممكن أن نشجع عليه، لماذا نشجع عليه إنشاء أي مشروع فقد نتردد بإقامة أي مشروع إذا كان بدون دراسة جدوى ضمن المعايير المعروفة. أقول هذا المشروع مجد، أي هنا طلب عليه وهناك حاجة ولكني لا استطيع أن أقدم عليه والسبب حتى انشىء هذا المشروع فاني احتاج 12- 18 شهرا ابتداء من التنمية الصناعية الى البيئة والآثار والكهرباء والبلديات والنفط ....الخ حتى نأخذ موافقات وبعدها ننشىء المشروع. يعني أن العملية تحتاج الى ثلاث سنوات، ومن المحتمل أن تتغير دراسة الجدوى في هذه السنوات الثلاث حيث قد يكون هناك تطور وقد تكون هناك منتجات أخرى. لذلك توجه الصناعة الآن باعتقادي يجب أن يستغل فلدينا استعداد بان نحول الى شركات مساهمة خاصة، والان لدينا معملين بهما موافقات: **معمل بغداد للغازات الطبية** في العامرية و **معمل بابل للمحاقن الطبية** أيضا فيها موافقات. تبلغ مساحة معمل بغداد10 دونماً ومعمل بابل20 دونماً وقد قدمت مقترحا لمعالي الوزير السابق ووافق عليه وتم إعداد ملف ويمكن لأي احد عنده رغبة بالاستثمار أن يتقدم. فالموافقة موجودة ويمكن الدخول على أساس تحديث خط إنتاجي أو إضافة طاقات إنتاجية. يعني أن العملية لا تأخذ وقتا أكثر من 6- 12 شهراً ويتحول الى حالة إنتاجية بطاقة اقتصادية وستكون الدولة شريكا. إن تعليمات تنفيذ الموازنة الاتحادية لعام2011 تجبر ولأول مرة الجهات الحكومية لان تأخذ الإنتاج الوطني من الشركات الحكومية. إلا أن أي احد يريد الدخول كشريك مع الدولة المنتج العائد له سيكون مسوقا لأنه يجب أن يحصل على اعتذار بعد 14 يوما ليسمح له بالاستيراد من الخارج حيث انه من حقه هذه الكمية وهذه النوعية وبرمجة التجهيز التي يمكن معالجتها. وهذه فرصة جيدة إضافة الى وجود توجه لدينا بديل الذي لديه رغبة بان يدخل مع وزارة الصناعة مشاركة في احد المعامل أو أجزاء من المعمل. فالمعمل به عدة أقسام فقد لا يستطيع أن يأخذ المعمل بكامله فعلى سبيل المثال لدينا خط إنتاجي ضمن معمل أول شيء التوجه الذي أشار إليه الأخوة حول معامل الإسمنت فهذه المعامل حالة خاصة حيث عليه طلب. المستثمر لا يرغب بان يأخذ المعمل ومعه آلاف العمال فقط ربعهم يفيدونه وثلاثة أرباعهم يدفع لهم راتبا. فالصناعي من الدرجة الأولى والذي لديه الخبرة والإمكانية عندما يأتي للمشروع فانه سيفشل لان نعطيه الآلاف من العمال والذين هم أربع أضعاف ما يحتاجه، فكيف سيستطيع أن يشغل المعمل؟ وكيف يستطيع تطويره؟ الآن من الممكن أن نعطي معملاً ضمن شركة وهذا يحتاج الى جهد مشترك لان أي شيء جديد سنجد الكثير ممن يحاول إعاقته. لدينا الرغبة وحتى نخفف العبء عن شركات الدولة أن نعطي معملاً بعدد ربع العدد الموجود فيه وثلاثة أرباع العدد ننقلهم الى معامل أخرى تابعة لنفس الشركة وهذه مرحلة أولى لحين أن نجد الفقرة حول الفائضين والمفصولين السياسيين المعادين حيث المفروض أن وزارة المالية هي التي تتحمل رواتبهم وليست الصناعة كما تتحمل وزارة العمل والشؤون الاجتماعية رواتبهم أيضا، ويعني هذا لابد

من تشريع يجد حلا لهؤلاء. وحتى الصناعة تبدي المنافسة في ظل سياسة الإغراق وعدم وجود حماية للمنتوج الوطني وفي ظل مشاكل كثيرة نعرفها جميعا. ابتداء فلنحول هذه الأعداد والدولة تتبناهم ولماذا تحسبهم على وزارة الصناعة؟ فإذا كان المنتج يكلفنا مثلا 1000 دينار بينما يباع بسعر 250 دينارا، فكيف نستطيع العمل ؟ والحقيقة أن الكلفة العالية متأتية من هذه الأعداد الكبيرة. هذا مع العلم معظم معاملنا وشركاتنا الإنتاجية تتجاوز الكلف فيها 70% وهذا شيء غير موجود في العالم كله. يعني كلفة الرواتب والأجور أكثر من 70%. ومن الضروري التثقيف بهذا الاتجاه. إذا جاءنا احد المستثمرين يريد الاستثمار في معمل ألبان الديوانية مثلا لإنتاج الألبان، فيمكن إعطاء المستثمر خطاً إنتاجياً على أساس المشاركة وهذا مفهوم جديد بدأنا نتكلم فيه في الصناعة. والمعمل جاهز الآن ويمكن دخول المستثمر للمشاركة دون أن ينتظر سنة أو سنتين. فمثلا يقول المستثمر باني احتاج الى100 عامل في المعمل فقط أو 20 عاملا لإدارة المعمل، يمكن عندها إعطاؤه هذا العدد من الموجودين وهو الذي يدير المعمل ويقدم عرضا يحدد فيه ما يعطينا من الإنتاج. هذا الإنتاج مباع لأنه ينتج باسم الصناعة لان الصناعة شريكة معه بموجب تعليمات الدولة لعام 2011 على افتراض أن الجدوى الخاصة به موجودة.

علما أن الألبان القادمة من إيران أو تركيا بعضها يتعرض للتلف نتيجة عمليات النقل وإطفاء البرادات لفترة. وقد حدث تسمم لبعض الأهالي في الديوانية من جراء تناول الألبان الإيرانية بسبب إطفاء التبريد على الألبان وهي مادة غذائية فيها سكر تساعد على نمو البكتيريا ويحصل التسمم. أما الإنتاج المحلي فيمكن أن يباع دون مشاكل. وهناك أمثلة أخرى لمعامل عديدة يمكن الاستثمار فيها. ذكرت معامل بغداد في العامرية قرب السفارة الصينية وبسكولاته، مساحته 25 ألف متر مربع واعتبره فرصة جيدة للاستثمار حيث يستطيع المستثمر أن يضع فيه خطاً إنتاجياً مع ما ينتج من غاز الأوكسجين الطبي، كما يستطيع أن يضع خطاً إنتاجياً للمحاليل الوريدية على أساس المشاركة مع وزارة الصناعة أو شركة مساهمة فيأخذ كل المعمل ولا توجد مشكلة بذلك. وباعتقادي أن أسلوب المشاركة يجب أن ينجح ولكنه يحتاج الى جهد ومن كل الأطراف حتى ننظم صيغة بين المشارك ووزارة الصناعة. وقد تطرق الأستاذ يحيى الى مسألة خلق صناعات صغيرة وحرفية، وفي الحقيقة هذه مسالة مهمة جدا، وهي موجودة في العالم كله حيث انه في كل منطقة تتميز بإنتاج معين، فأية صناعة إذا شغلت فيها 4 أفراد فهذه الأربع سيتبعهم سلسلة يأخذ المنتج ويبيعه. سألني السيد نائب محافظ الديوانية قائلا لي: بأنكم شغلتم خطين: خط آيس كريم، وخط حليب ولكن ذلك لم يقلص البطالة، وإنما العمال الموجودون سابقا في المعمل هم الذين شغلوه. أنا أريد شيئاً يمتص البطالة ويشغل العاطلين. فقلت له: هؤلاء من ينتجون 12 مليون عبوة في وجبة عمل يعني 24 مليون عبوة في السنة والآخر ينتج 7 أطنان آيس كريم يوميا، لكن هل هم الذين يستهلكونها أم أن هناك أناس آخرين ينقلونها الى المحلات وتقوم المحلات ببيعها؟ وهكذا وقد اعتبرت هذا المشروع صغيرا. المشاريع الصغيرة والمتوسطة مهمة جدا ويجب

التركيز عليها. أما المشاريع الكبيرة فقد أشار الأستاذ رائد فهمي الى استثمارات بالمليارات بالمشاريع الاستثمارية مثل البتروكيمياويات والحديد والصلب والأسمدة وغيرها. فهذه لها طريق آخر حيث يمكن أن تجد لها مستثمراً خارجياً والآن الأبواب مفتوحة ولكن ظروف البلد الأمنية في الفترة الماضية لم تشجع ذلك. وقد لاحظت خلال الفترة الماضية وصول عدة وفود كان آخرها الوفد الكوري حيث جاءوا برغبة شديدة للاستثمار في مجال البتروكيمياويات والنفط والكهرباء وبدأت الحركة الآن أفضل من السابق، حيث في السابق كانت الوفود تأتي لتعلن تواجدها فقط. وارى بان لدى الكوريين رغبة بان يدخلوا دخولا حقيقيا وإنفاق أموال كبيرة على مثل هذه المشاريع حيث أن لديهم فكرة عن المشاريع الموجودة في المنطقة في إيران والسعودية ومدى جدواها.

وباعتقادي أن الصناعات الصغيرة والحرفية مهمة جدا. وفي بعض البلدان يمكن أن تقوم هذه الصناعات في البيوت مثل صناعة السجاد اليدوي ويمكن أن ندعم مثل هذه الصناعات ويمكن لمنتوجهم أن يتم تداوله بعدة حلقات. وفي بلدنا أشياء كثيرة حيث تجد شيئا في أربيل ولا تجده في البصرة مثلا، فصناعات الدبس والخل وغيرها لا تكون مكلفة ويمكن للدولة أن تنميها وتتعاون بها. لدي ملاحظة حول ما قاله الأستاذ يحيى الدجيلي حول تحويل المصانع الى قطاع خاص أو مختلط أو مساهمة خاصة. وفي هذا مشكلة الآن لان الدولة لا تبيع حاليا ولكن ممكن للمختلط وللمساهمة الخاصة، والمساهمة الخاصة من وجهة نظري هي الأفضل. الدولة يمكن أن تعاون المستثمر في كثير من المجالات، وكمرحلة أولى فان وجود الدولة مع المستثمر في البداية مهم جدا حتى ننقل المعاناة الى الجهات الأخرى التي تحاول أن تعيقه وتخلق له مشكلة. ولكني لا اتفق مع الأستاذ يحيى على أن تقوم الدولة بإعادة تأهيل هذه المعامل. وبإمكان المستثمر أن يؤهل المعمل بنفسه ويجلب خطوط الإنتاج الجديدة التي يحتاجها. والحديث عن الصناعة له بداية وليس له نهاية.

الأستاذ فيصل التميمي

وكيل وزارة الصناعة سابقاً:

كنت أتمنى أن هذه الورقة والتي هي مبادرة طيبة وفيها جهد لا يعني100% ولا يعكس الحالة، ولا يعطي كل الحلول، ولكنها مبادرة. وهذه المبادرة كان الأجدر أن تأتي من وزارة الصناعة،هذه الوزارة التي تفتقد الى الإستراتيجية الواضحة على مستوى الوزارة وكذلك على مستوى شركات في قطاعات إنتاجية مختلفة. يعني يوجد لدينا قطاع الصناعة الاستخراجية وقطاع الصناعة الكيمياوية وقطاع الصناعة الإنشائية، ليس مدحا، هناك إخفاقات كثيرة، لكن على الأقل الأسس التي كانت معتمدة هي خلق إستراتيجيات واضحة تصور واضح يمتد الى عشر سنوات ينفذ الى خمس سنوات وهكذا. من المؤسف القول أننا إذا تكلمنا الآن فإننا لا نستطيع الضغط على وزارة الصناعة وتوجيهها للسير بالاتجاه الأمثل ولا نستطيع أن نسمع توجه وزارة الصناعة حتى نستطيع أن نسعى لمساعدتهم في توجهاتهم أن تطلب الأمر. سأنطلق من أن ورقة وزارة الصناعة هي الأتي: تصريح وزيرها المحترم الذي قال 75 مشروعاً لكل مشروع 250 وهذا الكلام غير دقيق مع كل تقديري. لا توجد كلف استثمارية ثابتة

موزعة على المشاريع، فهناك كلف استثمارية متغيرة. فلكل صناعة شكل، لكل تكنولوجيا شكل: تكنولوجية مستوردة، تكنولوجية محلية، وبالتالي لا يمكن أن يطلق هذا الشيء. إذا ما هو استنتاجي؟ هذا التصريح لم يبن على دراسة لا من قبل الوزير الذي استلم وزارة جديدة ولا من قبل المستشارين ولا من قبل الأجهزة الفنية المحيطة به. إن الـ 75% وانأ متأكد انه قد شمل منشآت التصنيع العسكري التي دمرت بالكامل. ولنسال: هل هناك نية في إعادة بناء منشأة القعقاع؟ هل سياسة الدولة الآن تسير بالعملية العسكرية والتصنيع العسكري مثلما كانت عليه سابقا؟ المطلوب هو إعادة النظر بالتوجه الصناعي على ضوء السياسة الجديدة. وثانيا، من تجربتي مع وزارة الصناعة التي ومنذ 9 نيسان2003 ولحد الآن تناوب عليها 5 وزراء، ومع كل تقديري لهم إلا انه في القطاعات الفنية يجب أن يكون الرجل المعني ملماً بشؤون الوزارة، فأي من الوزراء الخمسة كانت له علاقة بالصناعة؟ نحن ليس لدينا لغة صناعية مشتركة الآن مع وزارة الصناعة. سأنقل لكم بعض الأمثلة. التجربة التي صارت في (معمل سمنت طاسلوجة) وأنا افتخر لاني احد أقطابها. معمل الإسمنت هذا يعود الى وزارة الصناعة، انشىء في عام 1982 وكان يعمل بـ600 طن والطاقة الإنتاجية لكل فرن هي 3200 طن. ونتيجة الحس والشعور والحافز في كردستان الذي بدا يدفعهم باتجاه استثمار بقايا النشاط الصناعي والعمل على دفعه بالاتجاهات الايجابية، فقد تم التعاقد مع مستثمرين محلي وأجنبي، والأجنبي كان في البداية (مصري) الى أن وفقنا في أن كل خط بدا ينتج الآن 3400 طن وليس 3200. وكثير من القطاعات الصناعية وبضمنها وزارة الصناعة أرادت تكرار هذه التجربة. وقد زار السيد وزير الصناعة السابق الموقع مرتين ودار نقاش عن الوسيلة المثلى لإعادة تأهيل عدد من المشاريع وليس كل مشاريع القطاع الصناعي فهذا غير ممكن الآن. فمعامل القطاع الصناعي منها من اندثر ومنها أن التكنولوجيا لم تعد سليمة ومنها من هو غير مجد من الناحية الاقتصادية. وبالتالي كان المفروض أن نبين ما هي المشاريع الواجب إعادة تأهيلها ونشجع من هو قادر على التأهيل للدخول في العملية التاهيلية.هذا وقد صدرت ملفات كثيرة من الدائرة الاستثمارية في وزارة الصناعة لإعادة تأهيل المعامل، ولكن هل يعقل إعادة تأهيل معمل كمعمل سمنت حمام العليل الذي يعود الى الخمسينيات بطاقة إنتاجية ربع طن أيام زمان واليوم 250 ألف طن في السنة ونتكلم عن7 مليون طن للأفران. انه يطلب إعادة تأهيله. أما الموصل (بادوش سابقا) فهو من ضمن المشاريع أيضا. ونرى أن ملفات المشاريع التي قدمت لإعادة التأهيل كثيرة ومتنوعة. وهذا يقود الى الاستنتاج الآتي: حتى الخطوات التي كنا نتمنى أن تصير لم تعتمد على أسس صحيحة. ولحد هذا اليوم فالذي نجح مشروعان: مشروع سمنت كربلاء، ومشروع أسمدة بيجي للأسمدة النتروجينية، ولم يوفق غيرها. أود الرجوع الى معمل سمت طاسلوجة ولاحظوا تأثيرات إعادة تأهيل مشاريعنا ما هي؟ كان معمل سمنت طاسلوجة ينتج بطاقة متدنية مثلما ذكرت ذلك، والآن ينتج 3400 طن لكل فرن . فعندما رأى المستثمر المحلي أن هذا النشاط مجد فماذا حدث؟ حدثت ثورة في

صناعة الاسمنت في المنطقة، حيث انشىء معمل سمنت بازيان بطاقة يومية قدرها 7000 طن قابلة للزيادة والتوسع الى 7000 أخرى. كما انشىء معمل سمنت احمد إسماعيل (ماس) بطاقة حالية قدرها 5000 طن وبدا بـ 5000 طن أخرى، كما منح معملان آخرين إجازة. يعني عملية التأهيل هي ليست فقط تأهيل الميت وإنما إحياء نشاط وتحقق تراكم، حيث أن عملية التأهيل هي ليست عملية إنقاذ رأسمال مستثمر، فالقطاع الحكومي، تشكيلاتنا في العصور المختلفة من نشوء الدولة العراقية الحديثة ولحد اليوم قد أنفقت على الاستثمار البشري وتأهيله مبالغ أكثر بكثير من الإنفاق الرأسمالي على المكائن، وحكمها حكم الطيارة التي نشتريها بنصف مليون دولار مثلا ولكننا نصرف على الطيار مليوني دولار في سبيل أن يقودها.

نحن اليوم دمرنا هؤلاء وحولناهم الى أناس لا يعرفون كيف يأكلون. نعطيه 150 ألف 250 – ألف دينار فلا تشبعه ولا تحرره، وعبر السنوات السبع الماضية حتى معلوماته التقنية تقادمت.

نحن نريد حلولا فورية ويعيها المسؤول في القطاع الصناعي. وما هي الخطوات الواجب اتخاذها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؟ فنحن لا نريد معامل غير مجدية. من الملفات السابقة التي راجعتها هناك مثلا الصناعات الكهربائية في الوزيرية، في زماننا هذه ليست صناعة، أصلا الأرض الموجودة في تلك المنطقة إذا كان يسعى لكسب المال فقيمتها أكثر بكثير مما يمكن أن يفكر به كعائد على مدار50 سنة مقبلة. فهذه ليست صناعة، هذه المفروض أن تشطب. وأول عملية يجب القيام بها هو أن نجلب ناسا فالوزارة مليئة بقدرات وإمكانات ولديها أناس متخصصون وأصحاب خبرة، فقط أعطوهم الحرية والصلاحية اللازمة. وحسب معلوماتي فان مدير عام لا يستطيع مثلا أن يمنح إجازة 15 يوما فهذا غير ممكن. أتمنى أن لا يقال أن75 مشروعا تحتاج الى 250، وإنما لنقل أن هناك 10 مشاريع أو15 مشروعا او20، وهذه تحتاج الى كلف استثمارية وبعد ذلك يحدد ما هي سياسة الدولة. نحن الآن لا اقتصاد دولة ولا اقتصاد حر، هناك صناعات إستراتيجية يجب أن تبقى تحت مظلة الدولة من الآن والى الأبد، من الآن ولفترة مقبلة وفق تصورات ولكن يجب أن ترسم هذه التصورات. الصناعة الاستخراجية المبنية على مكنونات الأرض وما تعطيه هذه تختلف، ويمكن على المستوى المركزي يوجد احتمال أن تعطيها الدولة للأجنبي أو للمحلي، يجب أن تحدد كبريت المشراق، فهو و للسنة الثامنة متوقف عن العمل علما انه يعود الى التسعينيات. فهذا المشروع من التسعين والى اليوم لا نستطيع أن نجد حلا له، والآن تم منحه 93 مليار دينار لإعادة تأهيله، علما أن المشروع يحتاج الى 230 مليون لإعادة تأهيل القديم وليس الجديد. وهناك مشاكل سياسية، لا بد من حلها حتى يستطيع الصناعي أن يعمل.

لهذا أتمنى أن ينصب حوارنا، بالإضافة الى الإستراتيجية الواجب رسمها ونقلها الى الوزارة، على القضايا الآنية وبشكل مستعجل ومساعدة الوزير على إيجاد السبل الناجعة لحل مشكلة القطاع الصناعي لان الزمن يسير بسرعة أعلى بكثير من السرعة التي نعتمدها وبالتالي تعاظم الفجوة بين ما يحدث في هذا القطاع وبين ما يجري

في العالم **واستنتاجي** هو التالي: **رسم لهذا القطاع أن يموت!**

د. سلام سميسم
خبيرة اقتصادية

يسعدني بان أكون ضمن هذا الجمع الطيب من الخبراء الذين ستكون لهم آراؤهم المتخصصة لأنني أولا اقتصادية ولست صناعية ولكنني انظر للأمر من زاوية البرامج الاقتصادية. في اعتقادي المتواضع أن ما أكدت علية الورقة وما تفضل به الأستاذ رائد فهمي ومن خلال أحاديث السادة الخبراء، اتفق معهم ولكن لأضعه في تسمية اقتصادية. نحن لدينا مشكلة في تحديد دور الدولة، ومشكلة تحديد دور الدولة ورسم البرامج الاقتصادية يتعلق بقضية أساسية أصلا هي قضية أيدلوجية في فهم دور الدولة والتعامل به. فالأصل انه ليس لدينا برنامج اقتصادي، فالدستور الذي وضع وصوتنا عليه اقر بإستراتيجية اقتصادية معينة، هي إستراتيجية الانتقال الى اقتصاد السوق، لكن ما نراه في الواقع من برامج موجودة هي ليست اقتصاد السوق وهي بالحقيقة عن جهل بالمفهوم للمصطلح يعتقدونه اشتراكية وهي ليست اشتراكية لان الملكية وإدارة المشاريع واتخاذ القرار الحاصل هو باسم الدولة ولكنه ليس للدولة وإنما لأفراد.

ونتيجة لذلك هو تمركز لسلطات وثروات ستعود بالنتيجة إذا لم تتحول الى مكاسب لفئة معينة تتحول لدينا طبقة جديدة من أصحاب النفوذ الذين يسيرون الاقتصاد العراقي. وبالتالي فهذه الضبابية وهذه الفوضى الاقتصادية الموجودة هي بسبب انعدام التوافق بين الإستراتيجية المقرة بالدستور وبين الرؤية الحالية الموجودة في البرنامج الاقتصادي، وهذا واضح في كل القرارات، وقد تفضل الأساتذة الخبراء بالإشارة إليها.

إن العلاقة بين الدولة والقطاع الخاص وبين الدولة والقطاعات الاقتصادية عموما غير مفهومة، ونحن نتكلم الآن بغض النظر عن الانتماءات السياسية والاتجاهات الفكرية وكلنا نريد دور للدولة، فلماذا الدولة؟ لان الدولة هي قائد، والدولة لها صفة الإلزام، والدولة هي التي تقود عملية التشريع. نحن لا نتكلم عن حجم مساهمتها الاقتصادية وإنما عن عملية صنع القرار الاقتصادي بشكل عام والصناعي بشكل خاص وتوجيهه، فالأمر يتعلق بمن يحدد هذه المنشآت التي ذكرتموها، وكيف ستتجه؟ ومن يحدد طبيعة العلاقة الاستراتيجية التي يجب أن تنشأ بين الدولة والقطاع الخاص، وما هو حجم القطاع الخاص وما هي التسهيلات التي تمنح له، وما هو شكل المستثمر الخاص القادم؟ هل هو مستثمر عراقي أم أجنبي؟ وكيف هي سلسلة القوانين وحزمة القوانين الداعمة أو الساندة لهذه العملية؟

هذه كلها متوقفة على دور الدولة.

لكن إذا كانت الدولة هي نفسها لا تعرف، ولا يوجد لديها برنامج اقتصادي مما سينعكس على المجال التنفيذي. وفي المجال التنفيذي فان السيد رئيس الوزراء من كتلة والوزراء الباقين من كتل أخرى حيث أن لديهم رؤى مختلفة وهذه قضية جدا مهمة وبالتالي فان الإستراتيجيات عندنا مفقودة، لان الرؤية الاقتصادية أصلا غير موجودة وبالتالي نحن نفتقر الى مسألة التشريع. وهذا التشريع هو خطر لأنه هو الذي ينزل الى مفاصل الحياة التنفيذية بكل تفاصيلها.

القضية الأخرى هي **مسألة الخصخصة**، فالموقف منها غير مفهوم، وسبق وان قلت بان الذهنية العراقية تحتفظ بداخلها بالتجربة السيئة للخصخصة التي صارت في عام 1987 والتي اسمها فقط الخصخصة ولكنها في حقيقة الأمر هي نقل ملكية هذه المنشآت من الدولة الى الناس الذين كانوا في السلطة آنذاك أو مقربين من العائلة المالكة، وملكوا لحصص واسهم من هذه الشركات وللان موجودة والتي تتحول الى أشكال أخرى من الملكية. فإذن كان هناك بيع عشوائي لهذه المنشآت وكل الأشياء هي خاطئة وليست لدينا رؤية واقعية منطقية وعلمية لعملية الخصخصة. وأنا كاقتصادية لو سئلت عن رأيي، فاني أفضل أن تقرا عملية الخصخصة بعملية الاستثمار غير المباشر. نحن نعلم بان هناك استثمار مباشر واستثمار غير مباشر والذي يأتي عن طريق الأوراق المالية والتي اعملها حصصاً واطرحها للبيع. ليس لدينا سياسة اقتصادية، فلو قرن هذا الشيء بقضية الاستثمار غير المباشر لامكن إنعاش الكثير من القطاعات ذات العلاقة سيما وان الاقتصاد ليس كل قطاع هو حلقة واحدة منفصل عن ذاته وإنما هي سلسلة علاقات قطاعية مرتبطة مع بعضها البعض ويمكن أن تؤدي الى إحياء الدورة الاقتصادية وإنعاشها والى تطويرها. أما بالنسبة الى دراسات الجدوى فلا أتصور أي احد يختلف حول أهمية دراسات الجدوى الاقتصادية لإنشاء أي مشروع. هناك مسالة مهمة، معايير التقييم تختلف ومعايير التقييم هي الشيء المهم جدا. فعندما أقيم المشروع على اعتبار تجاري بحت، اقتصادي بحت، الربح والخسارة يتحددان على ضوء ماذا؟ على ضوء الاستخدام الأمثل للموارد؟ على ضوء تشغيل اكبر عدد من اليد العاملة؟ على ضوء تحقيق ربحية فقط؟ على ضوء أن اكتسح ساحة؟ على ضوء إغراق السوق بالمنتوج؟ إذا هذا يوضع على ضوء الهدف الموضوع للمشروع أصلا، ولا أريد أن أكون متشائمة، ولكن حتى هذه الرؤية والمعايير ليست موجودة. وبسبب انعدام الرؤية فليس من المستغرب أن تموت الصناعة وتموت الزراعة ويموت كل شيء. ولحد الآن لم يتحقق شيئا للاقتصاد ولكن في الحد الأدنى هناك بادرة أمل عندما ذكر د.حمودي انه من الممكن للمستثمرين الأجانب أن يأتوا ويقيموا علاقات مزاوجة مع القطاع الخاص العراقي أو القطاع العام العراقي في سبيل إنجاح مشروع الصناعة. ولكن أعود وأقول أنها مشكلة إيديولوجية ترفض صانع القرار لأنه لا يعرف كيف يطبق إستراتيجية الدستور والتحول الى البرنامج الاقتصادي واعتقد أن الأدلة كثيرة وأهمها أدلة إقرار الموازنة وتوجيه التخصيصات وتوجيه القطاعات الاقتصادية.

الصناعي الأستاذ

هاشم ذنون الأطرقجي:

أريد التكلم عن القطاع الخاص، فالنقاش واسع والمطالب كثيرة والمحور الوارد في ورقة العمل يتعلق بالقطاع العام والقطاع المختلط والخاص. ومن خلال تجربتنا الصناعية فاني أرى أن الأساس هو البنى التحتية لتحريك القطاع الخاص هذا ما يجب أن تبادر الدولة لتحريك الصناعات الصغيرة والمتوسطة والحرفية، حيث تعتبر الأساس الذي يجب أن تبنى عليه الدراسة المستقبلية للصناعة. يأتي بعده القطاع المختلط، والقطاع الحكومي، وهذه من الممكن أن تكون

بمرحلة لاحقة. أما الآن فصناعة القطاع الخاص متوقفة، والقطاع الخاص يحتاج الى مسالة واحدة بالأساس وهي الكهرباء لكي تعمل المعامل، وعندما تعمل معامل القطاع الخاص سيتبين مدى قابليته للمنافسة والتطور، هذا هو المقياس الحقيقي للصناعة . حاليا يستثمر مستثمرونا أموالهم في الخارج، في لندن وسوريا والأردن وغيرها. السومريون قالوا قبل 3500 سنة أن رأس المال هو كالطائر يحط في المكان الأمن، فالصناعي والمستثمر لا يجلب أمواله ويرميها في العراق إذا لم يربح، لان الربح هو أساس التطور. لدي دراسات عن القطاع المختلط في العراق وكم لحقت به من أضرار، فمثلا كان يحتاج بين 40 و50 مليون دولار لبدء الحركة من 2006 ولحد الآن.

بالنسبة لنا نحن الصناعيين في القطاع الخاص والمختلط والتعاوني واتحاد الصناعات نحن نرى أن الخطوة الأساسية هي الكهرباء وهذه توجد بها دراسة من 2006 تستهدف تشغيل المناطق الصناعية ببغداد وتجهيزها بمولدات لتوليد الطاقة. وقد طلبت وزارة الكهرباء تحديد عدد المناطق الصناعية في بغداد وكل منطقة وما هي احتياجاتها.

وقد حددنا شارع الشيخ عمر الأول والثاني والعبيدي وبوب الشام، إلا انه عندما وصلت الدراسة للسيد الوزير اعتذر لأنه تحتاج كلها الى186 ميكا بسبب الظروف الموجودة، وقد اتصلنا به وبينا بان هناك حلولا أخرى كتوزيع المولدات لكل منطقة والتي تحتاج الى 5 ميكا نجلب مولدات 6 أو 7 ميكا وقد أيد الوزير المقترح ولكنه بيّن عدم توفر الأموال اللازمة لمثل هذا المشروع الصناعي، يحتاج الكهرباء وكثير منهم لا يحتاجون القروض فصناعة الدباغة والجلود وغيرها لا تحتاج التمويل.

د.خلدون البصام: مدير عام المسح الجيولوجي والتحري المعدني في وزارة الصناعة :

اتفق مع نقطة قاتلة إلا وهي انعدام الرؤية حيث لا توجد رؤية ولا توجد إستراتيجية ولا نعرف ما هي طبيعة الاقتصاد في هذه الدولة من عام2003 والى الآن. نعم الدستور يقول اقتصاد السوق لكن الممارسة هي سيطرة الدولة الكاملة 100% بما في ذلك التربية، الممارسة والتربية والثقافة لدى صاحب القرار. وإذا تجاوزنا نظرية المؤامرة التي تقول ان هذا القرار محسوم سلفا، واتفق مع الأستاذ فيصل بشأنها ولكن لنتجاوز ذلك، لا توجد نظرية مؤامرة لأنه بيدنا صنع القرار.لنتفق على الحد الأدنى، انه تقليل الاعتماد على الاقتصاد الريعي المعتمد على تصدير النفط الخام وزيادة الاعتماد على الصناعة الوطنية بكافة أشكالها نفطية كانت أو استخراجية أو زراعية أو التي تعتمد الموارد الأولية المحلية. هذا مبدأ لنضعه نصب أعيننا ونعمل على تحقيقه100%.

الذي يحدث هو الآن تحويل العراق الى منتج للمواد الأولية وليس مصنعا، يعني بيع النفط الخام وبيع الفوسفات الخام والكبريت الخام وما شابه ذلك. وهذا هو أسوأ أنواع الاقتصاد في كل مكان، فهو لا يحرك شيئا ولا ينمي ثقافة ولا يصنع مجتمعا فهذا من الممكن طرحه كشعار (تغيير بنية الاقتصاد الريعية) نعمل على تحقيقه. إن 95% أو 98%من الاقتصاد العراقي مبني على تصدير النفط الخام وهذا عرضة الى تقلبات السوق اليوم، وهذا ليس اقتصاد. وللعلم نضيف أن هكذا اقتصاد مبني على النفط

يصدر الى الخارج فيأتي دولار اسمه دولار نفطي فيعاد للخارج من خلال استيراد المواد الاستهلاكية، وهذا تحصيل حاصل. فما يحصل هو دورة، نحن محطة تستنفذ مواردها الأولية.. وعمليا لا يوجد تعظيم للقيمة ولا للفائدة المتحققة. هناك ناس يأخذون رواتب بدون إنتاج حقيقي.

اتفق مع ما قيل بان هناك انعداما للرؤية. نعم، لا توجد إستراتيجية وطنية، لا توجد إستراتيجية في كل الحكومات التي جاءت الى الحكم من 2003 والى الآن ولا توجد رؤية. أنا أتكلم عن موضوع اختصاصي، لكي نسد جانبا لم يتم التطرق إليه، فانا جيولوجي ومعني بالثروة المعدنية. وللعلم، العراق بلد نفطي، نعم فهو يمتلك ثاني أو ثالث احتياطي نفطي في العالم ولكن كثير من الناس، بما فيهم أصحاب القرار في أعلى المراتب في الدولة، لا يعرفون أن العراق بلد معدني فيه ثروات معدنية غير النفط فهو يمتلك الاحتياطي الأول في العالم من الكبريت، والاحتياطي الثاني في العالم من الفوسفات إضافة الى مصادر متنوعة في غاية الجودة كمواصفات وبغاية السهولة كعمليات استخراجي من أطيان سيراميك، رمال سيلكا، أطيان بنتونايت، رمال ثقيلة، خامات فلزية رصاص وخارصين ونحاس ...الخ. الدولة السابقة صرفت الكثير من الأموال على الاستكشاف والتنقيب وأثمرت هذه من خلال الشركات الانكليزية قبل 1958 ومن خلال الشركات السوفيتية بعد 1958 ومن1965 اعتمدت على الملاكات الوطنية العراقية 100% وأثرت على تحديد احتياطات تسمح للصناعة التعدينية أن تكون رافدا أساسيا بجانب النفط في دعم الاقتصاد العراقي. ولا اقصد التعدين هنا الاستخراج فقط، بل هي عمليات هائلة من الصناعة مثل النفط يعني أن تستخرج الشيء مثل الفوسفات زائدا الكبريت ينتج أسمدة فوسفاتية. العراق بلد زراعي ومن هذا الكثير. من عام2003 والى الآن، طبعا الدولة السابقة لم تستثمر كثيرا في التصنيع، استثمرت في الاستكشاف والتنقيب ثم توقفت. لقد بلغ احتياطي الفوسفات10 مليارات طن والمنجم الوحيد الذي كان ينتج والآن متوقف من 2003 هو منجم عكاشات ينتج 3 ملايين طن لم ينتجها في أحسن حالاته في السنة فأين نحن من هذا الاحتياطي؟ كبريت المشراق متوقف أيضا. الآن احتياطي الكبريت في منطقة الموصل حوالي مليار طن، القابل للاستخراج منه حوالي 600- 700 مليون طن. منجم كبريت المشراق في أحسن حالاته وطاقته التصميمية مليون طن في السنة، فأين نحن من هذا؟ إذا تخلفت تلك الدولة وهذه الدولة توقفت 100% عن أن تصنع أي مشروع لصناعة تعدينية متكاملة وتنتج في النهاية مواد تجارية قابلة لسد الحاجة المحلية، ومهما كانت الرؤى ومهما كانت الأفكار السياسية لنفترض أنها وطنية ونابعة من حرص. موضوع تقليل الاعتماد على الاقتصاد الريعي هذا لابد منه، والاتجاه الى أن نعمل شيئا في النفط ونعمل شيئا في الفوسفات ونعمل شيئا في الكبريت لننتج إذن سيشغل عمالة.

موضوع الصناعة الآن هي ليست وزارة الصناعة أتمنى أن يكون المعنى أوسع من هذا. فهذه الوزارة هي جزء من شيء اكبر من هذا بكثير، ولكن إذا تكلمنا عن معامل وزارة الصناعة نعم تتراوح بين ارض وبشر يأخذ الراتب لأنها شركات مسحت بالكامل

وبين شركات بالكاد تدبر حالها مثل شركات الاسمنت وهي معدودة على أصابع اليد، لا تتجاوز العشر شركات تستطيع أن تدفع رواتب منتسبيها وربما لا تحقق ربحا يعني لا تقترض من البنك. البقية تقترض من البنك وليس من وزارة المالية وأرجو أن يكون هذا واضحا. فالاقتراض من المصرف هو ليس سلفة من وزارة المالية فمصرف الرافدين يضم أموال الناس فربما غدا أو بعده يطالب المصرف بهذه الأموال. رواتب عالية، منتسبون أكثر من اللازم أعيدوا بطريقة أو بأخرى، غير منتجين. واعتقد أن الصناعة بهذا الوضع متجهة الى كارثة محتومة 100%. وبهذا الأسلوب لا تستطيع أي شركة في وزارة الصناعة أن تمول حالها بالكامل، وحتى شركات الاسمنت التي كان حيز أرباحها أعلى الآن تضاءل الى شيء بسيط. هناك منافسة هائلة قادمة من كردستان ومن غيرها ولا يمكن لمدير عام ليست لديه صلاحيات أن يفعل شيئا. علينا أيضا المقارنة بين حكومة كردستان وحكومة بغداد وملاحظة الفرق في التوجه والرغبة، أليس هو كله عراق؟ فإذا لماذا هؤلاء الناس أعطوا المجال والحرية وفي النهاية استفادوا. ولماذا لا نستطيع نحن أن نعمل مثلما فعلوا؟ هذه أسئلة يجدر الإجابة عليها.هل نحن بلد رأسمالي أم اشتراكي؟ واعتقد لا أحد يستطيع الإجابة ولكن هناك من يعمل 100% على إبقاء العراق بلداً منتجاً للمواد الخام ومستهلكاً للمواد الاستهلاكية.

الأستاذ رائد فهمي:

من الواضح أن بعض التوصيات هي التي تفرض نفسها. أولا، كما قال الأستاذ فيصل، وزارة الصناعة قدمت مجموعة من الملفات ولكنها قد لا تصلح كلها وهناك أولويات. فإذن يمكن توصية أولى القيام بجرد، فهل هناك جرد حقيقي للمشاريع التي ينبغي تأهيلها. أولا هل لدينا صورة واضحة عن مثل هذه المشاريع؟ وإذا كان لدينا مثل هذا الجرد فهذا شيء جيد وإذا لم يوجد فليصار له واعتقد أن هذه نقطة هامة. وثانيا ما تفضل به الأستاذ هاشم في موضوع إعادة تأهيل المناطق الصناعية، أتذكر أننا قبل أربع سنوات تكلمنا عن هذا الموضوع مع وزير الصناعة وكان المطروح عندها هو إعادة تأهيل مناطق الصناعة والمسألة ليست تعجيزية حيث من الممكن أن توضع ضمن الأولويات. وثالثا وكما تفضل به الأستاذ حمودي حول إمكانية إعطاء جزء من معمل وليس كله، أريد أن اسأل الهيئة الوطنية للاستثمار عن دورها في الترويج لعملية الاستثمار؟ وهل تقوم بدورها أم لا؟ وهل توفر المعلومة؟

النقطة الرابعة أن تتولى وزارة المالية مسؤولية العمالة وان يصار إلى إنشاء صندوق وطني. كل هذه المسائل مثارة، ولكن الفرق أننا لم نركز عليها. اليوم مطالبون في الصناعة تحديد الخطوات الواجب إتباعها، فالأولويات هي التي تفرض على صانع القرار الذي هو مأخوذ ومشتت إلى جانب تركيبة الحكومة والتقاطعات ..الخ غير قادر على بلورة الرؤية.

المهندس علي حسين الفتال

نحن الآن نرمي العبء كله على وزارة الصناعة، ولكن هناك دوائر التخطيط القطاعية أيضا لها مسؤولية من بينها قطاع التخطيط الصناعي ضمن وزارة التخطيط على الأقل معني في متابعة المشاريع

الصناعية وإعادة تأهيل بعض المصانع وكذلك له دور في إحالة بعض المصانع غير المجدية والتي لا تعتبر مشاريع صناعية بعد الآن، وتخطيط نقل القوى العاملة للموجودين بهذه المصانع إلى أماكن أخرى. بالإضافة إلى أننا اليوم، وليس مثل السابق، قد انفتحنا على عالم العولمة والانترنت. يوجد لدينا كفاءات في البلد يمكن أن يتفاوضوا مع الشركات المقاولة ويضمنوا حقوقهم وممكن الذهاب إلى مجال إعادة التنمية عن طريق (UNP) وان لا نذهب إليهم بصورة مباشرة وممكن الذهاب إليهم كاستشاريين لاختيار الاستشاري في مجال التنمية، وهؤلاء يقومون بها كجزء من عملهم. ونستطيع – كحكومة عراقية أو كموظفين في الحكومة العراقية – محاسبتهم إذا تم إعطاؤنا أية استشارة أدت الى الخسارة بدل الربح حيث أن مثل هذه الأعمال تؤثر على سمعة المنظمة، ولذلك فإنهم يحاولون الابتعاد عن هذه المسائل. الأستاذ الفاضل الاطرقجي تكلم عن المولدات الخاصة، ولا يخفى على الجميع أننا نستورد 60% من احتياجاتنا من المنتوجات من الخارج وهذه المولدات كلها تحتاج الى (كاز) والذي نستورده في الوقت الحاضر، ولكن في الوقت نفسه نحرق 1.2 مليار قدم مكعب باليوم من الغاز وليس الكازاويل. وهذا يعني أننا – وعن سابق إصرار – نقوم بحرق هذه الأموال (الخامات) يوميا بدلا من استثمارها في مجال توليد الطاقة الكهربائية. نستورد كازاويل في حين توجد الإمكانية لإنتاجه إذا قمنا بإعادة تأهيل للمصافي الوطنية. هذا يغطي النقطة التي ذكرها الأستاذ يحيى عن فصل النشاط البتروكيمياوي وتشكيل وزارة خاصة به وحجز نسبة 10% من أرباح النفط. أستاذي العزيز.. مصافينا الوطنية ليس لديها 10% من أرباح النفط، وحاليا ومن خلال دراسات خاصة نحن نخسر وهذه الخسارة غير واضحة. أعطيكم مؤشرا بسيطا: عندما لا ننتج وفقا للخطة المتوقعة من شركات الائتلاف التي ائتلفنا معها كوزارة نفط في جولات العقود والتراخيص فإننا نخسر 150 مليون دولار عن كل يوم. وحاليا جولات العقود والتراخيص بنيت على أساس انه يتم الاشتراك مابين كوادر وزارة النفط وكوادر الشركات المؤتلفة، وهذه الهيئات المشتركة تعمل عمل صانع القرار بهذه الحقول حاليا، وبسبب زج ذوات معدومي الكفاءة أو أصحاب أجندات معينة في هذه الهيئات المشتركة يصار الى عرقلة عمل هذه الهيئات. وهناك عدة أسباب بعضها يعود الى قلة الخبرة وقلة الكفاءة، وبعض الناس هدفهم الحصول على الإيفادات من خلال عرقلة العمل كوسيلة للضغط والحصول على الإيفاد، رغم أن هذه الإيفادات تكلف الدولة كثيرا. المهم أننا متعاقدون مع الشركات على سبيل المثال لا الحصر(برتش بتروليوم) أو BB متعاقدون معها على حقل الرميلة والتي يجب أن تصل الى البلاتو في وقت معين وإذا لم تصل الى هذا الحد ونجاحها في ذلك ونسألهم عن السبب في ذلك، سيقولون لنا بان جماعتكم قد عرقلوا عملنا ويطالبوننا بمبالغ بسبب الخسارة. إن كل يوم لهذه الشركة في حقل الرميلة لا يتم في الإنتاج نخسر 150 مليون دولار ومن الممكن أن يطالبوننا بها كتعويض، وهذا يعطينا بعدا آخر.

نعود للنقطة نفسها عن فصل النشاط البتروكيمياوي وكما تعرفون أن النشاط البتروكيمياوي نوعان: مثل بتروكيمياويات

البصرة، إنتاج مواد اللدائن في النهاية وهذه يكون اعتمادها على الغاز وحاليا لدينا مشكلة في كيفية التعامل مع الغاز الفائض. غير أن وزارة النفط حاليا لا تعطي الغاز الى البتر وكيمياويات حتى يعمل. النوع الثاني من البتروكيمياويات هي صناعة المنظفات مثلما موجود في الشركة العربية للمنظفات وهذا يعتمد على مادة الـ C4 والتي هي الفائض من المادة الأساسية للبنزين، وهذه لا تتكون الأبعد عملية جدا معقدة ومع ذلك فان نفطنا غني وما يخرج طبيعي من النفط كانوا يستخدمونه في هذا المجال من الصناعات. مؤخرا عندما حدث الاعتداء الإرهابي على مصفى بيجي مع الأسف، والذي كان مخططا له حيث استهدفت الأفران فقط والتي تمثل القلب لكل وحدة من وحدات المصفى والذي يعمل هذا الشيء غير جاهل، بعد هذا الاعتداء سنرى اندثار لصناعة المنظفات في بيجي. يقولون أن المصفى يعمل، طبعا انه يعمل حاله حال مصفى النجف والسماوة، وحيث أنني كمهندس مصافي لا أسميه مصفى لان هذا يسمى عمليات قشط فقط، يعني فقط يأخذون قشطة النفط والباقي يرمى للخارج وهذه كلها خسارة.

أما بالنسبة للخصخصة فوجهة نظري الشخصية انه من المفروض أن يصار منذ البداية الى الخصخصة في منافذ التوزيع والتسويق وبعد نجاحها يمكن التوسع بها لان هذه يمكن أن تجلب مردودا، وحس التعامل بها واضح ومسؤولية الدولة واضحة ومسؤولية القطاع الخاص واضحة.

أما بالنسبة لفقرة تأمين علاقة مناسبة بين التنمية الصناعية والزراعية، بصراحة أقول أن الأمر لا يتعلق بالتنمية الصناعية والزراعية فقط بل بكل مرافق الدولة، فهناك غياب للتنسيق بين كل مفاصل الدولة. في دائرة واحدة، بين مكتب وآخر لا يوجد تنسيق، في شركة واحدة بين قطاع وآخر لا يوجد تنسيق بينهم. فمشكلة التنسيق مشكلة حقيقية في أروقة مواقع اتخاذ القرار، في البنية الصناعية للبلد، لذا يجب أن يصار الى حل. والمعروف أن اكبر فجوة تنسيق بالدولة العراقية هي فجوة التنسيق مابين وزارتي النفط والكهرباء وسبق وان حاولنا معالجة هذه المسالة باستحداث شعبة لخلية اندماج الطاقة وبدأنا نعمل بهذا الاتجاه ولكن اتضح فيما بعد مع الأسف أننا نغرد خارج السرب، وصار هذا المشروع الفتي ضمن الإدراج. لكن رأينا أن اعقد المشاكل يمكن أن تحل بالتنسيق المناسب مع جهة عليا والتي ممكن أن تسند قرار الجهة التنسيقية.

أما بالنسبة الى فتح مراكز التدريب والتأهيل والمعاهد الفنية في البلاد فهذا نحن بأمس الحاجة إليه لكن يجب أن يصار الى خطة رئيسة للتطوير وتتم دراسة احتياجاتنا الحقيقية للتدريب في كل منشأه وفي كل قطاع، وبعد ذلك تمرر هذه الاحتياجات إلينا وتقوم منظمات المجتمع المدني والقطاع الخاص وحتى الجهات الأجنبية بالتعاون مع منشآت الدولة لتنفيذ هذه البرامج التدريبية وفق برنامج زمني لضمان الاستفادة من الكوادر. كما نؤكد على ضرورة إعطاء الصلاحيات المناسبة لإدارة الشركات العامة وبدون روتين وأنا مع هذا القرار بشرط وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

كما أرى في القطاع النفطي الذي اعمل فيه أن معظم أصحاب القرار هم ليسوا بأصحاب قرار. لذا اقترح التوصيات الآتية :

•التنسيق.
•تشكيل إدارة عليا للتنمية.
•عمل منظومة لإعادة التأهيل والتدريب للكوادر.وهناك إمكانية تمرير الرؤى الى مصادر القرار.

د.مؤيد كاصد : مدير عام شركة ابن سينا العامة للصناعات الكيميائية ومعالجة المياه :

كانت الشركة سابقا في موقع الطاقة الذرية العراقية والحقيقة أن الموضوع استراتيجي وخطير ولذلك أؤكد على أن يصار الى مؤتمر وطني تطرح أوراق عن جميع المفاصل المعنية:الصناعة، النفط، الزراعة ، الكهرباء، فليس الصناعة وحدها المسؤولة عن تدهور الصناعة في العراق وإنما بدأ من مراحل التعليم الابتدائي.

فالعملية متكاملة وليست منقطعة نهائيا بل ليست منقطعة حتى بالمراحل السياسية التي مر بها شعبنا العراقي.

اقترح في مجال التوصيات أن يصار الى مؤتمر وطني وهناك أوراق عديدة مع ضرورة تحديد الاولويات الملحة على المدى القريب والمتوسط والبعيد الاستراتيجي. وبنفس الوقت يجب مراعاة واقع الحال بكل وزارة واخذ الحيثيات كاملة من خلال الأوراق وربما اقترح إنشاء لجنة عليا للتهيئة لهذا المؤتمر.

النقطة الأخرى وكرجل أكاديمي انتميت للصناعة في عام2003، وفي الثمانينات كانت بدايتنا أكاديمية ثم دخلنا مراحل الطاقة الذرية الأكاديمية ثم التصنيع العسكري والصناعة وأنا الآن أمامكم مدير عام منذ2005، اطرح التجربة المتواضعة لشركتنا وربما يمكن أن تكون مثالاً بسيطاً للاستفادة منه للتنسيق وتجاوز "الوادي الميت" الذي يسمى دائما والذي هو بين الأكاديميين بين مراكز البحوث وبين الصناعة، فالتنسيق مهم.

شركتنا في بدايتها وضعت أهدافا، ما المطلوب من مراكز أبحاث الصناعات الكيميائية؟ من المعروف أن الصناعات الكيميائية هي صناعات عضوية من ضمنها الصناعات النفطية، اللاعضوية ومن ضمنها صناعات الدباغة وغيرها..الصناعات الكهروكيميائية والصناعات السليكونية وسوف لن ادخل بصناعة الأدوية لأنها ليست من اختصاصنا.

العراق يستورد 2 مليار دولار مواد كيمياوية. الأخوان دائما يتكلمون عن الصناعات البتروكيمياوية، اللدائن والأمور الأخرى، لكن علينا أن نتذكر انه هذه ليست هي الصناعة الأكبر. فالصناعة الأكبر هي أن العراق يستورد 2 مليار دولار مواد كيميائية للصناعات النفطية، للكهرباء وتشغيل التوربين وغيرها والمضافات الى الزيوت والمحسنات ..و.. و.. ومئات المواد لا تعد ولا تحصى. وهذه غير منظورة والصناعيين لم ينتبهوا لها بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر. وقد وضعت شركتنا أمامها هذه الأهداف وتم افتتاح أول مصنع في 2010/2/28 لإنتاج المواد الكيميائية المضافة للمياه الصناعية. وقد ولا تتوقعون كم يستورد العراق من هذه المواد وهذه حكر على كم شركة في العالم. والآن الشركة بدأت تنتج وبدأت تنافس.

لقد أسسنا والتأسيس ليس نهائيا ونحن نتفاعل مع الجامعات ومع القطاع الخاص. واحدة من المواد الكيمياوية تستورد منها وزارة النفط تستورد ربع مليار دولار سنويا، كما أن وزارة الكهرباء تستورد ليس اقل من

هذا الرقم. في تجربتنا اعتمدنا العالم والمهندس والفني والاقتصادي وصارت لدينا معرفة في هذا المجال، كي نساهم في ملء "الجزء الميت" بين الجامعات والصناعة.

التجربة الأخرى أننا حصلنا على مبلغ من وزارة الصناعة لبناء مصنع لإنتاج المواد السليكونية ويشرفني التعاون مع حضراتكم لإنتاج خراطيش السليكون.

وكما تعرفون فان العراق يستورد 20 مليون خرطوشة أو انبولة السليكون بأنواعه. هذا جهد أكاديمي دخل به العالم والمهندس وكذلك الآخرون.

وقد حوكمنا تقريبا صناعة السليكون، بدأنا من المتوسط وإذا وفقنا فسيكون الافتتاح في الشهر السابع أو الثامن من هذا العام. هذا المشروع ربما يتهيب القطاع الخاص الدخول به حيث يتجهون إلى المعامل السهلة وذات الأرباح السريعة والمضمونة وان جزء من الدخول للصناعات الكبيرة هو المخاطرة، وهذه المخاطرة غير موجودة لدى القطاع الخاص وليس الكل يتقبله.

كما دخلنا في مفصل آخر ألا وهو الكيميائيات الزراعية. فكما معروف تستورد وزارة الزراعة مواد كيمياوية مختلفة تكلف مئات الملايين من الدولارات سنويا.

لنأخذ مثالاً ما يسمى بالسماد السائل الآن، نحن مقبلون على شحة مياه استقرأنا الحال قبل عشر سنوات أن العراق سوف يكون شحيح المياه وقد هيأنا أنفسنا لهذه المسألة حيث أنتجنا السماد السائل والذي يفيد في المناطق الجافة ومستعدون لطرحه للتسويق. ومن جهة أخرى يجب الاهتمام بالخامات العراقية، وإذا صنعنا النفط فان سعره سيزداد بالنسبة للبرميل الواحد مقارنة مع أسعار النفط الخام.

النقابي عدنان الصفار:

يمثل العمال البعد الآخر للعملية الإنتاجية حيث أن لهم الدور المهم في عملية الإنتاج، ولهذا ينبغي للتشريعات القانونية أن تصب في مصلحة الطبقة العاملة وان يكون لها الدور في عملية إعادة البناء مع ضرورة إعادة تدريب وتأهيل العمال والحاجة إلى قانون للعمل وتوفير فرص العمل وتشغيل وتأهيل المعامل والعمال القادرون على المساهمة في عملية بناء البلد وينبغي أن يكون للدولة موقفا واضحا في هذا المجال.

المهندس احمد عبد الرضا:

هل هناك شكل للاقتصاد العراقي؟ الجواب نعم هناك شكل للاقتصاد العراقي وهو اقتصاد السرقة والسراق. فمن المستفيد من قتل الصناعة والزراعة؟ حيث أن وراء كل جريمة مستفيد، والمستفيد من قتل الصناعة والزراعة هم الليبراليون.

لقد قال البعض بان الحكومات المتعاقبة في العراق بعد 2003 ليست لها إستراتيجية وهذا غير صحيح حيث أن لهذه الحكومات علاقات مع صندوق النقد الدولي، وتحدث احد المشتركين عن تجربته من خلال عمله السابق في وزارة الصناعة متسائلا عن الحكمة في إعادة تأهيل المعامل ومن ثم بيعها للقطاع الخاص.فإذا كان المعمل ينتج فلماذا نبيعه؟

د.عائدة فوزي: أستاذة جامعية:

أكدت في حديثها على ضرورة التنسيق بين الجانب الأكاديمي والعملي، حيث أن 80% من الاستثمار هو استثمار مادي، مؤكدة على أهمية الاستثمار البشري والاستفادة من البحوث العلمية. في قضية

الصناعة ينبغي التركيز على العلاقات الأمامية والخلفية، ثم تطرقت الى الاستيراد لأغراض الاستهلاك وليس الإنتاج مؤكدة على التنسيق بالشكل الصحيح والحاجة الى تخطيط الدولة.

هيئة الاستثمار تقوم بدراسات واستشارات لمشاريع جدوى اقتصادية حقيقية، ويمكن تعزيز رأسمال المصرف الصناعي ودعم المشاريع الصغيرة والمتوسطة ودعم الصناعة.

الصناعي نعمة عبد اللطيف:

لقد أهملت ورقة العمل بعض الجوانب والتي تعتبر نقصا لا يجوز التغاضي عنه ويشمل ما يلي:

1. إن تطوير الصناعة يحتاج الى مناخ ملائم يبدأ أولا بالانفتاح السياسي والتعددية وإنعاش نقابات العمال وإعطائها الدور الأساسي والكامل بحيث يصل الى المشاركة الفاعلة في القرار الاقتصادي مع تفعيل دور اتحاد الصناعات العراقي ورجال الأعمال.
2. تأهيل الأيدي العاملة الماهرة والكوادر الفنية ابتداء من المدارس المتوسطة الصناعية والزراعية والتجارية وفتح المعاهد الفنية في جميع مناطق العراق وتطويرها وجعلها قادرة على الاستجابة لمتطلبات التنمية وسوق العمل وفتح دورات تأهيل وتدريب مستمرة لجميع العاملين وتشجيع الطلبة الموهوبين ورعايتهم بكل السبل الممكنة وتطوير مناهج الجامعات.
3. اختيار الإدارات الكفؤة لجميع المعامل والأقسام ومراقبة نشاطها وتطبيق مبدأ المساءلة مع كل المتهاونين والمقصرين.
4. إنعاش القطاع العام وجعله يؤدي دوره في توفير المواد الأولية للمعامل والصناعات الصغيرة التي أرهقها شراء المواد الأولية التي تحتاجها من السوق السوداء مما دفعها الى رفع أسعار منتجاتها وإرهاق كل المواطنين.
5. التأكيد على جودة المنتوج العراقي وفتح أسواق خارجية له بالتعاون مع السلك الخارجي.
6. حماية المنتجات الوطنية بكل الوسائل الممكنة ومكافحة الاحتكار.
7. التأكيد على إنجاز مشروع تصنيع النفط الخام لأهميته الاقتصادية الكبيرة.
8. دعم وتشجيع المشروعات الصغيرة والمتوسطة بتوفير مناطق صناعية مجهزة بالكهرباء والماء والمجاري والطرق... وبإيجارات مناسبة أو تمليكها بأقساط مناسبة وتوفير الائتمان المصرفي والقروض الطويلة المدى والقليلة الفائدة والمواد الأولية.

الصناعي يحيى الدجيلي:

بين بان المساهمة كانت فاعلة وقد تم تسجيل كل ملاحظة وحصيلة هكذا ندوة سيتم نشر ما يستحق النشر في مجلة (الثقافة الجديدة) وفي جريدة (طريق الشعب) مؤكدا على أهمية وضع الرجل المناسب في المكان المناسب مع منحه الصلاحيات اللازمة.

الأستاذ رائد فهمي:

ثم عقب الأستاذ رائد فهمي مبينا أن للندوة فوائد كبيرة والغرض النهائي أن هذه الأفكار ستشق طريقها. ومن خلال الواقع الصناعي نريد استخلاص أولويات وحلقات نسعى لتنفيذها.

الحكومة فعلا ليس لديها رؤى فالتركيبة الحالية للوزارة لاتسمح بهذه الرؤى الموحدة.والعنصر الجديد هو ضغط الشارع

الذي بدأ يؤثر على تحرك الحكومة. كما يمكن تحديد الأولويات والتحرك عليها. وان ما طرح في الندوة خلاصة لخبرة ونحن نؤيد عقد مؤتمر سواء محدد أو موسع.

الاستنتاجات والتوصيات

وأدناه خلاصة بالاستنتاجات والتوصيات التي توصلت لها الطاولة المستديرة:

شهد القطاع الصناعي تراجعاً متواصلاً ومتزايدا على مدى العقود الثلاثة الأخيرة، وبشكل خاص في تسعينات القرن الماضي وتفاقم بعد 2003. وينعكس هذا التدهور المريع في واقع القطاع الصناعي في الانخفاض المستمر في نسبة مساهمة قطاع الصناعة التحويلية في الناتج المحلي الإجمالي، حيث تراجعت هذه النسبة من 6% عام 1979 إلى 3.8% عام 1990 ومن ثم إلى 1.7% عام 2008.

ويتجلى هذا الانحسار أيضا في دور القطاع الصناعي من خلال واقع أن العديد من الشركات العامة الصناعية لا تزال معطلة، كما أن تلك التي أعيدت إلى العمل تواجه مشاكل كبيرة في تصريف منتجاتها بسبب شدة المنافسة الخارجية وارتفاع تكاليفها الإنتاجية بسبب ارتفاع كلفة تزودها بالطاقة الكهربائية وإثقال بنية تكاليفها برواتب من تمت إعادتهم الى الخدمة، وضعف الإرادة السياسية في إسناد الصناعة وعدم وضوح الرؤية بشأن مستقبل الشركات العامة.

ومن المفارقة أنه رغم التوجه الرسمي للدولة نحو اقتصاد السوق وعن الإعلان المستمر عن ضرورة زيادة دوره وانسحاب الدولة من الأنشطة الإنتاجية لصالحه، فان القطاع الخاص المحلي، ولا سيما الصناعي، يعاني من غياب الدعم وتعطل معظم مشاريعه الصناعية.

وقد تناولت مناقشات ومداخلات الحاضرين جوانب مختلفة من معاناة ومشاكل الصناعة في العراق، مقترحين في الوقت العديد من الحلول والمعالجات ما أمكن التوصل إلى **التوصيات** التالية:

1. **التأكيد على ضرورة وضع إستراتيجية وسياسة صناعية واضحة من قبل الدولة** مع تأمين المساهمة والمشاركة الفاعلة لمثلي القطاع الخاص والعاملين وسائر أطراف العملية الإنتاجية. ولضمان تنفيذ هذه الإستراتيجية والسياسة الصناعية لا بد من جعلها ملزمة وذلك بعرضها على مجلس النواب لتصدر بقانون.
2. **إعطاء الأولوية للصناعات التحويلية وتحقيق الاهتمام المتوازن بين القطاع الزراعي والقطاع الصناعي** بحكم الطبيعة التكاملية بين القطاعين.
3. **ضرورة إجراءات إصلاحات تنظيمية وتشريعية** بهدف خلق بيئة مؤسسية تشجع على تطوير للقطاع الصناعي.
4. **ضرورة رفع نسبة الموارد المخصصة للموازنة الاستثمارية لتتجاوز 30%** والاهتمام بشكل خاص بالقطاعات الصناعية الكثيفة العمالة كقطاع التشييد والبناء.
5. **إعادة النظر بمعايير التقييم لدراسة الجدوى الاقتصادية الواجب إجراؤها مجددا لتقييم واقع المنشات والمشاريع الاقتصادية** وموائمتها مع الأهداف المستقبلية المرجوة للقطاع الصناعي العراقي .

6. **إعطاء الاهتمام الكافي بالصناعة التعدينية كالفوسفات والكبريت** حيث إن العراق يمتلك مواقع متقدمة من الاحتياطي العالمي في هذه المواد ولا تقل أهميتها عن إنتاج البترول.

وفيما يتعلق الأمر بالشركات العامة الصناعية:

1. **الإسراع في حسم وجهة عمل الحكومة بشأن إعادة تأهيل المصانع والشركات التابعة الى وزارة الصناعة** في ضوء الجرد الذي يحدد المصانع القابلة وغير القابلة للتأهيل بحسب حجم الضرر الذي أصابها ووضع خطة لإعادة تأهيلها وحسب الأولوية والأهمية .

2. **إن تقوم الدولة بتوفير التخصيصات اللازمة لخطة عملية إعادة التأهيل المصانع التي تضعها وزارة الصناعة** في ضوء دراسات الجدوى والكفاءة الإنتاجية لهذه المصانع ودورها في الإنتاج الوطني الإجمالي.

3. **أن تعلن الدولة توجهاً واضحاً بشأن مصير شركات القطاع العام**، فخطة إعادة الهيكلة التي جرى اعتمادها مؤخراً اعتبرت تمهيداً لعملية خصخصتها، واعتماد صيغ فعالة للاستثمار المشترك مع الرأسمال الأجنبي لها تحفظ حقوق ومصالح الدولة والعاملين وتوفر حوافز مناسبة للمستثمر الأجنبي.

4. **الاهتمام بتأسيس شركات متخصصة وتطوير القائمة منها**، وخصوصاً في قطاع التشييد والبناء.

5. **أن تقوم الدولة بتحمل رواتب واجور المفصولين السياسيين الذي تم إعادتهم والذين لا تستطيع الشركات العامة استيعابهم في الوقت الراهن من خلال إنشاء صندوق خاص ممول من الموازنة العامة**، وأن يتم أيضا توفير دورات تدريبية لبناء القدرات لرفع مستوى تأهيلهم للتشجيع على الاستفادة من خدماتهم.

6. **تقديم الدعم للقطاع الصناعي الخاص** من خلال :

أ. تقديم الدعم الضروري للقطاع الخاص الوطني لأهميته في مجال الإنتاج وامتصاص البطالة وحمايته من منافسة المنتج الأجنبي ما يتطلب وضع قانون التعريفة الكمركية موضع التطبيق الفعلي.

ب. تأهيل المناطق الصناعية في كافة المحافظات وتفعيل دور اللجنة المشكلة في وزارة الصناعة برئاسة وكيل الوزارة وتمثيل العديد من الوزارات ذات الصلة ودراسة التقارير والتوصيات التي تقدمها بهذا الشأن ووضعها موضع التنفيذ.

ج. ضرورة الاهتمام بتطوير البنى التحتية للقطاع الصناعي وتوفير الدعم المناسب لخفض تكلفة الوقود والطاقة التي تشكل نسبة عالية من تكاليف الإنتاج ما يضعف جدوى المشاريع وقدرتها التنافسية.

د. تعزيز الإمكانيات المالية للمصرف الصناعي وتشجيع المصارف الخاصة وضرورة إنشاء مصارف تنموية توفر الإقراض الطويل الأجل بشروط مناسبة لتمويل المشاريع الصناعية.

هـ. التركيز على المشاريع الصغيرة والمتوسطة في ضوء ما أكدته تجارب البلدان المتطورة صناعياً، وذلك لما تتميز به من مرونة وسرعة في التكيف وقلة تكاليفها الإنتاجية نسبياً ودورها في امتصاص البطالة.

وينبغي أن يشمل الدعم تيسير توفير التمويل

لها، وتسهيل إجراءات إنشائها.

و. تكوين سلسلة علاقات تشابكيه وقطاعية بين الهيئة العامة للاستثمار + هيئة الأوراق المالية + وزارة المالية + وزارة الصناعة لبناء أسس واقعية وعلمية ومنطقية لعملية الخصخصة للمنشآت الصناعية و (الاستثمار غير المباشر) كأسلوب مقترح لإدارة جديدة معاصرة للمنشات الصناعية.

ز. قيام وزارة المالية بإنشاء صندوق وطني، كأحد مكونات نظام ضمان اجتماعي متكامل، لإعانة العاطلين عن العمل وتوفير دورات لبناء قدراتهم وإعادة تأهيلهم لتيسير إيجاد فرص عمل لهم. وتشكيل لجنة من ممثلين من وزارة الصناعة ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية ووزارة التخطيط ووزارة المالية والاتحاد العام لنقابات العمال في العراق والوزارات الأخرى ذات العلاقة لدراسة الآليات المناسبة للاستفادة من هذا الصندوق.

ح. تفعيل العلاقات بين الكادر الصناعي والخبرات الوطنية وصانعي القرار من خلال تكوين مجاميع ضغط مدنية (منظمات أو ملتقيات أو تجمعات) من الممكن إن تمارس الضغط العلمي والفكري واستخدام القنوات الإعلامية.

*** نظمت الطاولة المستديرة محلية المثقفين في الحزب الشيوعي العراقي والتي قامت بإعداد هذه الخلاصة وخصّت مجلة (الثقافة الجديدة) بنشرها.**

ترجمة نصوص

الولايات المتحدة الأمريكية المفلسة *

ميخائيل كريتكه
ترجمة: رشيد غويلب

ولد البروفسور/ الدكتور ميخائيل كريتكه عام 1950. يعمل أستاذا ورئيس قسم الاقتصاد السياسي في جامعة لانكستر البريطانية، سبق له وان عمل أستاذا للعلوم السياسية والاقتصاد السياسي في جامعة أمستردام وجامعة برلين و بيليفيلد الألمانية وهو أستاذ زائر في العديد من الجامعات الأوربية و الأمريكية والصينية. والبروفسور كريتكه مشارك في تحرير وإصدار الأعمال الكاملة لماركس و أنجلس و العديد من المجلات النظرية ويعمل خبيرا في مشاريع العديد من المنظمات العالمية. له العديد من الكتب و الأبحاث، بعضها بمشاركة آخرين، في السياسة و الاقتصاد الدولي المقارن منها: تسعة أسئلة في الرأسمالية، تاريخ الاقتصاد العالمي، الدولة القديمة و النظام العالمي الجديد – أخطاء و أوهام نقاد العولمة، في الطريق إلى أممية جديدة و غيرها الكثير.

استطاع (سكوت ووكر)، محافظ ولاية ويسكونسن الجمهوري المنتخب توا بمساعدة حفلات الشاي، و بواسطة خدعة معافاة الميزانية المنهكة للولاية الفيدرالية، عندما رفض زيادة الضرائب قطعا، و لكنه اعتمد تخفيض النفقات. و إضافة إلى ذلك أراد الحد إلى مديات كبيرة من حق النقابات، في المشاركة في تحديد أجور العاملين في القطاع العام وبهذه الطريقة تصبح يده حرة في أجراء تخفيض حاد للوظائف في القطاع الحكومي، وفي النية إلغاء 22 ألف وظيفة في العامين القادمين، وتخفيض الرواتب والأجور وتجميد العلاوات. هبت النقابات و أكثر من 170 ألف من العاملين في الخدمة العامة في الولاية الفيدرالية للدفاع بشدة عن أنفسهم، فاحتلوا مبنى الكابيتول في ماديسون ونظموا تظاهرة شارك فيها 80 ألف متظاهر تقريبا وهو ما لم نشهده منذ أيام الحرب الفيتنامية وعمت الإثارة الولاية بأكملها، ولمدة أسبوعين احتدم الصراع الطبقي في وسط غرب الولايات المتحدة الأمريكية.

عادة ما تكون النضالات النقابية في (ويسكونسن) ضمن اهتمام الصحافة

المحلية، ولكن يتعلق الأمر، هذه المرة بحزمة من القضايا ألأساسية المتشابكة و المترابطة التي تؤثر على عموم الولايات المتحدة. المتظاهرون في ويسكونسن والمعنيون مباشرة من معلمين ورجال الإطفاء والمستخدمين الآخرين يعلمون جيدا إن اللعبة تتجاوز الأجور والرواتب كثيرا، وإن المهمة تتعلق بالتغلب على ألازمة الكبرى وعواقبها الاقتصادية والسياسية، وكذلك باستمرار تفشي البطالة و بمديونية الدولة التي تهدد بدفن البلاد بالديون، وتتعلق أيضا بالفوارق الاجتماعية الحادة ، وبالكيفية التي تخرج فيها الولايات المتحدة من الأزمة الاقتصادية و من سيدفع فواتير برامج إنقاذ البنوك وإعادة هيكلة الاقتصاد. ونظرا لان هيمنة الولايات المتحدة على النطاق العالمي تعاني من مصاعب فان الأمر يتعلق بمستقبل الاقتصاد الرأسمالي العالمي، وكما هو معروف اليوم بفعل "العولمة".

في (ويسكونسن) استمرت مهزلة مقاطعة التصويت على الميزانية وعدم اكتمال النصاب لعدة أسابيع لاختفاء النواب الديمقراطيين إلى الحد الذي دفع المحافظ تكليف الشرطة بالبحث عنهم، ولكن عندما تخطت الاحتجاجات الولايات المجاورة أوهايو و إلينوي، وعندما لوح المتظاهرون بالإعلام المصرية في ماديسون، عدل ووكر مشروع القانون بسرعة خاطفة، وتم تمرير القانون خلال نصف ساعة دون الحاجة لإكمال النصاب ودون عواقب مالية كما أعلن رسميا، وبهذا تم إلغاء حق مشاركة النقابات في تحديد الأجور بالكامل تقريبا.(1)

لم يأتِ هذا الهجوم الواسع مصادفة، صحيح إنَ النقابات في القطاع الخاص غير موجودة تقريبا، ولكنها في القطاع العام لا تزال منظمة تنظيما جيدا و تملك إمكانيات لاتخاذ القرار، و خصوصا في ولاية ويسكونسن. سمع المحافظون، في الولايات الفيدرالية الأخرى، الإشارة القادمة من ماديسون برغبة واهتمام، فهم مهددون في أماكن عديدة بالإفلاس أيضا ولديهم في أدراج المكاتب مشاريع مماثلة. في ولايات أوهايو و ايداهو وولاية ايوا وميشيغان وإنديانا ونيو هامبشير وكنساس وتينيسي يعمل حكامها الجمهوريون و بمساعدة مجموعات الدعم البرلمانية على إصدار قوانين اشد قسوة في بعض مفاصلها. ففي 20 ولاية فيدرالية سيقلص حق المشاركة في تحديد الأجور للمستخدمين في الخدمة العامة (لا يوجد سوى القليل من الموظفين)، وفي بعض الولايات سيتم حرمانهم من حق الإضراب. بعد خوض المعركة في ماديسون، على المحاكم أن تقرر الآن دخول القانون حيز التنفيذ من عدمه، كما إن معركة الميزانية لا تزال محتدمة في واشنطن والصراع على تمويل الدولة يتصاعد في جميع أنحاء البلاد. ولأننا نتحدث عن الولايات المتحدة التي تملك اكبر اقتصاد في العالم و لا تزال مركز العالم الرأسمالي، فأن ما بدا و كأنه مهزلة في ولاية، أصبح له ألان تأثيرات سياسية عالمية، لان "زعيمة" العالم بعيدة عن الخروج من الأزمة، وعلى الرغم من كل الأبواق التي تتحدث عن الانتعاش، فإنها على العكس من ذلك تتهيأ ألان لأزمة عالمية جديدة.

الديون المتفجرة

حتى قبل بضعة أسابيع بدا و كان صندوق النقد الدولي واكبر ثلاث وكالات تصنيف

جهنمية لاحظوا، إن أزمة الديون في الولايات المتحدة أسوأ بكثير من مثيلتها في منطقة اليورو. هنا في أوربا يجري التعويل على أزمة اليورو المزعومة خوفا من شبح إفلاس الدولة، أما في الولايات المتحدة الأمريكية فستصل الديون الجديدة قريبا أكثر من ضعف الديون الجديدة في أوربا. بلغ العجز في الميزانية الفيدرالية في عام 2010، وفق حسابات البنك الدولي 10.6% و سيصل في هذا العام إلى 10.8%، بينما بلغ العجز بالمقابل في السنة الأخيرة (2010) 6.4% ويقدر العجز بـ4.7% لهذه السنة(2)، وكذلك الحال بالنسبة للديون الفيدرالية -أي بدون ديون الولايات الفيدرالية وديون البلديات -فأنها تبلغ في الولايات المتحدة اعلى بكثير من مستوى ديون منطقة اليورو ويصل تقريبا إلى 100% من الناتج المحلي الإجمالي، ووصل مجموع ديون الولايات الفيدرالية كل على انفراد في عام 2010 الى 7.6% من الناتج الإجمالي المحلي، ووصل مجموع ديون البلديات إلى 11.9% من الناتج الإجمالي المحلي. هذه أرقام تثير الفخر و لا يمكن توقعها حتى في البلدان التي وضعتها الأزمة في أوربا على حافة الإفلاس(3).

في الوقت نفسه فان معدلات الضريبة في الولايات المتحدة الأمريكية هي الاوطأ في العالم الرأسمالي المتطور حيث بلغت في العام الماضي 20%من الناتج الإجمالي المحلي وهو ما يعادل حوالي نصف متوسط إيرادات الضرائب في الاتحاد الاوربي(4). العديد من الولايات الفيدرالية التي تقف بالصدارة و المهمة اقتصاديا بضمنها كاليفورنيا في الواقع مفلسة جميعها تقريبا (أي44 من50 ولاية) حيث تسجل ثغرات جدية في الميزانية وصل مجموعها في العام الحالي 130 مليار دولار أمريكي، و سيصل في العام القادم إلى125 مليار. وفي السنوات الثلاثة الماضية بلغ العجز في الميزانية الفيدرالية الأمريكية ٤٤ مليار دولار. كان عام 2010 هو ألأسوأ إذ بلغ العجز خلاله191 مليار ولكن في سنة الميزانية الحالية (2010/2011) بلغ العجز 130 مليار و يقدر العجز لسنة الميزانية القادمة لجميع الولايات الفيدرالية بـ 180 مليار. على أساس سنة الميزانية الحالية بلغ معدل العجز عام2010 في أريزونا65% وفي كاليفورنيا 52.8% و في نيفادا 46.8% وفي الينوي موطن اوباما43.7% وفي ولاية نيوجرسي الصغيرة 40%وفي كنساس 39%وفي أيسلندا رود 34.8%، ويبلغ العجز في 25 ولاية أخرى أكثر من 20%.

في مجموع الولايات الفيدرالية يبلغ معدل العجز 24% ويتوقع أن يرتفع معدل العجز في سنة الميزانية (2011/2012) القادمة التي ستشهد نهاية المساعدات المالية التي قدمتها الحكومة الفيدرالية وفق قانون الإنعاش الفيدرالي والتي بلغت68 مليار في عام 2010 و 59 مليار في عام 2011 (5).

ومنذ ثمانية اشهر تقريبا لم تسدد بعض الولايات الفيدرالية، مثل إلينوي، فواتيرها و بعضها أوقف دفع معونات العاطلين، و على مستويات الولايات الفيدرالية حققت كاليفورنيا اعلى عجز حيث بلغ 100 مليار دولار (في ولاية ويسكونسن الصغيرة، يبلغ حاليا 137 مليون دولار فقط). تخفض وكالات التصنيف قيمة سندات ولاية كاليفورنيا باستمرار و لا يختلف وضع

الولايات الأخرى المرشحة للإفلاس. على عكس البلدان الأوربية التي تقف على حافة الإفلاس (البرتغال و ايرلندا وايطاليا واليونان و أسبانيا) يتوجب الآن على بعض الولايات الأمريكية دفع ربا حقيقي يتجاوز 12% لإعادة تمويل سنداتها. رغم مديونية الدولة التي لا مثيل لها، ورغم استمرار سياسة التدفق الوفير للمال بسعر رخيص جدا، فانه لا أثر لأزمة دولار. إن نظرة متأنية و دقيقة عبر المحيط مفيدة جدا، لان الولايات المتحدة الأمريكية هي جنة لجميع أنصار حكمة الليبرالية الجديدة – فرملة الديون ومنع حدوث عجز إلى الحد الذي يلبي رغبات المحافظين. منذ عام 1917 هناك سقف قانوني أعلى للديون الفيدرالية يجري تثبيته بأرقام محددة. وعلاوة على ذلك تلتزم الولايات الفيدرالية (ما عدا فيرمونت والحكومة الفيدرالية في واشنطن بالطبع) بتقديم موازنة سنوية متوازنة، ومع ذلك تغرق الحكومة الفيدرالية وأغلب الولايات في مستنقع للديون أعمق بكثير من مستنقع أطفال (بلدان) القلق الأوربي جميعا.

باختصار: لقد سقط الطلاء من موديل رأسمالية الأسواق المالية الأمريكية.

سلطة الدولار والائتمان المصرفي للدولة في الولايات المتحدة الأمريكية

نحن لا نريد امتلاك القلق الأمريكي، ولتقوية العزائم في واشنطن يفضلون التطلع إلى اليابان وليس إلى أوربا، هناك يتصاعد معدل الديون باستمرار ويبلغ منذ سنوات بوضوح أكثر من 220% من الناتج الإجمالي المحلي، وكان العجز في الميزانية اليابانية في سنوات الأزمة أعلى من العجز الأوربي ولكنه يبقى دون مستوى العجز في الولايات المتحدة الأمريكية، ولذلك فقد خفضت الثقة بالسندات الحكومية اليابانية إلى الدرجة الثانية من قبل وكالة" ستاندرد اند بورز" العالمية. الولايات الفيدرالية المرشحة للإفلاس وصلت مستوى ادنى من ذلك، فسندات ولاية كاليفورنيا وصلت المستوى الأدنى في التقييم وهو أسوأ مستوى لم تصله سندات أية ولاية في السابق، وبدأ رجال وكالات التصنيف يهددون الحكومة الفيدرالية بتخفيض حاد لجدارتها الائتمانية،وهذه ليست المرة الأولى التي تتلقى فيها الولايات المتحدة مثل هذا التهديد، فمنذ صيف 2010 يتكرر هذا التهديد بانتظام رتيب ويثير الإزعاج تدريجيا، وهناك حديث داخلي حول تخفيض السندات الفيدرالية الأمريكية إلى أدنى من المستوى الياباني، وبهذا تقترب حكومة أوباما أكثر فأكثر من وضع ولاية كاليفورنيا،ويجب عليها أن تهتز في كل مزاد للسندات الفيدرالية كما هو حال الحكومة اليونانية أو الايرلندية أو الاسبانية. للمرة الأولى يناقش الكونغرس الأمريكي إمكانية إعلان إفلاس بعض الولايات الفيدرالية فرادى، رغم إن الدستور لا ينص على ذلك، ولم يسجل التأريخ المالي للولايات المتحدة حالة مشابهة إلا في العام 1933 إبان الكساد العظيم إذ أعلن في حينها إفلاس ولاية أركنساس، ومنذ ما يقارب ثلاث سنوات تقترب ولاية كاليفورنيا من حافة الإفلاس، وهي التي تحتل المرتبة الثامنة في الاقتصاد العالمي والموقع الأهم في الاقتصاد الأمريكي. وصف رئيس بنك الاحتياطي الاتحادي الأمريكي (بن برانكي) شبح

إفلاس ولاية فيدرالية بكلمات صارخة ولكنه أعطاه بعدا مختلفا عن الإفلاس في اليونان وايرلندا، لأنه سيكون كارثة للاقتصاد العالمي. فالدولار هو عملة الاحتياطي العالمي رقم واحد ويعتمد قبل كل شيء على القدرة الائتمانية للولايات المتحدة الأمريكية، وعندما تنتهي الأخيرة تنتهي معها سلطة الدولار، وتستمر سلطة الدولار مادام هنالك سوق لسندات الخزانة الأمريكية ، ومادامت جميع البنوك المركزية لجميع البلدان تشتري سندات الخزانة الأمريكية و تقوم بحفظها في أدراجها. وفي الصراع من اجل هيمنة الدولار وفي حرب العملات العالمية لا تحتاج الولايات المتحدة الأمريكية إلى الشك في قدرتها الائتمانية، مادام بنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي يصعد من سياسة الطوفان النقدي، وسياسة فرملة الديون المعروفة في الولايات المتحدة الأمريكية منذ زمن بعيد و التي تعطي في الظرف الراهن نتائج عكسية جدا. بلهجة حادة طلب، وزير الخزانة الأمريكي (تيموثي غيثنر)، من الكونغرس المنتخب حديثا زيادة سريعة لسقف المديونية إلى 14.3 بليون دولار، لان سقف المديونية المسموح به سينفذ في المستقبل المنظور، وإذا لم يتم رفع سقف المديونية، فان "زعيمة" العالم الفخورة ستصبح في الواقع غير قادرة على التسديد، ومن غير المرجح أن تصل الأمور إلى هذا الحد، فحتى الكونغرس الذي يسيطر عليه الجمهوريون سيوافق على رفع سقف المديونية مجددا مقابل تقليص جذري جديد للنفقات. سيؤدي ذلك إلى ارتفاع معدلات العجز، ولكن وزير الخزانة سوف لا يقلق على إعادة تمويل الديون الفيدرالية مادام بنك الاحتياطي الفيدرالي مستعدا للاستمرار في شراء السندات الأمريكية. تتحمل الآن السندات الرسمية لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية 1.1 بليون دولار (من مجموع العجز البالغ1.5 بليون دولار، و سيبلغ مجموع الديون الفيدرالية في سنة الميزانية القادمة 14.8 بليون دولار). ولكن يجب القول إن السعة التي يشتري بها بنك الاحتياطي الفيدرالي فريدة من نوعها لا يجاريها في العالم سوى البنك المركزي الياباني.

الدائنون الكبار الصين و اليابان

أصبح بنك الاحتياطي الفيدرالي، حاليا، اكبر الدائنين لشرائه الهائل لسندات الولايات المتحدة، يتبعه مباشرة الدائنون الأجانب الكبار: الصين 1.16 بليون دولار، اليابان 882 مليار دولار، بريطانيا 272 مليار دولار، بلدان النفط 212 مليار دولار، وإذا أضفنا سندات الولايات المتحدة التي يشتريها البنك المركزي الصيني في الآونة الأخيرة من الأسواق العالمية، و خصوصا البريطانية فتصبح الصين الدائن الأكبر في العالم للولايات المتحدة بمبلغ قدره 1.75 تريليون دولار. تبلغ ديون الولايات المتحدة في جميع إنحاء العالم 10.7 تريليون دولار منها (60.5 مليار دولار) للمكسيك و بلجيكا والهند وألمانيا الاتحادية، وحتى لايرلندا المفلسة (45.8 مليار دولار)، وتعتبر سويسرا و لوكسمبورغ من الدائنين الرئيسين للولايات المتحدة. اكبر مجموعة دولية دائنة للولايات المتحدة ،مع الفارق، هي مجموعة دول (BRIC) ، الصين 1.16 بليون، روسيا 151 مليار دولار، البرازيل

186 مليار دولار و الهند 40.5 مليار دولار6. هذا مع العلم أن 60% من السندات الأمريكية (البوندس – سندات تباع بأسعار فائدة ثابتة –المترجم) يجري تداولها في الأسواق المالية العالمية وبحوزة دائنين من القطاع الخاص (45% منها تقريبا في الخارج، بشكل خاص بحوزة البنوك الألمانية الكبيرة). في سنوات الأزمة جرى تداول لكتل متورمة من هذه السندات، وتشترط واشنطن فترات حيازة قصيرة يبلغ متوسطها ألان 50 شهرا. ولذلك تواجه الولايات المتحدة حاجة، تنمو بشكل هائل وسريع، لإعادة تمويل الديون الفيدرالية، حيث أن هناك أكثر من 40% من الديون الفيدرالية تحتاج خلال الـ 12 شهر القادمة لإعادة تمويل. إن المبالغ المطلوبة لإعادة تمويل سندات الحكومة الفيدرالية خلال العام الحالي اعلى بكثير من المبالغ التي تحتاجها بلدان منطقة اليورو مجتمعة لإعادة تمويل مديونية الدولة فيها. لا يدور الحديث هنا عن تغذية الدجاج، بل عن وجوب إعادة تمويل 40% من مجموع حجم ديون الدولة المتداولة في الأسواق المالية خلال 12 شهراً (كما كان الحال في عامي 2009 و 2010)(7)، وبهذا تضع حكومة الولايات المتحدة نفسها على موقد شواء الأسواق المالية العالمية المتقلب باستمرار، على عكس بلدان أخرى مثل فرنسا و بريطانيا التي تتمتع سنداتها بفترات زمنية أطول، ولا غرابة أن يدور النقاش الآن حول فترات زمنية اطول60،50 ، وحتى 100 عام. يعود الفضل من ناحية أخرى لسياسة أسعار الفائدة المنخفضة التي يتبعها بنك الاحتياطي الفيدرالي مما يجعل عبء الإرباح على الميزانية الفيدرالية ليس ثقيلا، ولكن ذلك ممكن أن يتغير بسرعة، فالفوائد التي تدفعها الولايات المتحدة لسنداتها تصاعدت في الأشهر الأخيرة بوضوح وأحيانا بقفزات: في بداية كانون الأول استطاعت الخزانة الأمريكية طرح سندات بقيمة13 مليار دولار (لمدة 30 عاما)، و ازداد الطلب على هذه السندات بنسبة 2.74 على ما هو مطروح، وذلك لان أسعار الفائدة ارتفعت بأقصر الأوقات إلى مستوى قياسي جديد قبل ذلك بوقت قصير، و لم تصله بهذا الارتفاع وهذه السرعة منذ إفلاس بنك (ليمان برذر) في أيلول عام 2008، ولكن عندما ترتفع الفوائد على السندات الفيدرالية و عوائدها، ترتفع على إثرها كذلك الفوائد على السندات الأخرى، ولا سيما سندات الرهن العقاري و السلف وتصبح تكاليف إعادة تمويلها مرتفعة. وهذا لا يخدم الاقتصاد الذي يعاني من ضعف، ولذلك يقوم بنك الاحتياطي الفيدرالي بشراء سندات جديدة للضغط على أسعار الفوائد وعلى العوائد، و تعاني لهذا أسواق السندات الحكومية الأمريكية من تقلب متزايد و عنيف، و يجلب هذا التذبذب المستمر جموعا حاشدة من المضاربين. وضعت صناديق التحوط، مؤخرا أكثر من خمس سوق سندات الخزانة الأمريكية البالغة 10 بليون دوراً، في يدها، في حين كانت النسبة 3%في عام 2009. إن إشارة إنذار واضحة تأتي عندما بعلن، اكبر صندوق تحوط خاص في العالم " بيمكو توتال رتيرن" (شركة تابعة لمجموعة اليانز للتامين)، رسميا عن طرحه سندات الحكومة الفيدرالية الأمريكية التي بحوزته للبيع وعدم رغبته شراء أوراق مالية حكومية أمريكية في

المستقبل8. تسمع في الآونة الأخيرة أصوات مماثلة قادمة من الصين، فالمضاربون و الدائنون الصينيون لا تعجبهم سياسة التوسع المالي التي يتبعها بنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي، لأنهم يخشون من التضخم.

أزمة مستمرة و بطالة متصاعدة

إن خطر حدوث تضخم عام في الولايات المتحدة حاليا منخفض باستثناء (جزء من المواد المستوردة) التضخم في أسعار المواد الخام، لان الأزمة الاقتصادية و المالية تم تجاوزها فقط على الورق الصبور، وهناك فيض مفرط في المنتجات الصناعية وحتى الأرقام الرسمية لمعدلات البطالة لا تزال مرتفعة، و أزمة العقارات لا تزال مستمرة أيضا. أكثر من 10% من أصحاب المنازل لم يستطيعوا في السنوات الأخيرة خدمة الرهون العقارية في الموعد المحدد كليا أو جزئيا، وتزداد حالات البيع والإخلاء ألقسري في عموم البلاد. في العام الماضي ارتفع عدد الذين يتلقون بطاقات الدعم الغذائي من 5 إلى43 مليون، ولا تزال معدلات البطالة، وفق المصادر الرسمية، تتجاوز9%، وفي الوقت نفسه انخفض معدل العمالة إلى اقل من 64% وهو ادنى مستوى يصل إليه، وهذا يعني رسميا إن أكثر من85 مليون أمريكي في سن العمل أصبحوا " خارج سوق العمل". و على أساس عدد بطاقات الدعم الغذائي، والتي توزع على الذين يعتبرهم القانون عاطلين عن العمل أو باحثين عنه فقط، نستطيع القول إن نصف هؤلاء الأشخاص على الأقل هم عاطلون عن العمل، أي أربعة أضعاف أكثر من الأرقام المسجلة رسميا والتي تصل إلى 10 مليون تقريبا. بلغت البطالة بين الشباب الآن إلى مستوى أعلى من مستواها في أوربا، ويتلمس المرء الآن عواقب سياسة التقشف في الولايات الفيدرالية و البلديات ذات المديونية العالية، وهناك خطط تسريح جماعي للعاملين في النية تنفيذها.

مشاكل اقتصادية هيكلية هائلة

المحافظ (ووكر) وحلفائه يعملون على أن يبقى ضعف الاقتصاد الأمريكي، قبل وبعد الأزمة، مرتبط بالديون الحكومية والديون الشخصية، وليس هناك ما يدفع أو يوحي بالثقة في بلد تهزه الأزمة. والبنوك التجارية تفيض بالسيولة النقدية التي يوزعها بنك الاحتياطي الفيدرالي بما فيه الكفاية مقابل أسعار فائدة تتراوح بين 0% و 0.25%، وبالمقابل تمنح البنوك التجارية اقل ما يمكن وتزيد من احتياطياتها لدى بنك الاحتياطي الفيدرالي، إما ميزانية العائلة فتعاني من خوف التقشف أو مشغولة بإزالة جبال ديونها. لأول مرة، و منذ وقت طويل تعود في الولايات المتحدة معدلات ادخار ايجابية تقترب من 6%، و هناك صعود في سوق الأسهم بفعل الأموال الرخيصة التي يضخها بنك الاحتياطي الفيدرالي، ولكن سوق العقارات وفي المركز منه قطاع الرهن العقاري المؤمم الآن تقريبا بالكامل لا يزال يعاني من هزال، ويتحمل مخاطره دافعو الضرائب في الولايات المتحدة الأمريكية.

لم يتغير شيء يذكر في عجز ميزانية الحساب الجاري ويستمر في مستوياته العالية، بالرغم من إن الأمريكيين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في لعب دور "consumer of last resort"

المستهلك كملاذ أخير للأمم الصناعية في العالم. و لم تعد الولايات المتحدة منذ فترة طويلة، رغم التزاماتها التجارية، في قمة البلدان المصدرة في العالم، حتى بعد المعايير الغربية للمنتدى الاقتصادي العالمي في تحديد تسلسل الأمم "الأكثر قدرة على المنافسة"، فان الولايات المتحدة في الوقت الحاضر تتأثر بجميع أنواع الأقزام كالسويد و سويسرا، و هنا يستطيع الرئيس (أوباما) الإعلان عن " المبادرة الوطنية للتصدير" مرارا وتكرارا كما يريد، فالولايات المتحدة الأمريكية تحتاج إلى أكثر من الحوافز المالية لمضاعفة صادراتها خلال الخمس سنوات القادمة، والتي لا تستطيع حكومتها توفيرها، بالإضافة إلى ذلك تحتاج الولايات المتحدة إلى سياسة صناعية صحيحة و حملة تعليمية تأهيلية، وأوباما يرغب في استثمار الكثير لمعالجة البنية التحتية و النظام التعليمي المتهالكين في البلاد، ولكنه يغرق في مشكلة الميزانية و مصيدة الديون.

في الخريف الماضي أعلن أوباما بشجاعة بأنه سيخفض العجز في الميزانية، بحلول الانتخابات الرئاسية في عام 2012 إلى النصف، و كما كان متوقعا قدم في شباط برنامج ادخار هائل رفضته الأكثرية الجمهورية فورا ومنذ ذلك الحين تحتدم معركة الميزانية. منذ أكتوبر 2010 وجب على الرئيس أن يحكم بلا ميزانية بل يعتمد على موافقات مؤقتة على النفقات كانت الأخيرة في 18 آذار عندما كان الكونغرس كريما جدا مع الرئيس ووافق على فترة صرف جديدة لمدة ثلاثة أسابيع. وعلى أساس هذه اللعبة يجب على الرئيس تقديم تخفيض جديد في النفقات بالمليارات لخصومه الجمهوريين للحصول على أي تمديد جديد للمبالغ المخصصة للنفقات، ويمكن أن تستمر هذه اللعبة لأسابيع و اشهر قادمة. قدم أوباما برنامجا بعيد المدى للادخار يترافق مع برنامج للاستثمار في مجالات التعليم والبنية التحتية Winning the Future" (لنربح المستقبل) ، أراد من خلاله ادخار 1.1 تريليون دولار خلال 10 سنين ، وان يشهد عام 2010 انخفاضا في العجز يصل إلى الثلث، و تقوم خطته على التجميد، أي التخفيض الحقيقي لجميع " النفقات المتاحة"، و هذا يشمل جميع النفقات الفيدرالية باستثناء تلك المخصصة " للأمن" والتقاعد و العناية الصحية ، وتتأثر بهذا التخفيض العديد من النفقات الاجتماعية ولكن أيضا الإعانات والنفقات العسكرية ويؤدي إلى إلغاء أو التخفيض الجذري لـ 200 برنامج فيدرالي Winning the Future" هذا يعني تسريع النمو من خلال دعم اقتصادي محدد و الاستثمار في التعليم و التأهيل المهني، ولكن ذلك ليس شاملا و لا سريعا بالنسبة للجمهوريين في الكونغرس، فهم لا يريدون مجرد إيقافٍ للنفقات، بل يريدون حفلا هائلا للإلغاء الفوري يحقق توفير61 مليار على الأقل في هذا العام، ويرفضون زيادة الضرائب مطلقا و يرون في برامج الاستثمار إسرافا.

سياسة ضريبية كارثية

في كانون الأول قدم أوباما تنازلا أمام غضب الجمهوريين على سياسته الضريبية، بتمديده فترة خفض الضرائب للأغنياء و الأثرياء (الذين يبلغ دخلهم السنوي أكثر من 250 ألف دولار)، التي اقرها سلفه حتى

عام2012، ولا يستطيع الرئيس الانتصار في معركة، ذات دوافع إيديولوجية تدور حول إصلاح الشؤون المالية الفيدرالية، ورغم إن وضع الحكومة الاتحادية أفضل من وضع اغلب الولايات الفيدرالية حيث الوضع هناك بكل ببساطة كارثي. كلما ازدادت الأزمة عمقا قطاع العقارات وسوق العمل، كلما ازداد العجز لدى الولايات الفيدرالية، ومقارنة بالأزمات الاقتصادية الشقيقة منذ الثلاثينيات حيث كان العجز أقل، فالإيرادات الضريبية انخفضت بشكل كبير، وتتراوح الآن من12% إلى 15% وهو أقل من مستويات ما قبل الأزمة. قدمت الخزينة الفيدرالية، منذ 2009 ما يقارب 140 مليار دولار لتغطية % 30 –40من العجز لدى الولايات الفيدرالية، بالإضافة إلى مساعدات مالية لتمويل البرامج الصحية ومعونات العاطلين عن العمل وصل مجموعها إلى126 مليار دولار و بدونها لأفلس العديد من الولايات الفيدرالية منذ زمن بعيد، وبدون الديون الفيدرالية الجديدة المتصاعدة، و بدون تدفق الأموال من واشنطن، ما كان بالإمكان تمويل العجز في الولايات الفيدرالية فرادى، أما الآن فسيتم إغلاق صنبور المال وسيصبح الوضع جديا، لان الجمهوريين في الكونغرس رفضوا بشكل قاطع برنامج إنقاذ الولايات الفيدرالية.

أزمة العقارات مستمرة في البلديات و لا تزال تشكل كارثة مالية، و المصدر الرئيس للضرائب في البلديات يأتي من الضرائب على امتلاك الأراضي السكنية و العقارات، و قد انهارت الضرائب بسبب انخفاض أسعار العقارات و انخفاض معدلات العمالة، ولا تتوقع البلديات الحصول على دعم مالي من الولاية الفيدرالية، كما لا يمكن توقع الحصول على المال من العم سام في واشنطن بعد الآن، بل بالعكس من ذلك تصر الحكومة الفيدرالية على استرجاع جزء من المساعدات المالية.

وبالرغم من ذلك فان زيادة الضرائب تعتبر في الولايات المتحدة من المحرمات التي لا يجرأ احد على الاقتراب منها. في كثير من الولايات الفيدرالية، وكما هو الحال في كاليفورنيا، يتطلب رفع نسبة الضريبة أكثرية الثلثين في البرلمان، وارتباطا بموقف الجمهوريين من مسألة الضرائب يصبح الأمر مستحيلا. لاتزال هيمنة الليبرالية الجديدة قائمة بهذا الخصوص، ولهذا يجري أولا وقبل كل شيء رفع هائل للرسوم، والمتضررون هم كل من لا يستطيع الاستغناء عن المؤسسات والخدمات العامة. وهكذا أعلنت أولى الولايات الفيدرالية الطاعة لمحنتها المالية وخرجت من مخبئها، فتقدمت الطريق ولاية إلينوي بحذر جبان عندما رفعت ضريبة الدخل وضريبة المبيعات بنسبة قليلة، و بعض الولايات تحاول الشيء نفسه. ولكن حتى إذا اقتدى الجميع بهذا المثل، فسوف لا يكفي لإنهاء الأزمة المالية في المدن و البلديات، فما دامت أزمة العقار مستمرة، و ما دام عدد الرهون العقارية التي تلغى أو البيوت التي يتم إخلائها بالقسر من شهر لآخر يرتفع، وشمل ألآن قطاع الرهون العقارية من الدرجة الأولى، فسوف لا تستطيع البلديات الخروج من الأزمة المالية.

لهذا سيبقى فقط إجراء الإصلاح الضريبي الجذري أمر لا يمكن تصوره في بلد تحكمه القوى المضادة لزيادة الضرائب و للدولة و للحياة العامة.

الخوف من إفلاس الولايات يدفع حكامها إلى أفعال يائسة. ليس في كاليفورنيا وحدها، بل في عموم البلاد تسود تقريبا حالة الطوارئ في القطاع المالي، ولهذا يجري تمديد العطل المدرسية، وإغلاق أو خصخصة المدارس والجامعات و المكتبات والمتاحف والمسابح و رياض الأطفال، وكذلك يجري تخفيض الرواتب وإلغاء ومنح الإجازات الإجبارية لمئات الآلوف من العاملين (لعدة أيام أو أسابيع) والإحالة المبكرة على التقاعد. كما يجري إطلاق سراح الآلاف من نزلاء السجون بوقت مبكر و يرمون في الشوارع، ويجري ترحيل المهاجرين إلى خارج الحدود دون محاكمة لعدم وجود برامج لإعادة التأهيل، و في تنظيم الحسابات ينتعش الإبداع في الاحتيال، ولا يتم أحيانا ببساطة تسديد فواتير بمليارات الدولارات مما يترك آثاراً وخيمة للاقتصاد المحلي لا يمكن التنبؤ بها.

وهناك العديد من الأمثلة على ذلك: في ولايات إلينوي ونيوجيرسي، وكاليفورنيا والعديد من الولايات الأخرى هناك شركات دخلت عمليا حالة العسر المالي"insolvent"، بالرغم من قدرتها على الاستمرار في خدمة ديونها(9).

ازدادت الرسوم في 30 ولاية فيدرالية وفي بعضها كانت الزيادة هائلة، وستزاد في بعضها أيضا ضريبة الدخل والمبيعات وسيؤدي ذلك إلى مزيد من الديون، وتبلغ ديون المدن و البلديات و الولايات الفيدرالية الأمريكية 3 تريليون دولار تقريبا، وبفضل المساعدات المالية من الحكومة الفيدرالية.

وعلى الرغم من واردات الضريبة المنخفضة، سارت الأمور لفترة على ما يرام، ولكن المساعدات المالية التي يتم تقديمها وفق قانون المجلس الاحتياطي الفيدرالي Fed-eral Reserve Act ستنتهي قريبا، وسوف لا يجري تمديد برنامج دعم السندات الأمريكية *(Build America Bonds)* الذي تدفع بموجبه الحكومة الفيدرالية ثلث أسعار فوائد سندات الولايات الفيدرالية، مما يؤدي إلى الانهيار الفوري للسوق. على العكس من الوضع في أوربا فان المدن المثقلة بالديون والتي تعاني من نقص في التمويل وكذلك الولايات الفيدرالية المشلولة (مخدرة) تجد صعوبات كبيرة في طرح سندات جديدة للتداول في الأسواق المالية.

لا تتأثر البنوك ولا صناديق التحوط عند إعلان البلديات الأمريكية إفلاسها، ثلثي سنداتها (المعفية من الإرباح والضرائب) هي بحوزة مستثمرين مباشرة أو عبر صناديق الاستثمار أما الباقي فيعود لصناديق التقاعد.

يصبح الأمر صعبا عند إلقاء نظرة على العجز الكبير في صناديق التقاعد، فالولايات الفيدرالية لا تستطيع تعويض المليارات التي خسرتها الصناديق التقاعدية للمعلمين و الموظفين في جميع أنحاء الولايات المتحدة خلال الأزمة المالية، كما لا تستطيع هذه الولايات تحمل التكاليف المترتبة على إصلاح النظام الصحي دون التورط في ديون جديدة.

والمزاج العصبي للمستثمرين جعلهم يهربون من سندات الولايات المفلسة ويسحبون مليارات الدولارات من أسواق سندات البلديات ، ولهذا تستمر أسعار الفائدة على ديون الولايات الفيدرالية و البلديات بالارتفاع ، وتدور دوامة الديون

بسرعة، وعليه فان لا نهاية تلوح في الأفق للازمة المالية في الولايات المتحدة.

الأزمة المالية التالية قادمة بالتأكيد

سيبدأ تحت ضغط الجمهوريين حفل الإلغاء الكبير، عندها يتعين على اوباما دفن خططه الطموحة، إذ ستخفض كل البرامج الاجتماعية بما في ذلك برامج دعم التعليم، التي ستجعل الولايات المتحدة في محنة لحاجتها الماسة إليها، لأنها تعاني بسبب التأهيل المتدني للعاملين و التعليم المهني السئ و انتشار العمالة المؤقتة بين السكان. سياسة التقشف التي تتبعها واشنطن تؤثر سلبا على الولايات الفيدرالية، وتؤدي في حالات كثيرة الى جعل أزمة الميزانية فيها عميقة و مزمنة، وتبدو الأمور اليوم واضحة. فالفقراء هم من يصيبهم بلاء تقليص البرامج الصحية و الاجتماعية، ومعروف أيضا إن فنطازية التقشف في الولايات الفيدرالية أنتجت المزيد من الشركات المفلسة و المزيد من العاطلين، وهذا ما يؤدي أيضا إلى تصاعد أزمة العقارات.

يستطع المرء أن يتوقع بجرأة، إن الأزمة المالية القادمة ستأتي ثانية من الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها لا تأتي هذه المرة من سوق العقارات، بل من المرجح أن تحدث نتيجة لإفلاس بعض الولايات مثل كاليفورنيا أو الينوي، وسلسلة ردود الأفعال الناتجة عنه. ونظرا لأن أية حكومة فيدرالية يجب إن تنقذ الولايات المهمة اقتصاديا، مثل كاليفورنيا، من الإفلاس فمن الممكن أن تؤدي عملية الإنقاذ إلى تدهور السندات الأمريكية عالميا والى هروب المستثمرين. التمويل يتحقق فقط من خلال طرح سندات جديدة واستمرار السياسة النقدية المرنة (التيسر الكمي)، واستمرار بنك الاحتياطي الفيدرالي في الشراء الهائل لسندات الولايات المتحدة، والحفاظ المصطنع على أسعار الفائدة المنخفضة. حدد بنك الاحتياطي الفيدرالي 600مليار دولار مخصصة لشراء السندات حتى حزيران2011. وهناك عدد ليس بالقليل من اللاعبين المؤثرين في السوق يعتبرون سياسة العجز المتبعة في الولايات المتحدة الأمريكية عبارة عن كرة جليد مهيأة لإضعاف الدولار. هنالك تحول منظور في أسعار الفائدة في أوربا، في حين تبقى الولايات المتحدة الأمريكية في موقع متخلف فيما يتعلق بصراع العملات و في التنافس حول منافع الأسواق المالية. ولا تستطيع الولايات المتحدة الاستمرار في التنافس حول أسعار الفوائد مع أوربا (وحتى مع الدول الصاعدة التي تتعامل ألان بسعر فائدة مرتفع)، لان عبء الديون الملقى على كاهلها مرتفع جدا، و لا تستطيع الولايات المتحدة استخدام التضخم لخفض قيمة الدولار، كوسيلة مجربة، للاعتذار على حساب الدائنين في الداخل و الخارج، لان سلطة الدولار كانت وستبقى أهم دعامة لسلطة الولايات المتحدة في الاقتصاد العالمي التي يمكن الحفاظ عليها فقط مادامت بقية دول العالم مستعدة (للمشاركة) في تمويل العجز في الولايات المتحدة الأمريكية، أي عندما تقبل أن يدفع لها بالدولار، لتقوم بدورها بمبادلة هذه الدولارات بالأوراق المالية الأمريكية، وهو شكل للائتمان الأمريكي مقابل الآخرين. ولكن عندما يفقد كلاهما قيمته الاسمية، عندها ستنهار أسعار السندات الأمريكية والدولار، وتحدث أزمة

النظام المالي العالمي الكبيرة. مثل هذه الأزمة المالية تصيب النظام الرأسمالي العالمي، كما هو معروف، بالنخاع، عندما تنهار السندات الفيدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية، كما انهار سوق سندات البلديات، فعلى الدائنين أن يتيقنوا بعدم وجود برنامج للإنقاذ بعد ألان، كما حدث لمعالجة الأزمة المالية في اليونان وايرلندة، إذ تم إبعاد البنوك الألمانية والفرنسية والبريطانية من الخسائر. ساهمت البنوك الألمانية الكبيرة و بنوك المقاطعات الألمانية بدفع38 مليار على الأقل لدعم سندات البلديات في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى 13 مليار دولار قدمتها السندات الفيدرالية الأمريكية يضاف لها 60 مليار دولار استدانتها الحكومة الفيدرالية الأمريكية أكثرها من البنوك الألمانية. وعندما تبدأ الأزمة القادمة للدولار ستكون بنوك القطاع الخاص و البنوك المركزية جالسة على جبل من الديون الأمريكية، وفي مواجهة الذعر المالي الذي سيتملكنا، وسوف لا يكون عشب للدولة الوطنية أو القارة الأوربية قادرا على النمو.

الهوامش:

* – **مقالة بعنوان:** (Vereinigte Pleitestaaten von Amerika)**بقلم البروفسور الدكتور** .Michael R Kratke **نشر في عدد نيسان** 2011**من المجلة النظرية اليسارية الألمانية:**
– Blatter für Deutsche und Internationale Politik (**أوراق للسياسة الألمانية و العالمية**).

1.**من الآن فصاعدا سيسمح للنقابات بالتفاوض فقط حول الأجور الاسمية بدون إضافات، بدون اشتراكات ضمان اجتماعي و ضمان صحي و بدون تقاعد، وكذلك إلى حدود لا تتجاوز مستوي التضخم.**

2.**بلغت النسبة في عام**2011 **للاتحاد الأوربي** 6.8%**و ويتوقع أن تكون في** 2011 ,5.1%. **الأرقام وفق:**
Group of Twenty – G?20 Finance Ministers and Central Bank Governors, IMF Note on Global Economic Prospects and Policy Challenges, Paris, 18.-19.2.2011, S. 18.

3.**قارن:** „Washington Post", 23.2.2011.

4.**الأرقام وفق:** OECD, Revenue Statistics 2010, Paris 2010.

5.**الأرقام وفق** Elizabeth McNichol, Phil Oliff und Nicholas Johnson, States Continue to Feel Recession's Impact, Center on Budget and Policy Priorities, Washington D.C. 2011.

6.**قارن:** Department of the Treasury/Federal Reserve Board, Major Foreign Holders of Treasury Securities, 28.2.2011.

7 - International Monetary Funds, Fiscal Monitor Update, Washington D.C., 27.1.2011.

8.**قارن:** „Financial Times Deutschland", 10.3.2011.

9.**قارن معطيات سياسة التقشف في**46 **ولاية فيدرالية أمريكية في:** Nicholas Johnson, Phil Oliff, Erica Williams, An Update on State Budget Cuts, Center on Budget and Policy Priorities, Washington DC, February 2011.

حـــــــــــــــوارات

حوار مع المؤرخ والباحث ناجح المعموري

حـــاوره / سعـــدون هلـيل

ناجح المعموري " تولد عام1944- خريج الإعدادية عام 1963 حاصل على دبلوم تعليم، مارسه لغاية1979، حيث صدر أمر بنقله لأسباب سياسية الى وظيفة مدنية.

كانت بداية ناجح المعموري في قرية صغيرة على مقربة من الحلة في محافظة بابل، حيث ولد لأسرة احتوت على مهل اندفاعاته الأولى نحو عالم الإبداع، و منذ صغره ارتبط المعموري بعالم الحكاية والقص من خلال تأثره بالحكايات الشعبية التي اعتادت جدته لأمه روايتها له بشكل متواصل.

غير أن الانعطافة الأهم في حياة المعموري الإبداعية جاءت من خلال تناوله ملحمة كلكامش وكشف المسكوت عنه في هذه الملحمة، إذ أثمر ذلك انجاز ثلاثة كتب عنها بعد طول بحث ودراسة واستقصاء حتى وصفه البعض بأنه " حارس بيت الألواح". قال عنه ذات مرة الناقد علي حسن الفواز: "إننا نملك خزينا هائلا من الموروث الأسطوري، ونملك أصولا واسعة للحضارات المؤسسة للبشرية، لكننا في المقابل نملك فضاءات ثقافية منحسرة، واشتغالات ثقافية مهمشة، فناجح المعموري واحد من الذين أسسوا لشجاعة ثقافية، لأنه يتلمس هذه المنطقة المحرمة (منطقة الموروث) وأعاد ربطها بمنجزات العقل العراقي الذي يعاني من قطيعة هائلة فهذا العقل يبدأ من مراحل متأخرة".

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل هو انطلق يؤلف الكتاب تلو الآخر بغزارته المعهودة متناولا مواضيع عديدة في الأسطورة والحضارات القديمة والنقد الأدبي يجد القارئ عرضا لها في نهاية المقابلة *.

يبدو تعريف الأسطورة للوهلة الأولى من أبسط الأشياء، وهو في الواقع تجريد التجريد، أي هو أصعب الأشياء. قيل أن الأسطورة من كلمة سطر تسطر، ومن قال

أنها من "هيستوريا" باللاتينية، أما الأسطورة في اللغة العربية فيلتبس الأمر عادة بين الأسطورة والملحمة والخرافة والقصة والرواية. وكتب (**بيير غريمال**) في معجمه الشهير وهو يقسم الأسطورة أو ما يسمى بـ " الميثولوجيا " علم الأساطير الى **خمس طبقات**: الأسطورة العليا، الدورة البطولية، الخبر الأسطوري، وحكاية تفسيرية، والطرفة. وهناك من ربط الأسطورة بالمنشأ الديني وهذه مسألة مهمة تناولها الباحث **ناجح المعموري** وهو يحدثنا عن تاريخ الأسطورة و مكوناتها وتاريخ الأساطير الرافدينية وعلاقتها بالموروث الديني.

- ارتباطاً مع حوارنا السابق المنشور في الملحق الثقافي لطريق الشعب (العدد 14) بتاريخ 2011/5/14، سأظل في منطقة تحرك المصطلح وآلية تشكل وسطه الثقافي / الدلالي، وسأسأل عن الهيمنة في علم الاجتماع وهل بالإمكان توظيفها في مشروعك الخاص بالأسطورة والتوراة؟

الهيمنة شكلا من أشكال سيادة خطاب السلطة وثقافتها المخيفة

● أنت منشغل بالمصطلح واشتغالاته وكيفية ترجمته ففي لقاء سابق معك للملحق الثقافي لـ (**طريق الشعب**) المشار إليه أعلاه واجهتني بثنائية الجندر والآن في هذا الحوار تجعل من تغيرات المصطلح بسب الترجمة في مواجهة ذات إحالة مفهومية واحدة وعلى الرغم من أنني لا أجيد لغة غير العربية لكني متابع لسؤالك عبر اطلاعي على العديد من المصطلحات ذات العلاقة مع مشروعي الثقافي والمعرفي وطرحت مصطلح الهيمنة وما حصل عليه من تنوعات. وأنا معك وأقول لك بأن هذا المصطلح اشتغل عليه أو لانحرافي في مفهومي الخاص عن ثقافة السلطة وهيمنتها وأعتبر الهيمنة شكلاً من أشكال سيادة خطاب السلطة وتحول هذا المصطلح منقولاً بمفهوم الفلسفة الى المحيط الثقافي عند (**ميشيل فوكو**) عندما تحدث عن سطوة السلطة وثقافتها المخيفة ووظفه كذلك (**ادوارد سعيد**) في نقده الثقافي للاستشراف وتمركز أكثر فأكثر.

ومن اطلع عليه مفتوناً بدلالته لم ينتبه للأصول الفلسفية التي صاغته غرامشياً وتحقق له فضاء سوسيولجياً أوسع في علم اجتماع ما بعد الحداثة لدى (**بير بورديو**) والمشكلة التي طرحت تبرز واضحة في آليات الترجمة وعلاقتها مع الترجمة. وعلى سبيل المثال أذكر لك بأن كتاب بورديو الصادر عن مشروع الترجمة المصري كان بعنوان سلطة الذكورة لكنه عاد مستقراً كما هو مطلوب منه من قبل بورديو في الترجمة الخاصة بمنظمة الثقافة العربية بعنوان "الهيمنة الذكورية ".

الى هنا والأمر ما زال مثيراً للالتباس فالبنيوية التكوينية اقترحت تطويعاً لهذا المصطلح بالهيمنة أي بسيادة الوحدة البنائية وبدلالة متماثلة في النص، هذا نموذج في علم الاجتماع وخطاب السلطة. وسأشير لأنموذج آخر وهو المجال الذي اقترحه عالم الاجتماع بورديو أيضاً، لكنه انحرف قليلاً بتسميته وتحول الى الوسط لكنه غير مختلف إجرائيا عن الأول. هذه الواحدية والتماثل الدلالي في المصطلح غير مستبعدة في مشروعي الثقافي فهي لا تفضي إلا الى مفهوم إجرائي واحد، وقد وظفت الهيمنة في

ملحمة جلجامش والمجال والعنف الرمزي في واحد من أهم مشاريعي في الأسطورة وهو الخاص بأسطورة نبات اللّفاح حيث تحول مصطلح بورديو "العنف الرمزي " الى الاتصال الرمزي في وسط / مجال التبادل الجنسي.

أخيراً أقول لك مع التباينات في المصطلح بأن الهيمنة هي ثقافة السلطة المتسيدة من أجل الإزاحة والإخفاء. أؤكد لك مرة أخرى بأن مصطلحات علم الاجتماع أكثر التداوليات إمكاناً في التوظيف ضمن حقل الميثولوجيا والانثربولوجيا، ولذا حققت الدراسات الانثربولوجية الحديثة لجيفريد غيرتس انجازات كبيرة في وسط الدراسات الاجتماعية / والثقافية والانثربولوجية، وهو على سبيل المثال اقترح مصطلح النسق، وبلور له مفهوماً من الانثربولوجيا والتأويل وأعتمد على (**بول ريكور**) في ذلك. لذا تعامل (**غيرتس**) مع الدين بوصفه نسقاً ثقافياً ومع الفن باعتباره نسقاً فنياً وثقافياً وأعود الى الهيمنة وتطبيقها.

في الوسط الميثولوجي وتتبدّى كثيرة في العديد من الأساطير العراقية والمصرية ومنها على سبيل المثال ملحمة جلجامش / الخليقة البابلية / آدابا / الفلاح شوكاليتودا / أنكي وننخرساك / سرقة النواميس / أنانا. جلجامش وشجرة الخالوب / ورحلة ايزيس الى مدينة جبيل / الإله سيت وجدل العلاقة مع أوزيريس / آنبو وبايتي.الخ.... واختصر عليك الجواب وأكرر تأكيدي على تطبيقات المصطلح اعتماداً على الذهنية الثقافية التي تتعامل معه ولا أجد صعوبة في ذلك.

- ما هي الأسطورة؟ وما هي مكوناتها؟

الأسطورة كامنة
في تاريخ العراق القديم

● كثيراً ما واجهت هذا السؤال في الحوارات واللقاءات الثقافية والصحفية وأنا أعرف بأنه سؤال بسيط للغاية، لكنه متشعب كثيراً، لأن المفهوم الإجرائي لهذا النوع الأدبي متعدد / متنوع وكل العلوم الإنسانية تعاملت مع الأسطورة واقترحت تعريفاً لها. وتعامل القديس أوغسطين مع الأسطورة والزمن بتعريف واحد، والاختلاف بين توصيفه للأسطورة هو حذف مفردة الزمن وإحلال الأسطورة مكانها وأتذكر قوله تقريباً. لا تسألني عن الأسطورة ؟ أنا أعرفها جيداً ولكن لا اعرف ماذا سأقول ؟ يكشف هذا الرأي الخاص بالقديس أوغسطين معرفته التامة بالأسطورة، لكنه لا يعرف ما الذي سيقول به لأن تصوره لها متعدد / متنوع كثيرا وربما يخلق تشويشاً في ذهن المتلقي. ومثلما تبدّت الأسطورة ـ مفهومها ـ واضحة وبسيطة التعريف، فإنها مثيرة للحوارات، أعتقد بأنها تكون وستظل عميقة بسبب اتساع الثقافة / الفكر / المعرفة وتنوع العلاقات الثقافية بين العلوم الإنسانية كلها. وأعتقد بأن هذا التوسع والتعمق في ملاحقة الأسطورة وحصول طفرات مهمة في مفاهيمها تعبير عن أهميتها ومركزيتها في الحياة الثقافية / والمعرفية / والفنية. وسأحاول تقديم عدد من التوصيفات الخاصة بالأسطورة مع محاولة الإحاطة بأهم المفاهيم التي قالتها بعض العلوم الإنسانية عنها وأعتقد بأنها أكثر المفاهيم قبولاً وتداولاً. قبل الدخول الى التعريف الخاص بالأسطورة أرى بأن الملحق الثقافي لجاودير يعي تماماً المهمة الثقافية ودور الصحافة في

فتح منافذ حول الأسطورة، لأنها الأصول الأولى والمبكرة جداً التي صاغت رؤى وتصورات الإنسان القديم وما زالت مستمرة حتى هذه اللحظة. والمحاولة جادة في سعي الملحق الثقافي من أجل ثقافة متقدمة، تساهم بخلق الوعي الثقافي عبر مفهوم واضح وجيد خاص بالمثيولوجيا، والأسطورة حصرياً. من أهم التعريفات ما قاله العالم المعروف (**مارسيا ايلياد**): أن الميثوس عند الإغريق تعني الحكاية والأسطورة التي تروي قصة مقدسة وحادثاً وقع في زمن البدء سواء أكان ما أتى الى الوجود هو الكون أو جزء منه ولا يروي اليثوس إلا ما حدث فعلاً ويفسر ما هو كائن وموجود فعلاً لذلك فهو قصة حقيقية ويقول: أن الأساطير تنبعث من حاجة دينية عميقة وتوق أخلاقي وانضباطات وتحديات تظهر في صبغة اجتماعية ومتطلبات عملية. وفي الحضارات القديمة البدائية تلعب الأساطير دوراً ضرورياً إذ أنها تعبر عن المعتقدات. إنها تشريع حقيقي للديانة الأولى وللحكمة العملية كما قال (**مالينوفسكي**) الذي وجد الأسطورة بوصفها ركناً أساسياً من أركان الحضارة الإنسانية. تنظم المعتقدات وتعززها وتصون المبادئ الأخلاقية وتقومها وتضمن فعالية الطقوس. وجد علم النفس بأن الأسطورة هي التي تكشف عن حياة الإنسان الحقيقية مثلما تسلط الضوء على خفايا الحياة والكون. وإشارة الى أن الشعب الذي يخسر ميثيولوجياته الخاصة، سيغط بجهل مدقع وسيعيش كارثة حقيقية طوال حياته، لأن إهمال الأسطورة ينطوي ضمناً على فقدان الروح، بينما وجد العالم الألماني الشهير (**آرنست كاسيرر**) في الأسطورة قوة محركة وطاقة فعالة لدفع عجلة التطور والرقي في الحضارة وربما نجد هذا العالم أكثر العلماء المهتمين بالأسطورة، فقد أنجز عدداً من البحوث الرائدة في هذا المجال منها:

1. اللغة والأسطورة.

2. الدولة والأسطورة

3. فلسفة الأشكال الرمزية.

وله رأي مهم للغاية أشار فيه الى أن ألأسطورة واللغة والفن والدين مجموعة من التمثلات الإنسانية أنتجها الإنسان وأبدعها ليحصل منها شبكة رمزية، لها وظائف ثقافية / دينية في حياته. وأشار الأستاذ المفكر **فراس السواح** الى أن الأسطورة لها خصائص تجعل منها نوعاً أدبياً مختلفاً عن غيره ومن تلك الخصائص المميزة لها فنياً هي أن الأسطورة حكاية مكونة من شخوص وحبكة مكتوبة شعراً والسبب في ذلك هو الشعر كان لغة التداول والتفاهم في الحضارات الأولى وكان الشعر وسيلة الإنسان للتحصن ضد النثر.

لا أعتقد بصواب رأي فراس السوّاح في أفضلية الشعر الموظف في الأسطورة لأنه يساعدها تداولياً ويسهل حفظها ويكون لها تأثير في النفس الإنسانية. ومن أهم خصائص الأسطورة المحافظة على بنيته ووحدته النصية. تحافظ الأسطورة على ذلك وتظل زمناً طويلاً في التداول، ويصيبها أحياناً تغيرات أثناء ارتحالها وانتقالها من مكان الى آخر وأحيانا تحصل التغيرات عليها في المكان الواحد، بعد أن تبرز تطورات ثقافية / دينية / وسياسية. وهذا ما يمكن ملاحظته في ملحمة جلجامش وحصراً اللوح الثاني عشر والذي يمثل نوعاً من

الارتحال في المكان واستجابته للشروط الموضوعية / الأكدية حيث تحقق انحراف جوهري في الأصل السومري للأسطورة المعروفة بـ (أنانا، جلجامش وشجرة الخالوب). ومن خصائص الأسطورة، انشغالها بما هو كوني وإنساني/ وشمولي، ودائماً ما تهتم بالخلق والتكوين، الموت وانطولوجيا الحياة والعالم ، ودائماً ما تكون المواضيع أو البنى الفكرية والمعرفية هي ذاتها في علم الفلسفة. ومازالت الفلسفة الى الآن مهتمة بالأسطورة ومنشغلة بها ولأن الأسطورة معنية بما هو كلّي وشامل فهي إذا غير خاضعة للزمن، ودائماً ما يكون زمنها هو المطلق، حتى مكانها في كثير من الأحيان مطلقاً، لكن (**مارسيا ايلياد**) يعتقد بإمكان تلمس الزمن في الأسطورة وخصوصاً عندما تتحين، أي تعيش لحظة جديدة ، وراهنها / زمنها هو الذي نشاهد فيه الأسطورة مستجيبة لعودها الأبدي.

عليّ أن أركز كثيراً وأقول بأن الأسطورة معنية بالديني / الإلهي وهذا أهم عنصر من عناصرها الفنية / والبنائية، وتكاد وبمعزل عن هذه الخاصية أن تتجاور ، متماثلة مع الخرافة .. والديني / الإلهي ما يميزها عن الأنواع السردية الأخرى. وتتمتع الآلهة في الأسطورة بقوة رمزية عالية وطاقة، مثلما تتمتع بسلطة قوية جداً، تتحكم بالحياة والنظام الديني/ والسياسي، ويجب علينا الإشارة والتأكيد على قداستها ووظيفتها المنطوية على عقائد وشعائر مصاحبة لها. من هنا تحوز على موقعها المركزي في حياة الناس والجماعات البشرية التي ارتضتها جزء من النظام الثقافي والديني، وتظل فترة طويلة جداً في ضمائر الجماعات، مهيمنة عليهم ومن الصعب تجاوزها. واتفق تماماً مع الأستاذ فراس السوّاح الذي صاغ مفهوماً شاملاً للأسطورة التي تعامل معها كحكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان.

قال الفيلسوف (**كاسيرر**) عن الأسطورة بأن التذكر الرمزي هو العملية التي بواسطتها لا يسترجع الإنسان فقط تجربته الماضية، بل أنه عن طريقها أيضاً يعيد بناءها. وقال د. مجدي جزيري بأن ما قاله كاسيرر هو السبب الذي جعل الشاعر الألماني (**غوتة**) يعنون سيرته الذاتية بعنوان الشعر والحقيقة. ولم يكن غوتة يعني بهذا انه قد أقحم على حياته عناصر متخيلة أو مختلفة، بل لقد أراد أن يكتشف الحقيقة حول حياته وأن يصيغها. تلك الحقيقة التي ما كان لها أن توجد لو لم تمنح الحقائق المتفرقة والمشتتة من حياته شكلاً شعرياً أي شكلاً رمزياً. ولكاسيرر رأي علمي مازال يمثل حجر الزاوية، وهو مركز كل التصورات والمفاهيم الأسطورية، فالأسطورة ليست خرافات وأفعال غير مفهومة وليست فوضى، لأنها تتمتع بشكل منظم. أن الأسطورة فضاء الرموز والعلامات وهي مجاز. ومن هذه الرموز يتكون الواقع الموضوعي، كما أن الرموز والأسطورة تشكل واقعاً موضوعياً هو اللغة، وتكون الرموز كما ذهب لذلك كاسيرر الى بلورة واقع موضوعي آخر وهو عالم الأشكال الخالصة. نتفق معاً حول الأسطورة التي هي مخلقات الإنسان الأول، مثلما هي إبداعاته الحية والباقية الى الأبد. وعلى الرغم من مضي آلاف السنين على لحظتها الأولى فإنها حتى هذه اللحظة قادرة

على السجن / العزلة ، وتدخل مرة أخرى في حياتنا المعاصرة ويعاد إنتاجها، هي قابلة بالتجدد، لكنها تقاوم خلع ثوبها أو قشرتها.

أما الشطر الثاني من السؤال والخاص بمكونات الأسطورة فإنه سؤال غير واضح، وما هو المقصود بمكونات الأسطورة. سيكون حديثي هنا عن جانبين، **أولهما** افترض بالمكونات العناصر الفنية / والبنائية **وثانيهما** مكونات الأسطورة وسردها. بتركيز أكثر أقول بأن الشخوص أكثر العناصر البنائية تمركزاً في الأسطورة والمكان والحدث، الحكاية السردية، وتتميز شخوصها بسلطة دينية كبيرة جداً ومنها الآلهة والكهنة والملوك الذين دائما ما يظهرون أبطالاً في الملاحم. أما في الأسطورة فهي شخوص إلهية ذكرية وأنثوية ويتشكل الصراع بينهما وينمو الحدث، الأسطوري الذي ينطوي على وظيفة ثقافية / تعليمية ومن تبديات الأسطورة وظيفيا، الخلق والتكوين كما في ملحمة جلجامش وخلق أنكيدو وما قام به الإله أنكي وننخورساك بالخلق الآدمي والنباتي ومن وظائفها الموت / الغياب / وعلى ذلك شواهد كثيرة في الأساطير العريقة. لكننا يجب أن نشير الى أن الآلهة خالدون وموتهم معنوي، وحتى إذا حصل قتل أو اغتيال فإن الآلهة تتحول نحو خلق جديد وآخر مثلما في ملحمة الخليقة البابلية حيث استطاع الإله مردوخ من قتل الأم الكبرى الهيولي تعامت. ويعني الموت المعنوي التعطل المؤقت عن إداء الوظائف الموكولة من قبل كبار الآلهة، وبالإمكان التذكير بموت تموز في أسطورة أدابا وظل حارساً عند باب الإله آنو في السماء. ومن الوظائف الأخرى المهمة هو الوساطة عبر الطاقة السحرية وأشار لذلك فراس السواح ويتضح هذا في ملحمة الخليقة، حيث فوّض الآلهة مردوخ بالطاقة السحرية وهي الكلمة الخلاقة، وأيضاً حصول جلجامش على عشبة الخلود وفقدانها، وتمارس الإلهة الكبرى دور القاضي وإصدار الأحكام.

أما مكونات السرد الأسطوري فهي صوت الأنا السارد / المتحدث الذي يبث الرسالة عبر شفرات موجهة الى عدد من المتلقين وعموما هم جمهرة من الناس التي تتلقى الإخبارات وتتعاطى معها ايجابياً ، لأنها تمثيل لآراء كبار الآلهة.

- ما هي القضية الرئيسية والجوهرية في الأساطير الرافدينية ؟

● ذكرنا في الإجابة الأولى حول الرسالة التي تتضمنها الأسطورة وأهمها هو الخلق والتكوين / العقاب / الثواب / النزول للعالم الأسفل / الانبعاث / الخصب. وبالإمكان الإشارة لشواهد على هذه المهام التي دائماً ما تهتم بها الأسطورة وعلى سبيل المثال لا الحصر، صاغت ملحمة الخليقة البابلي نماذج عديدة للخلق والتكوين وأيضاً تخليق أنكيدو من قبل الأم الأكدية أرورو وكذلك نزول أنكيدو الى العالم الأسفل في الأسطورة السومرية (أنانا. جلجامش وشجرة الخالوب). ويتجلى الثواب في كثير من الأساطير والملاحم وأكثرها تبديات ملحمة جلجامش حيث قدم الآله شمش عونا لجلجامش في رحلته مع أنكيدو الى غابة الأرز. أما النزول للعالم الأسفل كنموذج آخر هو نزول الآله إنليل عقوبةً له بعدما كسر الثابت المعروف في الاتصال الجنسي مع

الإلهة ننليل وعاقبه البانثيون العراقي بإنزاله مؤقتاً الى هناك. أما الانبعاث فقد عرفته أساطير شرقية وليست عراقية ومنها انبعاث الآله الشاب أدونيس بعد مضي ستة أشهر على نزوله للعالم الأسفل عندما تمكن منه خنزير بري. والنموذج الآخر هو الآله المصري الشاب أوزيريس الذي عاود حياته مرة أخرى بفعل من قبل زوجته وأخته أيزيس.

أما الخصب ، فهو جانب من تمثيلات الانبعاث الربيعي بعدما يقيم الإله آنو اتصاله الجنسي الرمزي من خلال منيه / المطر النازل في فرج الأرض، حيث تظهر الوفرة والخصوبة في الأرض والحيوان.

- يعتبر الموت والخلود، من أهم القضايا الأسطورية والدينية، هل هذا يمثل محوراً مشتركاً ورئيساً بين الأسطورة والدين ؟

● كانت العلاقة بين الأسطورة والدين قائمة منذ لحظة البداية الأولى للحضارة الإنسانية وشكلها الأبرز ثقافياً هو الدين، ومازالت الى الآن تمثل الأسطورة جانباً روحياً للإنسان وهي إحدى مكونات وعيه وصاغت مداركه ونظمت علاقاته مع المحيط الذي عاش فيه.

منذ البداية كانت الأسطورة واللغة والفن والدين وحدة واحدة ولم يكن سهلاً الفصل بين هذه المكونات الأربع، وحضورها كلها معاً. ولكن بعد تطورات مهمة وحاسمة، ابتدأ العزل بين الواحد والآخر يتبدى، لأن كل وحدة من هذه الوحدات حازت على وظائف إضافية وتعمقت علاقتها مع الوحدة الأخرى، بمعنى برزت ضرورات ذاتية لكل من هذه الوحدات وموضوعية، بسبب النمو والتطور الحاصل في هذه الوحدات / الأنساق، فتحقق الفصل بينهما وصار لكل نسق مفهومه ووظيفته المستقلة ومجاله مع النسق الآخر، لأنها ـ الأنساق ـ لا تستطيع العزلة عن الآخر، وإنما تتبلور من خلاله وتتضح مساحته أكثر. ولكن علينا أن نسجل بأن أقدم ما عرفته الحضارة الإنسانية هما اللغة والأسطورة وهما يمثلان أقدم تبديات الرمز عند الإنسان كما قال (**كاسيرر**)، وهو الفيلسوف الذي أكد على العلاقة الموجودة بين الفن واللغة، لكنه حريص على توضيح التباينات بينهما، وعلى هذا الرأي تبعه رأي آخر هو الخاصية المميزة لكل منهما. وقال كاسيرر: نستطيع تعريف الفن بأنه لغة رمزية، ولكن هذا يدعنا في نطاق الجنس المشترك ـ كما قال **د. مجدي جزيري** ـ لا في الفارق النوعي. ويبدو أن الاهتمام بالنوع المشترك هو السائد في علم الجمال الحديث الى حد أنه يطمس الفارق النوعي. وأشار (**كروتشه**) الى التطابق الكامل بين اللغة والفن، بالإضافة الى ما بينهما من علاقة وثيقة وعلى تجاوز مركز السؤال والتوجه بعيداً. وأؤكد بأن المشتركات بين الأسطورة والدين كثيرة جداً ويكاد يكون الدين كله أسطورة. أما ثنائية الموت والخلود في الأسطورة وميثولوجيا الشرق الأدنى القديم، فهي متباينة، فقد عرفت الحضارة العراقية قضية الموت كثيراً وهذا ما أقلق الملك جلجامش الذي سعى من أجل البقاء والخلود وأوشك حيازة خاصية الآلهة، لكن الأفعى سرقت العشبة وظل الخلود ميزة تنفرد بها الآلهة، وهي الخالدة أبداً أما في الدين فإن الموت حاصل للجميع لكن الثواب الممنوح للمؤمن هو الجنة.

أخيراً بالإمكان القول بأن الديانات السماوية وظفت الأسطورة توظيفاً خاصاً، لعل الوعظية والحكمة والخوف من أبرز الدروس المستحصلة منها. نعم الأساطير كثيرة للغاية في العهدين القديم والجديد ومنها القرآن وهي معروفة لنا مثل طوفان نوح / الخلق والتكوين / أسطورة يوسف / أسطورة داود وسليمان .... الخ.

- ارتكزت بعض دراساتك على العلاقة بين الأساطير الرافدينية والتوراة، كيف بدأت هذه العلاقة ؟

● الأدب الذي أنتجته الحضارة العراقية القديمة كثير جداً وتنوّع بين الأسطورة / الملحمة / أدب الحكمة / الشعر / الرثاء / الغزل / قصص الطوفان.... الخ. ويمثل الإنتاج الأدبي العراقي ثروة إنسانية ولأنه الأسبق، حيث تم تدوينه في الألف الثالث قبل الميلاد، كان تأثيره كبيراً على الحضارات الأخرى، أي تمكن هذا المنجز الهائل من قبول الحوار معه واستجاب له الآخر وتماثل معه. وهناك كثيرة في التوراة حصل التفاف عليها وإعادة صياغة لها، في محاولة للتعتيم والتكتم عليها.

ومن خلال اهتمامي بالعلاقة المشتركة بين الأساطير العراقية والتوراة، حاولت في كثير من الكتب الصادرة في بيروت ودمشق وعمان وهي مذكورة بداية، أن أتابع التأثير العراقي على الأسفار التوراتية المعلنة عن أصولها ومكوناتها، لكن اللاهوت اليهودي يتخندق ضد الينابيع التي غذت الأسفار التوراتية التي كتبت ثلاث مرات، كان آخرها في الأسر البابلي، وتطفو الأسفار الخمسة المكونة للعهد القديم على بحور أدبية عراقية وعقائد وطقوس وشعائر. وتعامل العبران والمركزية الغربية مع التوراة باعتبارها المأثرة الثقافية الوحيدة في العالم، وهذا كلام غير دقيق. وما يؤكد عدم صوابه ما توصلت أنا إليه في كتبي: الأسطورة والتوراة / موسى وأساطير الشرق / التوراة السياسي / أقنعة التوراة / أساطير الآلهة في وادي الرافدين / أسطورة اللفاح وعقائد الانبعاث الكنعاني / ملحمة جلجامش والتوراة ، هذه الإصدارات وستصدر لي في بداية العام القادم ثلاث كتب عن دار المدى في دمشق، وواحد منها هو (التوراة وطقوس الجنس المقدس) ولدي مخطوطات أخرى في هذا المجال الثقافي المشترك وأستطيع الإشارة للتناص بشكل سريع ومركز.

ولا يكاد سفر من الأسفار الخمسة يخلو من التأثير الواضح أو الخفي بالأنظمة الفكرية والدينية في حضارة العراق وبلاد الشرق الأدنى مثل سوريا / لبنان / فلسطين / مصر. والسطو واضح، لأن العبران تنكروا لذلك وعدد قليل من علماء التاريخ والحضارة في أوربا أكدوا المجاورة الثقافية والمحاورة، ومن يتغافل عن ذلك يتنكر لحقائق الحوار الثقافي والمعرفي وعلى الرغم من ذكاء البنية الذهنية العبرانية فإن المؤسس المعرفي يومئ لتمركزه، باعتباره مهيمنة، لا يمكن لها أن تختفي وسط المتغيرات الحاصلة أثناء النقل والترحيل لأن النص الأول يظل متجسداً ببقاء ثابت ومستمر، ويشير لحاضنته المنتجة له وبقوة:

ونحن نعرف بأن العبران عاشوا في مناطق عدة، وأخذوا منها موروث تلك البلدان وأساطيرهم وعقائدهم. ولأن الثقافة / الدين العراقي له مساحة واسعة ومبكرة لم يستطع اليهود مقاومة تأثيره في فترة وجودهم في

بابل وآشور وبالإمكان التذكير بالأساطير السومرية الزاحفة نحو التوراة ومنها: ايميش واتنين [قابيل وهابيل] ولهار/ انكمدو ودموزي / أسطورة أنكي وننخرساك ، ومن الأساطير البابلية المعاد صياغتها توراتياً تموز والتنين / ولادة البطل المنقذ موسى / المعذب البابلي / عشتار / جلجامش / ملحمة الخليقة البابلية / السبت العراقي.

إذا أردنا الإشارة لانتقالات نصيّة شبه كاملة فعلينا الإشارة لملحمة جلجامش والتي تكرست في سفر التكوين وقد درسنا ذلك عبر التفاصيل بكتابنا (ملحمة جلجامش والتوراة) الصادر عن دار المدى ولابد من التلميح للتناصات والقول بأنها ذوبت في سفر التكوين وحرصاً منذ الإصحاح 37 ولغاية الإصحاح 50 وهو نهاية السفر وتعامل الكهنة الذين كتبوا سفر التكوين بذكاء مع المؤثرات العراقية واعتمدوا على الرموز والعلاقات الأسطورية التي تذكرنا بالملحمة والغريب في التأثير العبري هو التماهي بين الملك جلجامش في ملحمته وبين يوسف التوراتي، ويعكس هذا حلم العبران بالملوكية المبكرة ومنحوها ليوسف.أما أسطورة البطل المنقذ موسى فإنها مكونة من عدد من الأساطير منها عراقي، جلجامش وسرجون الأكدي ومنها مصري وهذا ما أشارت له الأسطورة التوراتية مع حكاية عن حي بن يقظان ولا أريد الاستفاضة في حديثي عن ذلك وبالإمكان العودة الى كتابي: (موسى وأساطير الشرق) درست في واحدة من البحوث تنوعات البنى الأسطورية التي صاغت أسطورة البطل ولابد من الإشارة أيضا الى أسطورة ولادة زرادشت وأيضا يسوع / المسيح. وأستطيع اختصار الحديث عن دور المنقذ في التاريخ بمجموعة من المكونات والصفات والمميزات التي لا تتوفر بغيره ومنها قدرته على التكيف مع الظروف الطارئة والغريبة، محمياً بقوة أو مجموعة قوى غير مرئية، تناصره وتمد له يد العون، كلما وقع في مشكل ما.

وهذا التتالي بإنقاذ المخلص الديني / والتاريخي، يضفي حول شخصيته هالة أسطورية، تتكرس بها شخصيته في الوجدان الجمعي ونموذج هذا المنقذ في التاريخ هو إبراهيم الخليل، الشخصية المتماهية مع شخصية (**زرادشت**) الفارسي والتي ظن الكثير من الباحثين بأن زرادشت هو إبراهيم الخليل وهما يتناصان أيضاً مع شخصية بوذا الذي استعارته المسيحية لشخصية يسوع.

أما أسطورة اللفاح التي درستها في كتابي " تأويل النص التوراتي" أسطورة اللفاح/ عقائد الانبعاث الكنعاني/ وصدر عن المدى في دمشق درست فيه هذه الأسطورة التي وردت لها أشارة موجزة جداً في الإصحاح 30 من سفر التكوين وتتبعت الأساطير الخاصة باللفاح منذ اللحظة السومرية، حيث وردت له إشارات في المخطوطات المسمارية وأشار له الأستاذ حكمت بشير الأسود في كتابه عن أدب الغزل والجنس ولاحقت هذه الأسطورة كاشفاً عن مكوناتها وحركتها وارتحالها حتى استقرت في التوراة، وهي مازالت حاضرة عند العوائل الفلسطينية المقيمة في الأردن وأخبرتني العزيزة د. رفقة دودين بأنه يزرع في حدائق بيوت الفلسطينيين.

أما السؤال الخاص بعلاقة الدين

والأسطورة، فقد أشرت لذلك وأؤكد بأن الدين في مروياته الكثيرة أساطير معلومة ومعروفة ووردت إشارات لها في القرآن.

- ما هي العلاقة التناصية بين القرآن والتوراة ؟

● الثقافة السائدة في العراق والشرق وحصراً سوريا/ كنعان/ مصر مهيمنة كذلك في العقائد والطقوس والشعائر السحرية. لكن هذا لا يعني عدم وجود الأساطير في الكتب المقدسة، والتوراة أول هذه الكتب، حيث انتقلت ملحمة الخليقة البابلية الى سفر التكوين وكذلك أسطورة إبراهيم، ولابد من الإشارة الى ملحمة جلجامش التي تمركزت في سفر التكوين، وهو ما نبه الدارسين والباحثين لاقتراح درس أكاديمي توراتي في الغرب هو اكتشاف لوح الطوفان من قبل جورج سميث 1875 مع هرمز رسام. وأوضح هذا اللوح العلاقة القائمة بين الأساطير العراقية ومنها الطوفان وأسطورة نوح في التوراة وأجد من الضرورة التذكير بأسطورة موسى ذات الأصل العراقي والمصري، وهي أسطورة خاصة بالبطل المنقذ ودرستها في كتابي (**موسى وأساطير الشرق**) الصادر عن الدار الأهلية في عمان، درست فيه الأصول الثقافية والفكرية لأسطورة المنقذ التي اشتغلت عليها ثمانية ديانات وإذا أردنا المرور على الطقوس الشهيرة في العراق القديم أجد ضرورة التذكير بطقوس الجنس المقدس والمحفوظة بشكل جيد وهناك العديد من النصوص الشعرية الخاصة بذلك، وكانت تجري مراسيمها - على سبيل المثال - في عيد الأكيتو، وبدأت طقوس الجنس المقدس في سومر منذ الألف الثاني ق.م واستمرت حتى بلاد آشور وتناصت التوراة معها وحصراً في سفر نشيد الإنشاد.

هذه وغيرها تجاورت معها التوراة وارتحلت أيضاً أغلب هذه الأساطير - باستثناء الجنس المقدس - الى القرآن وبأشكال متباينة وأكثرها تبدياً أسطورة يوسف.

لكن علينا أن نؤشر ملاحظة جوهرية وهي موضوعية النص القرآني المختلف كلياً عن التوراة فقد صاغ النص القرآني أسطورة يوسف بطريقة موضوعية أقرب الى الواقع والعقل وحصل تركيز وإلغاء لكثير من التفاصيل التوراتية، لأن القرآن كتاب مقدس، أبرز ما يميزه هو التركيز واللغة والبلاغة العالية وهي معجزة القرآن.

أما الطقوس والشعائر فهي الأخرى ارتحلت الى الإسلام الذي أجرى عليها تهذيبات كثيرة وقد درس د. سيد محمود القمني أكثر من طقس ديني مثل الحج والطواف حول الكعبة. ومن يرغب بالاطلاع على الكثير من هذه الارتحالات وحصراً نحو التوراة فان العودة الى كتبي التي أشرت لها في الإجابات الأولى، كما أعتقد بأن هذا السؤال، كرر سؤالاً أسبق منه.

وباختصار شديد توجد في المكتبة الثقافية والمعرفية مصادر كثيرة ومهمة للغاية عن الأساطير قبل الإسلام وهي عراقية/ سورية/ مصرية وانتقلت أكثرها الى الإسلام ولكن بعد تطويع لها وبإضافة رؤية مختلفة للدين الجديد /الإسلام. وأستطيع القول بأن القرآن أكثر الكتب السماوية المقدسة تركيزاً على نظام الانبعاث والخصوبة في الحياة والعالم ولم يكن هذا التمركز عبر الأساطير وإنما من خلال

الرموز/ والعلاقات الدالة على ذلك.

* بعض من المنجز الإبداعي للمؤرخ والباحث **ناجح المعموري**

- **أغنية في قاع ضيق**
- **الشمس في الجهة اليسرى**
- **رواية النهر**
- **شرق السدة.. شرق البصرة رواية**
- **مدينة البحر رواية**
- **الأسطورة والتوراة**
- **موسى وأساطير الشرق**
- **أقنعة التوراة**
- **التوراة السياسي**
- **نون والقوس**
- **الأطراس الأسطورية في الشعر العربي الحديث**
- **الأطراس الأسطورية في السرد/ فاروق وادي أنموذجا**
- **أساطير الآلهة في وادي الرافدين**
- **تأويل التوراة/ أسطورة اللفاح/ عقائد الانبعاث الكنعاني**
- **ملحمة جلجامش والتوراة**
- **التفاحة والنادي**
- **خطوات المطر**
- **فان ايرويتك وأسطورة الثلوج الخضراء**
- **المسكوت عنه في ملحمة جلجامش**
- **تقشير الأسطورة أنانا. جلجامش وشجرة الخالوب**

أدب
و
فن

عن المسرح الشعريّ

(حوار مع عبد الكريم كاصد)

أجراه خالد السلطان

● ***اتسمت أغلب المسرحيات الشعرية "العربية" باشتغالها على الثيمات أو الموضوعات التاريخية، وبغائية إسقاط الحاضر على الماضي وبالعكس، وكأن المسرح الشعريّ متقاطع مع التاريخ والإنسان المعاصر. ما رأي الشاعر عبدالكريم كاصد بهذه الإشكالية؟***

– التوجه إلى الثيمات أو الموضوعات التاريخية يكاد يكون طابعاً عاماً لا يقتصر على المسرح الشعري، ولا على مسرحنا العربيّ، فقد شهدت بلدان عديدة كانكلترا وأمريكا مثل هذا التوجه في فترات معينة في تاريخها، كما أن هذا التوجه ساد أعمال مسرحيين كبار كبريشت لأن الماضي يبدو في كثير من الأحيان أكثر وضوحاً من الحاضر في علاقاته وأقلّ تعقيداً. ولعلّ ما يجعله أكثر وضوحاً هو التراكم المعرفي والمناهج الحديثة المتطورة القادرة على جعل أشدّ مفاصله غموضاً أقرب إلى التناول والفهم. وإذا اعتبرنا الماضي مكتملاً، زمنياً، فإنّ الحاضر هو مشروع إمكانات شتّى غير قابلة للإمساك وعرضة للشك. هذا بالإضافة إلى إنّ لغة الماضي غالباً ما تكون منقذاً في إحالتها لغة المسرحية إلى لغة مفترضة ذات صوتٍ واحدٍ قريب من التجريد وليس إلى لغة حية واقعية يتميز بها الحاضر، فإذا كانت لغة الماضي مفترضة فإن لغة الحاضر غير قابلة للافتراض أمام المشاهد التي ينطقها.

ثمّة تصورمن الصعب إزالته من ذهن البشر هو أن الماضي ليس مكتملاً من الناحية الزمنية حسب وإنما هو مكتمل أيضاً من ناحية أفضليته على الحاضر..

مثل هذه العوامل وغيرها تجعل الحاضر تعليقاً على الماضي والماضي إضاءة للحاضر ويصبح التداخل متشابكاً فلا تعرف أين يتجسد الواقع في حاضره أم ماضيه، وهنا تكمن المفارقة في مضمون العمل المسرحي، مثلما تكمن مفارقته في لغته عندما تتحدث المسرحية بلغة الماضي التي يتكلمها الممثلون جميعاً أبطالاً وشخصيات ثانوية دون أية فوارق في اللهجة أو التعبير. وهذه ليست محنة المسرح

الشعري بل المسرح عموماً، لذلك من النادر أن تجد مسرحية شعرية استطاعت أن تتجاوز هذه الثنائية القاتلة: التجسيد الذي يستحيل تجريداً، والأصوات العديدة التي تستحيل صوتاً واحداً، غير أن ما يستأثر بانتباهنا، في هذه المسألة، هو كيفية التعامل مع الواقعة التاريخية في المسرح الشعري والمسرح عموماً: هل نحن الذين نمنحها تفسيراً جديداً أم هي التي تمنحنا تفسيراً ليس بالضرورة أن يكون جديداً بقدر ما هو معبر عن جوهرها، المتمثل بما هو خاص ثانوي من شخصيات وأحداث وليس بما هو عام مجرّد، عبر مخيلة قادرة على استيعاب هذه الواقعة وتجسيدها ثانية في الحاضر؟.

ثمة مفارقة أخرى قد تواجهنا أيضاً في المسرح الشعري هي الغنائية التي يمكن أن ترفع النص المسرحي إلى ذرى عالية ولكنها قد تكون عائقاً في تطور المسرحية ذاتها، مثلما تكون سببا في هبوط قيمة المسرحية إذا كانت غنائية منقطعة عن النص لا تحمل أي طابع درامي. ومما يعمق هذه المفارقة إنّ المسرح الشعري سعى، على يد بعض أعلامه، إلى الحدّ من شعرية اللغة وغنائيتها كما هو الحال بالنسبة إلى إليوت، بينما سعى المسرح النثري الذي جاء بعده كمسرح بنتر وبيكيت إلى جعل لغة المسرح أكثر شعرية حتى من لغة الشعراء أنفسهم في الوقت الذي يتجه المسرح، من جهة أخرى، إلى الحدث الآنيّ كما في مسرح بيتر بروك.

مثل هذه الإشكالات وغيرها تجعل من تناول الحاضر أشدّ صعوبة.

● ***إلامَ تعزو ابتعاد الشاعر "العربيّ" الحداثي عن اقتحام عالم الكتابة للمسرح وبخاصة شعراء قصيدة النثر؟***

– يمكن أن يكون ما ذكرناه في إجابتنا السابقة سبباً من أسباب عديدة أسهمت في ابتعاد الشاعر عن اقتحام عالم الكتابة للمسرح الذي يتطلب وضعاً مستقرّاً وإمكانات لايمكن أن توفرها حتى المجتمعات المتطورة التي تشهد هي نفسها انحساراً في نشاط المسرح، إن لم نقل أزمة، ولعلّ اللجوء إلى مسرحيات الفصل الواحد أو المسرحيات التي لا تحتاج إلاّ إلى عدد محدود من الممثلين هو أحد مظاهر هذه الأزمة التي تتجاوز شعراء قصيدة النثر إلى ما هو أبعد من قدراتهم الذاتية التي هي نفسها على المحك لا في تعاملها مع المسرح وحده، وإنما مع الواقع ذاته بوقائعه وتشابك علاقاته وأوهامه أيضاً.

غير أن هذا المتطلب وما يرافقه من متطلبات أخرى لا يعني أن ثمة قانوناً عاما لا استثناء له، فما من مطلق في الفن غير أن ثمة ثوابت عامة من الصعب تجاوزها. لايمكن أن يتأسس مسرح حقيقيّ، ولاسيما المسرح الشعريّ، في واقع مضطرب تكاد أمّيته أن تكون شاملة تشمل الشعراء أنفسهم.

أودّ أن أضيف أنّ المسرح الشعري ليس شكلاً واحداً: قصيدة نثر أو تفعيلة أونثر شعري وما شابه وإنما هو محتوىً أيضاً قد يستخدم الأساليب كلها بما فيها القديمة وهذا ما فعله الشاعر الإنجليزي توني هاريسون في مسرحياته إذ رجع إلى تقاليد الشعر الانجليزي القديمة لخلق التأثير الدرامي المطلوب.

لعلّ في سؤالك إشارة إلى ما تتضمنه

قصيدة النثر من قرب إلى لغة الواقع –وإن لم نشأ أن نكون أكثر إطلاقاً– إلى ما تتضمنه من قرب إلى لغة الحدث اليومي، وهذا صحيح إلى حدّ ما ولكن ثمة انفعالات في الحياة لا يمكن أن تنعكس في المسرح إلا عبر الشعر الذي يفارق هذه اللغة أحياناً.. هذه الانفعالات نختبرها جميعاً.. انفعالات تتبدّد حين تنعكس نثراً، ولا يمكن القبض عليها إلا بالشعر المفارق للغة الحديث اليومية ومثالنا أبيات شكسبير الخالدة والبليغة حتى عبر الترجمة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى إن أغلب شعراء قصيدة النثر لا يزالون يدورون في عالم خاص وقد لا نجد في مكونات ثقافتهم ما يسمى بالثقافة الشفوية الضرورية للشاعر الذي يكتب للمسرح والذي يضع نصب عينيه أن الشعر للإلقاء وليس للقراءة فقط.

● ***هل يمكن القول إن الشاعر المعاصر مازال يغلّب الصوت أو اللسان المنفرد، أو الإفرادي، على تعددية الأصوات واختلاف الألسنة، أي تغليب الميلودي على الدرامي؟***

– في سؤالك ثمة أجابة ما، هي ليست بعيدة عن الحقيقة. أجل، يمكن قول ذلك حين تكون ثمة مسافة بين الذات والموضوع، بين الذات والآخر، بين التجربة التي تفرز أصواتها وبين الصوت الواحد الذي يتظاهر بالتجربة، بين الشعر والواقع، بين المخيلة والشعر. بين الشاعر والوسط الثقافيّ حين يكون هذا الوسط متخلفاً، عاجزاً عن رصد ظواهر كثيرة في واقعنا الثقافيّ وهو لكي يعوّض عن تخلفه وعجزه هذين نراه محموماً في الركض إلى أمام للحاق بما هو ظاهر من مستجدات عصرٍ مقطوعةٍ عن أيّ جذرٍ لها في واقعٍ أو تاريخ.

أين هي الترجمات الجادة التي تعكس لنا التجربة الغنية التي عاشتها الثقافات الأخرى. واين هي الدراسات؟ اطلعت على سلسلة شهيرة للدراسات المسرحية المترجمة،شديدة الإبهار في ظاهرها فوجدتها مخيبة في ترجمتها وطابعها الأكاديمي الباهت والاقرب إلى الطابع الصحافيّ.

● ***ما تقويمك لتجربتك في كتابة النص المسرحي؟***

– لم تتخذ تجربتي امتداداً لكي يتسنى لي تقييمها، إذ توقفت عند بدايتها. كان يفترض أن تعرض مسرحيتي في بلدان عديدة، أوربية وغير أوربية، من بينها الولايات المتحدة ولبنان والإمارات ولكنّ الإمكانات المادية حالت دون ذلك. صرف على العرض الأول ما يقرب من مليون دولار لأن هناك فرقة أوركسترالية تعزف موسيقى سترافنسكي تقابلها فرقة عربية، و ممثلين إنجليز لم يكن المخرج راضياً عن تمثيلهم مما يتطلب استبدالهم وهذا يعني تدريباً جديداً وصرف مبالغ أخرى. كلّ هذه الظروف وغيرها حالت دون امتداد هذه التجربة التي يمكن أن يكون لها صدى في بلداننا العربية خاصة لما احتواه العرض من متعة أسهمت الموسيقى والشعر وكفاءة الممثلين العراقيين الذين أبدوا مهارات وقدرة باهرة على التعلم السريع، وتمثل ملاحظات المخرج.

لم أتقيّد بأسلوب شعريّ واحد في ترجمتي للنص الشعري من اللغة الفرنسية، كما إنني لم أتحدد بعالم المسرحية بل أضفت وأبدلت مشاهد عديدة وهذا ما فعلته

مترجمة النص الفرنسي إلى اللغة الإنجليزية قبلي مما اضطرني، بتشجيع من المخرج ذاته، الى القيام بالفعل ذاته.

كان في تقديم النصين الإنجليزي والعربي على المسرح جرأة وجدّة واضحتان.

من المؤسف أنني لم تتهيأ لي فرصة أخرى لعمل آخر وهذا جزء من وضعنا المحير الذي يبدو فيه الشعر والمسرح واقعين مختلفين. لقد وثق المخرج الإنجليزي ومنحني ثقته الكاملة في التصرف بالعمل منذ لقائنا الأول، وهذا ما نفتقده في عالمنا العربيّ الذي لا تجد فيه مكاناً ملائماً حتى لطبع أعمالك أو ترجماتك . إنه واقع باعث على السخط.

● ***هل وجدت مفارقة بين خطاب النص الدرامي الذي كتبته وخطاب العرض المسرحي. بمعنىً آخر هل حوّل "المخرج" النص إلى مجرّد مرجعية لعرض مسرحي مفارق؟***

– كان المخرج شديد التقدير للنص الذي كنت أترجمه له ولكنّ هذا لا يعني أنّه لم يكن فاعلاً في مقترحاته التي كانت في أغلبها مفيدة في تطوير النص. ما حدث هو مفارقتي، أنا نفسي، لنصي الأصليّ الذي اخذ ينمو وينمو لكي يكون أقرب إلى النص الأصليّ في روحه وأكثر أبتعاداً عنه في آن واحد، في أسلوبه الخاص أو بالأحرى في أساليبه الخاصة. لقد كان النص يكتسب إيقاعه الخاص تدريجياً حتى في نثره، عبر تمثل النص الأصليّ والخبرة المشتركة مع المخرج والممثلين معاً. كان للشعر دوره في ارتفاع المستوى الدرامي للمسرحية التي أحالها أصداء تلتقي مع موسيقى سترافنسكي والموسيقى العربية في روح المشاهد وهو يغادر المسرحية ذاتها.

● ***العديد من نصوصك الشعرية لا تخلو قطعاً من أبعاد سردية ودرامية، فهل تجوّز للمسرحيين تحويلها إلى عروض مسرحية؟***

– شكراً لك أيها العزيز خالد على تشخيصك هذا والذي يشاطرك فيه – لحسن الحظ– عدد من النقاد الذين تناولوا شعري مؤكدين على هذه الأبعاد. لا أعتقد أن هناك شاعراً لا يسره تحويل أعماله إلى عروض مسرحية لتهب أشعاره أشكالا عديدة أخرى إن لم نقلْ محتوى جديداً من خلال هذه الأشكال ذاتها.

يحضرني هنا رأي لعله لأليوت هو أن كلّ شعر جيّد هو بطبيعته شعر درامي، لأنه شعر أوسع من الذات التي قد تجد تعبيرها في الآخر سواء أكان هذا الآخر ذاتاً أخرى أو موضوعاً، مثلما تجد هذه الذات الأخرى صورتها في تجربة الشاعر في هذه القصيدة أو تلك، دون أن تستنفدها، تماما كعلاقة المسرحيّ بشخوصه وما تحمل من تأثير وتفاعل وتطور عبر التجربة المتجسدة في النص وليس عبر الأفكار حتى وإن كانت هذه الأفكار على قدر كبير من الإبهار، وبذلك تنأى التجربة في النص المسرحي أو الشعري عن أن تكون تجربة معزولة أو منغلقة ذات صوت واحد. التجربة تتضمن الفكر بالضرورة أو تكون باعثاً على التفكير أما الأفكار فقد لا تعبر بالضرورة عن تجربة بل تفقد أهميتها حتى كأفكار حين لا تجد تجسيدها في القصيدة أو المسرحية عبر تحولاتها وتطورها.

شكراً لك مرة أخرى

اعتقالي من منزلة فقدانك

علي ابو عراق

1

لن استسلم لحكمة غيابك

ولن ادعي

أمام سورات حنينك

ولا أجلس

على كرسي اعترافك

لأنك غدرت بي

وتركتني وحيدا

اقلب وجهي كورقة زليلة

في مواجهة النسيان...

وعصف الذكريات

لذا أعلنت عصياني

عليك

2

ظننت أني أعرفك جيدا

مثل معرفتي بخطوط راحة

لذا كنت على يقين

بأنك لا تخضع لتعجل مشيعيك

ولا تتماهى

مع لعبة احزانهم

وستنسل فجأة

لتشبع نفسك اضطرارا

بقامتك الزهيدة

تخرج من زاوية ما ..

أو جدار.... ما

لتفلت من شجنهم

المصطنع او المرائي

الذي أثقلته زخات مطر مفاجئ

وتعكر طقسهم بدعاباتك ...كالعادة

بعد أن تعمل من يديك بوقا

وتصرخ

.....

لا آله إلا الله

قاسم ياصديق الله ....

3

ولما كنت اعتقد أيضا

أنك لن تستسلم أبدا

كآلهة معتد بنفسه

لا تعترف

بسطوة الغياب

أو ترقب الغفران

وكعادتك

تهزأ بكل شيء..

بالسماء

والشفق

وهزيج الملائكة

والأرض

وحداء البدو الرحل

والمتوطنين

والغرب الأمريكي

وما يقدسه المكارثيون

وبالأفق

وما يخبئه الماوراء

والجنازات..

والصحف ..

والتقاويم

والأرباب

و الأعياد

والقصائد المهجورة

والوصايا

والمشاهد

و الممتلئين المحتجين على مخرجيهم

كنت ببساطة لا تحفل

إلا بمن ينازعون

الحياة على بكورتها

والليل على اصباحه القادمة

والنهارات على شموسها الضائعة

والحكايا على أعمق أسرارها

وبمشاكلك...

الذين يذبحون الشمس كخراف الأضاحي

على مشارق الفقراء.

لم يكن هذا حلما

أيها الأمير الخرافي.....

لأن النجوم

تحدق الآن دامعة بقبرك الموحش

4

هل أتذكرك ..؟

لتبديد وحشتك

أو لعتقي.....

من كربلاء فقدانك

5

خمسة كنا

السريالي مصطفى ياسين
الذي كان يرتق بقلبه المنهك
عثرات الايدولوجيا ...
وطيش الآلهة
وخسارات أسلافه في اليرف
قرية الكائن الأزلي
المنشطر على نفسه
قائسوا ذكورتهم
بفورات بطيخهم
ويغنون على ايقاع شجنهم
بسرية وصوت خفيض
حبني يالحبيتك
ردتك تمر خضراوي

6

والخفيف الثقيل
ابن عباس
الذي كان ينازع النسور على مخالبها
طيشا أو كمدا
أو في انتظار ثورة قادمة
يئس منها
بعد عصيان رقبته التي كانت نحيلة
على الحبل
فقرر أن يلعب مع النبيذ
لعبة القط والفأر ...
ولكن متأخرا جدا

7

وخضر
الأخضر اليانع ..
العبق
الذي راود الليل على نجومه
وناجز الأفق على ريحه الشمالية الخضراء
وقار النهار
إلى موضع الحب والآصرة
فاخضرت أصابعه صبابة
لربيعات لا تأتني

8

وأنا وأنت
الإشكاليان الأزليان
المختلفان في كل شيء
والمتفقان على كل شيء
اللذان يقضيان ساعات رصاصية
في التحقق من هوية أفراخ السردين
أو ما حملت المدة في صعورها
من غرائب الكائنات
عن أصلها أو فصلها
عن ما قرأت من كتب في صباها
ولكن دون أن نتساءل

هل ثمة ما يقال للبحر

أو لنوارس

تبحث عن سمكة تائهة

في عرض الليل

وضيق البحر

أو لرحيلك المستهتر الباكر

جدا... جدا

هل نسيت يا بن علوان

بأنا كنا نبتكر عوالم هائلة النسيان

دون سماسرة وخرائط

و نشق بحورا من النور في قلب الليل

ونفرس غابات من الوجد الطبقي

دون بوصلة أو دليل

هل نسيت كل هذا.؟

وتعجلت الرحيل...؟

9

أكل هذا لتستغل رهافتي..؟

وضعفي الأزلي .؟

وتسقطني في جب رعاباتك

فانا حفظتك منذ أربعين عاما

كنشيد مدرسي

أقول محتدا

دون أن أذكر الأخضر ابن يوسف

ليس من اللائق

أن تطرح علي سؤالك وأنت تقهقه

كأنك تستغفلني...

وتسألني بالحاح

أين أجد قبرا لا تنازعني عليه الشموس..؟

لماذا تناكرني كعادتك

باقتراح الغياب

ونحن نعرف بعضنا

قبل أن يخسر

الزنج معركتهم الأولى

أصرت غريبا في البحر

أم البحر غريبا صار

يا ابن علوان

لماذا كل هذا التهكم

أنسيت أنك قرجي طفولتنا

وسندباد منافينا

وشيخ قطنا

وسماء ثرياتنا القارصة

لماذا تعجلت الرحيل

أزن..؟

البصرة

سويعات الرحيل

غالي الخزعلي

إلى كل الطغاة الذين سيرحلون طال
الوقت أم قصر وأنوفهم معفرة بالخزي.
أنهض يا سيد المترفين
انتهت اللعبة
ياسيد الحرير والحريم
احترق ريش النعام القديم
وصاح بيت الطين
وأمتدت الخطوة
لاتعاق على الانباء... لا تقول
الانباء نعرفها
ونعرف ما في الجعبة
الملل الدائم سبب في امراض الرأس
فليتوقف زمن النخبة
ولنعلن زمن الصحبة
ولنشرك كل المهور الحاضر...
ولنشرك كل الجمهور الغاضب... عذراً
لنشرك كل الجمهور المتفرج في اللعبة
أخرجْ
وجهك متوحش أرمد
وقسماتك لا عرس للبسمة فيها
أخرجْ
خروجك مناسبة كبرى
وعيد ووليد يعنيني
ومفاجأة ليست بالحسبان
أمسيت غراباً... وحولك مجموعة غربان
طعنت عمرك
مسحت أثرك
فار التنور بعروقك
وفقد الوعي
(أصحَ يا نايم أصحَ يا نايم)
فاليوم حساب الاقدار
قدر يصنعه الثوار
قدرك يترك أثراً مراً
في الدرب وفيك
وفي الصوت الهاتف ثمراً حلواً
يرعب فرعون وعاد
ويعني اخوتك الباقين ويعنيك
أرحل... طلبي غضب
أرحل.. صوتي جيش
وأنا واضح.. واضح جدا لا تأجيل
أخذت مدارات الفرصة.. كل الفرصة
لا تتوسل يا متسول
لا تتحجج.. يا مالك بعد الله الملك
جنات عدن في كفيك

لا فرص أخرى
لحيات الفرعون و أفراخ الحجاج
وأنا ما عندي الخضر ولا موسى
والموقف حازم حاسم
لا يقبل تأويل
ماء أجاج في سفنك
وماء صاف أزرق
يفصل في البحرين
سفنك يا اسفك
اقلقها التغيير
عاصرها التبديل
لا بد الموج يثلم جرفك
لا بد يغطيك
وأزل الطوفان الطاغي
يزلزل صباحات
الملكة والشيخة والخانم
ومن سقف متاهات السلم
ينزل فيك
تجثم في صدري
تكتم انفاسي
تراقب بشغف احساسي
تتربع رؤيا التابوت بأحشائي
آه من زحف الموت بأشيائي
في النوم أراك
في الخوف أراك
في وجهي أراك
كابوسا يمضغ بلهف آرائي
وأصرخ آه يا وجعي يا راسي
يا وجعي يا راسي
ملت روحي.. ملت روحي..
انطفأت روحي
منذ العصر العباسي

ضع يدك فوق سطور التأريخ
خذ تأريخك
خذ حاشيتك
ومباهج (فبركة الدولة)
والامن الوطني ...
القلق الوطني والقلق القومي
وخذ أميرات وعودك
لكن أعفيني من وطنياتك
وأعفي القادم من أولادي
فأنا أهوى جحودك

(البَرِيقة) تبرق في العيون
والاخ يقذفها جنون
وصنعاء وتعزم والحُديدة والجنوب
مدن زرقاء تحتضن الضنون
والابيض المتوسط
والقناة والخليج
والاحمر القرين
قافلة تحمل الرصاص والرفض
والصيحات والعويل
لكم عيون... ولا تبصرون
لكم سمع ... ولا تفقهون
أزفت علامات الرحيل

جف عرق الماء
يبس الكلأ
وصوت الارض أزن
وحاريكم توزر ... وحاريكم تحضر
والشيء يعرف بالدليل
الا تصدقون .. ألا تستوعبون
عقول صحراء ...والصحراء حافية
وقلوب من رنس المدينة
وتلك ما عارت أمنية
لهذي اجراس القيامة

تلك اضواء المنامة
وفي الصبح افراح اليمامة
ألا .. تتفكرون
تبجانكم وقصوركم
آيات لهم .. آهات رم
الملك ملك الناس بعد الله
لا ملك الخليفة
ألا تتفقهون..!!
ألا تستوعبون
و (أي منقلب تنقلبون)

يوم آخر..

نضال القاضي

لأبي ثلاثة قبور..
الأول حين وخزت أمي بأصابعها بطن
الأرض:
لا تنامي!.
الثاني حين استيقظ أبي بعد حربين ليخبرنا:
أن شجرة التوت الخلف البيت أختٌ
فلا تمنعوا الماعون
وأن شجرة التوت الخلف البيت أختٌ
من جلس إليها فهو آمن
لكن الشجرة بعد حربين وثلاثة قبور
مائدةٌ وكراسيٌ
ولأجلس إليها أحدٌ ولا آمن ..
في القبر الثالث لم نعثر عليه
واعترفت جدتي بعد ثلاثين عاما أنه لن
يعود
فبكينا.
وجدتي كعادتها عندما تموت
تفرش سجادتها قبل أذان الفجر
تطوي سجادتها بعد أذان الفجر
ثم تهدهد النار الأسفل إبريق الشاي
ترفع إبريق الشاي عن النار
وحين نفتح أعيننا تذهب حتى آخر يوم
تفرش سجادتها
تطوي سجادتها
تهدهد أسفل إبريق الشاي
ترفع إبريق الشاي
ونفتح أعيننا...
وأبي ستةٌ غرباء
وخمسُ حنايا
وزوجةٌ أخيرة
ألبرنا مزق الماء تحت صورته
أصغرنا يوسفُ..
لم يستدل على إسم الذئب ووجهة السيارة
فعاد الى البئر..
صاحت البئر: أنا البلاد
صاحت الريح: بل أنا البلاد
صاحت الأرض:
إني أنا البلاد
فوخزت أمي بأصابعها بطن الأرض:
لا تنامي!

تراتيل ... لها

قـــاسـم العـــزاوي

(1)

لانكِ في ّوانا فيكِ
كان وطأنا على الارض
ثقيلا .....!

(2)

ان خرجت مني ، خرجت قبلي،
وان دخلت فيّ رأيتكِ تتربعين ضفاف
القلب ...!

(3)

قلت: ياأنت
جاء في الصدى
يا .. كلانا.....!

(4)

ضيعتني فوجدتني اسري فيك
وضيعتك فوجدتكِ في قلبي تعزفين.....!

(5)

حين سألت قلبي عنك
اجابت الروح ..
وهل يسأل من هي فيه.....!

(6)

وردةٌ في طريقي تفتحتْ
حين قطفتها، سال الدم من قلبي.....!

(7)

يا أنا ..
الم اقل لكِ: اتبعيني
فلقد تهت فيك،
وتهتِ فيّ
من يدلنا ، طريق الخلاص
جاء في الصدى...
لامناصْ.....!

(8)

اعتقني ارجوك....
لقد كبلت قلبي
بسلاسل الشوق
ونار اعشقها.....!

(9)

قنديل روحي خبا
فأمدته بزيت
القبلْ.....!

(10)

قلتّ اواه ياليلي

جاء في الرد..

ونهاري ايضا.....!

(11)

لاتقولي صرتّ ابعد

فأنا في البعد

قريب

وبنار الشوق امشي

للحبيب.....!

(12)

هلل القلب وصاح...

ياحبيبي

انتّ فيّ

كشروقٍ للصباح.....!

(13)

من قال: اني لا اعرف بما تفكرين،

وانا الغائر فيك حد الغرق.....!

(14)

حين صرنا في جسد واحد

إزدار مقاس قميصي.....!

(15)

ما انقل روحي حين تغادرين

وما اخفها، منذ احتوال جناح الشوق.....!

(16)

هاتف رنّ في اقاصي الروح

تعال اليّ

وارتشف ما لذ من ترانيم البوح.....!!

مقتبل الأسى

(محمد درويش وداعاً)

عبد الزهرة السوداني

عِندَ مقتبلِ الأسى
بَعْدَ سِفرٍ طويل
غيومُكَ الماطرةُ
نايَاتُكَ اليتيمة
كُنتَ تصارعُ الليلَ
ضِدَ الليلِ
فما كُنتَ حياً ولا ميتاً
تفرُكَ صَدأَ الذاكرةِ
برملِ التمني
في فضاءاتٍ لاهبةٍ
بادغالِ عالمٍ موحشٍ
روحي غَرِبٍ
نتلمسُ الولوجَ
لمدياتِ رونقٍ مباهجٍ
ومسراتٍ
بسلالاتٍ مكتظةٍ
بطقوسِ عبادةٍ ملغيةٍ

تؤمنُ بالحلم
بَعْدَ سِفْرٍ طويل
لرغباتٍ محمومةٍ
تمتاحُ بروحِكَ
عِندَ منحدراتِ
خلاياكَ
فضاءاتِكَ
فمُ الجرحِ
كونٌ ساكنٌ
رغباتٌ مكبوتةٌ
مُشرعاتٌ
لنهاياتٍ ممتلئةٍ
حَدِّ تشوفاتِكَ
نهرِ سوادِكَ
قبراتِكَ
هديلِ حمائمِكَ
مزروعةٍ

بِطَمْيِ اعشاشِها
يُسَفُّ الترابُ
وشلالُ مباهجِكَ
مخاضاتِكَ
يَغمرُ شطآننا
خَطايانا
يقبعُ في البراري
مُذْ أربعينَ
وشمسُكَ ساطعةٌ
وانتَ تستمطرُ الينابيعَ
لتعشبَ مسلاتُ النهارِ

وتجربَ اتساعَ البحرَ
بنهرٍ من فيضِكَ
تستنزفُ المجهولَ
لبوحٍ
يُنبيءُ بالمطرِ الآتي
ترتلُ بزوغَ فجرٍ
يهتفُ بالبياضِ
على مرافيءَ
تنتظرُ اشرعةَ
العبور

بغداد / 2011/6/8

وصايا لكل كامش*

جـــــــــــــــواد وادي

جـواد وادي شاعـر وكاتب ومـترجم عـراقي مقيم في المغـرب، صدر له في الشعر: ديـوان تراتيل بابلية و ديوان رهبة المدارك. كما ترجم من الانكليزية الى العـربية العـديد من النصوص منهـا رسائل حب عـاطفية لمشاهيـر العالم لبروارة كارتلاند، و الجمال الخفي مسرحية لكاثرين فيلوكس. ومن العربية الى الانكليـزية: ديـوان الأشذاب للشاعـر المغربي إسماعيل زويـريق، تأبـط منفى للشاعرعدنان الصائغ، أغنية الغبار للشاعر وديع العبيدي، هذا اضافة الى عشرات القصائد لشعراء عـراقيين وعـرب. كما نـشر جـواد وادي عشرات المقالات في السياسة والفن والأدب.

الليلة.....
يا كلكامش
تختزن زبد الشهوة الأخيرة
حكايا العذارى الجميلات
الليلة.....
تحتفي صباياك المائسات
بسقوط إرتعاشاتك
وتحلو الأغنيات

الليلة.....
يبتهج النمل
ويصير القندس عريسا
على الوردة اليانعة
الليلة.....
تزيل العناكب
حزن المواويل الجريحة
الليلة.....

تصاحب الجنادب
عفاريت الغابة
ضد النوايا وفورة رغباتك
الليلة.....
احذر يا كلكامش
من هجمة مباغتة
لا تغمض عينيك
عن هجمات البستاني الأهوج
الليلة.....
إجعل يا كلكامش
من خوذة إنكيدو
وسادة لنشوتك وأنت تترصد
ما تؤول إليه النوازل المباغتة
الليلة.....
احذر من الطاعون القادم
يزحف لزوايا قصرك
ومحضياتك
في أوروك المقدسة
الليلة.....
قد يحاصرك الناصبون بمكائدهم
فأحكم رتاج الأبواب ومزاليجها
إنها أوروك العامرة
بأسوارها الحصينة
ثم أنعم بمفاتن من تهوى
من نسائك الماطرة بالشهوات
والشبق الطفولي
ما لك وأطفال أوروك اللاهون رون

كساء
أو مأوى أو حتى لمسة رفء
عاين ما يفعله
صنّاع الرماح المسننة
واحترس من نواياهم
دع عنك الليلة.....
يا كلكامش
عرق الرهزة الأخيرة
لآخر بكر افتضتها
إنها الخسارة الكبرى أن يسيح
عرقك على جسد الأفعى الرقطاء
سارقة نبتتك المباركة
وأنت تبعثر وصاياك
لفرسانك المنهزمين
بكل هذا المروق اللعين
توارى خلف نخلة باسقة
تظللك
يا كلكامش
من زخة اللعنات
أما كفاك هتكا لروحك
وسيدة الحانة
ترتعب لهيئتك المخيفة
كل ليلة.....
تطهر يا كلكامش
تحت جلدك آخر أسرارك
لتصحو مجساتك
على شبق قادم

وأنت لا تبالي
بهمس المترصدين
لأفعالك الطائشة

لعلك تصل الليل بالبحر
والسهو بالمكان
وتشرع للمحو
سلطة المرايا
تدون على شجر الحناء
نواميس القتل
أو لعنة الحروب
حتى نوافذك الحزينة
تراودك عن وحشتها
وأنت تترك نواياك
لنهم الطاعون
تاركا أهواءك تترامى بين
فسحة الأطلال الخربة
لأوروك المقدسة
ورغبة الانزواء
لحيرتك الضليلة
أفرد أيها الطائر الجريح لغربة كلكامش
جناحيك نبيذا للكروم المقدسة
أو خفقة إنتشاء
واترك لفواصلك الجذلى صخبها
سواقي أوروك ما حارت بعد
عن وقع خطاك وأنت القادم
من قسوة الصبر النازف

ما زلنا أنا وأنت يا كلكامش
نتقاسم الدماء والليل
والرغبات والبكاء المؤجل
وحروب النوايا وشيئا من
ظلال المدينة الحزينة
والزوايا التي أثقلتها نياشينك
وهذر الأقاويل
.....
اللعنة عليك أيها الطائر الخرافي
لماذا سحبت من تحت وسادة كلكامش
أحلام ونشوة رغبات
وبسطت على جسده الأمرد
سلطة عشتار وتأوهاتها الفضية
وتركت أحقاد خمبابا للخراب اليقين
تبا لك أيها الثور المجنح
كيف إنتزعت وأنت المجلل بالرهبة
والصلوات الجليلة
فخذك المارد
طعما بمرضاة الآلهة
وفولة إنكيدو
وغضب عشتار
للفتك بكلكامش الإله
وأنت الأدرى بما حل
بجسد إنكيدو المغوار
ويتم كلكامش وحزنه
على صديقه وصنوه
أعرف يا كلكامش أنك

أرمنت التعكز على رهبة الموت
وتركت أوروك
لمخصيها من رجالك الآبقين
وأنت تهيم كضبع هرم
أمضغ خساراتك
وأمضي حاسر الرأس
صوب أوروك الحزينة
عد منتكسا وتجلّد بالصبر
فالعرّافون هم أول من
يفتح النار عليك
بأحقاد تفور فيهم
منذ أمد بعيد
العاقل لا يترك البلاد
لمخصيها ويمضي
كم قلت لك أن لا تعاقر الرذيلة

لا أحبك هكذا طاعنا بالخيبة
وأنت ممسك بصولجانك
المطعم بالخرافات والأحجية الخاسئة
لا أحبك يا كلكامش حيث
أسلمت خطاك للريح
وعاقرت أسرارك المريبة
بمنأى عن رحمة الآلهة
ليس لك من مهرب من الفناء
غير أن تلوذ بأريكتك
لتقضم أحلامك
وما تبقّى لك من أمنيات
وهب أنك عاقرت الانزواء
هربا من قدر المحو
وفزع الموت
واجترار الحكايا .....

*- مقاطع من نص طويل

قصة قصيرة

الأستاذ

محمد عباس علي

قست ملامحه .. قطع المسافة بينه وبين الفتى طائراً .. وقف على رأسه المحنية أسفل الدرج ينظر معه ..علا اللغط حوله ..انتبه الفتى ..رفع رأسه ..أنشب الأستاذ زيدان مخالبه فى الموبايل المتوارى عن عينيه ..نظر فى شاشته ..غرق فى بحور بلاهة طارئة وأبعد عينيه مرتاعاً ، أما الفتى فقد وقف داخل درجه منبسط الملامح بدون حراك .. فتح زيدان فمه باحثاً عن كلمات تناسب موقفاً لم يره قبلا .

عاجله الفتى قائلاً وهو يحدق فى عينيه بذات هدوء أنه لايريد سماع شىء ..سيخرج وينتهى الأمر .انهارت كلمات زيدان..حدق عاجز الحروف والكلمات مكتفياً بنظرات تشى بما فى جوفه من نيران أخيراً قال فى بطء

– أخرج من الفصل ..لاتعد الا بولى أمرك

ضحك الولد ضحكة معجونة بلا مبالاة ومضى متمهلاً نحو الخارج ..ركل الباب بقدمه بعد خروجه ليعاود إغلاقه..صرخ زيدان أنه سيشكو لأبيه .. سيجبره على احترام الدرس .هدأ قليلاً ثم أكمل:–

– الولد خسارة ..ياي مرن لولا بعض الصدأ الذى يعوق حركته.. واستدار خارجاً من الحصة.

فى مكتب المدير أخذت صورة الولد تبدو لعينيه وهو يقول بملامحه المتراخية أنه لايريد أى كلام .يقول هذا بلا خوف ..لايخشى حتى من ضربة عصا أو ركلة قدم ..وقوف زيدان أمام السبورة كاشفاً ظلمتها ببياض الطباشيرعمره كله لم يشفع له اليوم أمام هذا الولد ، وقال له أمام الفصل ماقال ..طوال عمرك يازيدان تتعامل معهم على أنهم يايات تتفاوت قابليتها للإنضغاط حسب مرونتها ونوع معدنها ، وتقول أن مهمتك الكبرى الحفاظ على الا يصدأ منها ياي.. الأولاد أحداقهم تبرق بالذكاء لكنهم لايفقهون شيئاً ..يضغط عليهم ..يغيبون عن المدرسة ..يطلب أولياء امورهم.. لاجدوى منهم. فما الذى جرى ؟

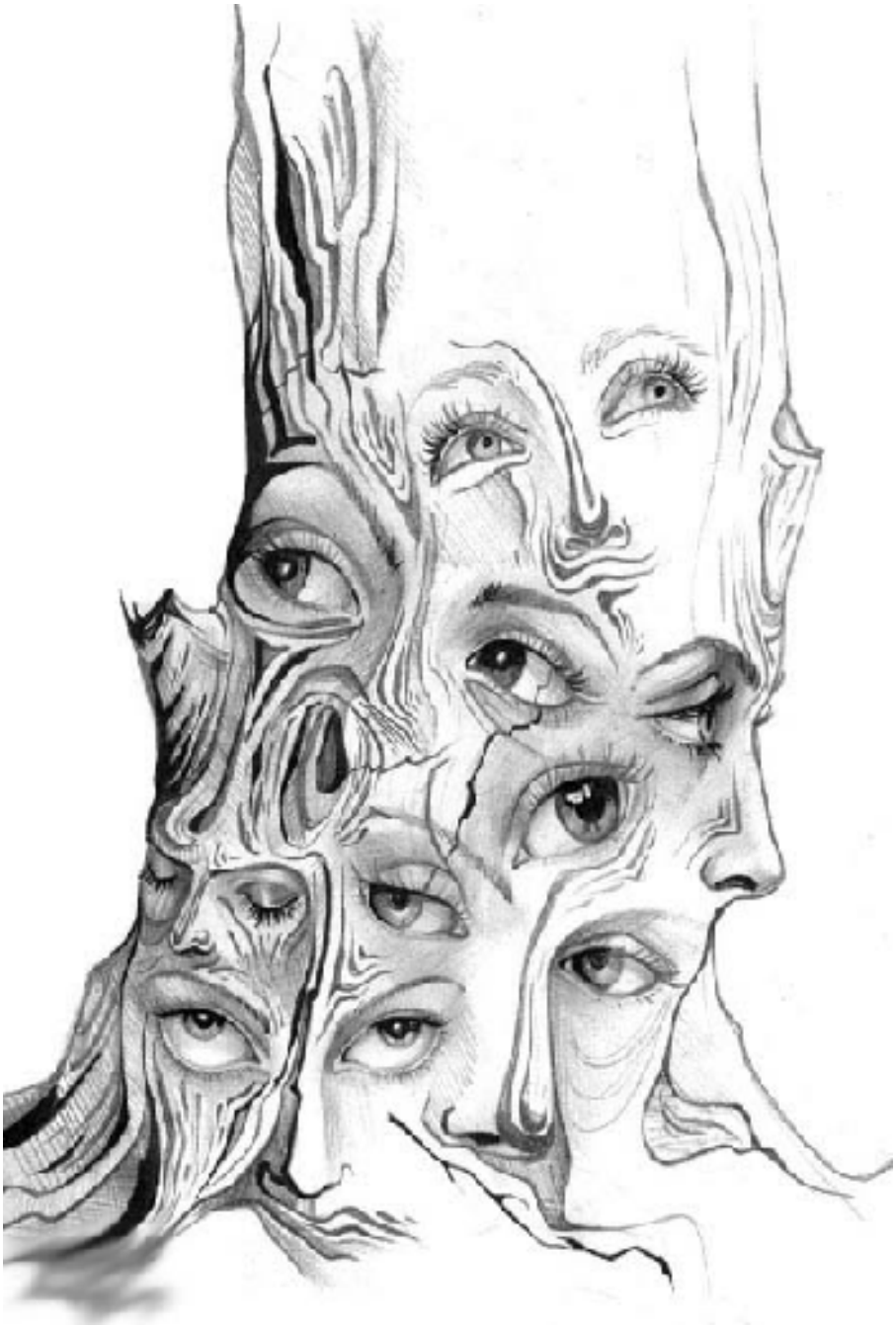

سأله المدير:- مابك ؟

هز رأسه وهو يتحامل على نفسه تاركاً المدرسه ومن فيها الى البيت، تحرك متوجساً شراً من ساقيه .. طالما حملتاه وسط الفصل روحة وإياباً ووقوفاً لساعات وأيام وسنين .. الآن كلّتا، لم تعودا تساعداه على السير، يضطر الى البطء فى حركته، ولولا حرجه من اهل المنطقة الذين يعرفونه ويوقرونه لجلس على أقرب مقعد أو رصيف يقابله بين مسافة واخرى .. اليوم بالذات يشعر أن شقاء العمر لم يثمر ...اليايات صدأت وضرب أحدها قلبه ..أصابه فى الصميم ..الأولاد دوماً يخشون من صوته ..يهرولون أمام عصاته التى لم يعد يستعملها ..لم يحدث قط أن تجرأ منهم لسان على الارتفاع امامه ولم تجرؤ رأس على عدم الخضوع لأوامره ..صرت عاجزاً يازيدان ، وعجوزاً لاجدوى منك ..لم تعد لك هيبة أمام أولادك فى البيت ولا حتى فى المدرسة ..حتى وظيفة خيال المآتة لم تعد تصلح لها .!

تمنى الوصول سريعاً الى البيت ليمدد جسده على الفراش شاعراً أنه بين لحظة وأخرى سيسقط رغماً عنه ..سار يحرك قدميه بالكاد ..سمع صوتاً خشناً ينطق باسمه آمراً إياه بالوقوف ، ورأى جسداً مربعاً ينتهى برأسٍ مظلمة يواجهه :- أنت زيدان ؟

رفع عينيه الى الوجه الجاحظ العينين :- ماذا تريد؟

- الولد الذى طردته اليوم سيعود غدا الى المدرسة ..لن تنظر نحوه..لن تفكر فى توجيه كلمة اليه ..أفهمت؟

حدق فى وجهه الذى يحاصره بحدقتين تعومان وسط بحيرتين من دماء .. نسى الام ساقيه وهمود جسده ..تنبهت حواسه ولمعت أحداقه وأقترب منه معترضا:- الكلام فى المدرسة وليس هنا زمجر الآخر :- بل هنا والآن.

وامسكه من ياقة قميصه جاذباً إياه الى الأمام بقوة :- هل لديك إعتراض؟

تخاذلت ساقاه نتيجة الهزة المفاجئة ولولا أن الآخر يمسك بياقة قميصه لتهاوى أرضاً ..تحامل على الامه ليستمر فى الوقوف، بينما أطلقه الآخر واعطاه ظهره مدمدماً بكلمات غير مفهومة ومضى ..نظر زيدان حوله ..عيون المقهى تتابعه ..آذان الشرفات والنوافذ تترصده ..احنى رأسه ومضى.

قالت إمرأته :- مابك؟

وقد طالعها وجهه على باب الشقة كاشفاً عما بداخله ..أشاح بيده دون أن يمتلك ناصية الحروف ومضى الى غرفته ..أغلق بابها خلفه وهوى على سريره مستعيداً ما جرى، تاركاً لدموعه العنان لتنهمر على خديه بلا توقف، وكلما أجهده البكاء استعاد ما جرى فتعاود دموعه الانهمار موبخاً نفسه انه صمت ولم يمتلك القدرة على المواجهة ، ولم يصر على رفض أي حوار بالطريق .. تحدثه نفسه أن الصمت فى هذه الحالة أجدى وأقل ضرراً ، يتهمها بالجبن والتخاذل ، شاعراً أنه بعد الآن لن يجد وجهاً ولا كرامة يواجه بها الأولاد ..مؤكد تناثر الخبر هنا وهناك وحسم الأمر ..غداً سيضحكون منه ، تمتلىء الأفواه بالضحكات وهى تروى حكايته ، تتوارى الأعين بسخريتها منه ..الأولى به أن ينسحب بكرامته أو ما تبقى منها ولا يجازف بتلك البقية فى معركة خاسرة لن يجديه منها شيئاً ..دخلت زوجته تدعوه للغداء ..أغمض عينيه ولم يرد، مجهد العقل والجسد عَبَر باب المدرسة ..التف حوله الولاد ..تطايرت عبارات صغيرة محملة بالمشاعر ..حدق فى الوجوه .. صارخة بالرفض .. اتسعت عيناه ..اليايات تتحرك ..لم تصدأ بعد !.. إتسع

صدره ..صار بحراً يهدر ماؤه بالغضب ..رفع رأسه ..تألقت عيناه فى وجه الشمس ، ومضى الى الأمام ..قابله المدير.

– لن أسكت وسوف ترى

هز رأسه بهدوء:– بل أرى أن تسكت ..الموضوع بسيط وتحرك نحو الفصل .. رأى الولد جالساً فى هدوء ينظر اليه بذات النظرة المعجونة باللامبالاة ..أشار اليه:–

– أنت .. قف ..قلت لا تحضر بدون ولى أمرك .

****

المضمار

اركض

لاتتوقف هكذا ..نعم

ادفع هذا الذى كلّت قدماه..المضمار لايقبل الضعفاء..اركض وانظر أمامك .. نعم ..ولاتبالى بهؤلاء الذين يمرقون بجانبك ، فهم لايبالون بك ، ولا ينظرون اليك الا لتحديد الخطوة التى ستكون أمامك .. فى البيت سيهللون لك اذا سبقت ..سوف ترى فى الأعين السرور ،وسوف يظلون على فخرهم بك طالما أنت تواصل الركض داخل المضمار بنفس العزم ، وربما تطوع أحدهم راضياً أن يمضى معك ، يتعلم منك ،عازماً فى نفسه إن استطاع أن يسبقك ذات يوم .

آاااااه، هذا ماكنت تخشاه طول الوقت قد حدث، السقوط وسط المضمار، تدوسك الأقدام، تطأ رأسك، يحملوك خارجاً ، يتركونك وحيداً لاتبالى بك عين ولا يأبه لك سمع، بالكشف يتضح وجود كسرٍ فى إحدى ساقيك يمنعك من العودة، تصرخ ، ترفض الإعتراف بالأمر، تحاول النهوض لمواصلة السباق، لا تستطيع، تتجه عيناك الى قبة السماء، ولأنها المرة الأولى لك لاتعرف مالذى يجب أن يقال، تسقط رأسك فى إعياء على براح صدرك، تذكر والدك الفران وذرات الدقيق تغطى جسده، وأنت ذاهب اليه تأخذ مصروفك منه ، صورة تشغل ركناً فى ذاكرتك لايمحى ، رحمه اللّه لم يكن يحسن العدو، كان بالكثير يمشى، خطوته البطيئة جعلته فى المؤخرة دوماً ، سبقه آخرون، قطعوا المسافت بعيداً وتركوه مكانه، كان السفح بالنسبة له آمناً، لايرى فيه خشية السقوط التى تنتاب أهل القمم، كانت لديه مقولات محفوظة من جدوده أصحاب الكهوف والسراديب والحفر أن القناعة كنز، والصبر ثروة، ومحاولة تسلق المرتفعات مغامرة غير مأمونة العواقب، لذا حينما نزلت أنت الى المضمار بدلاً منه إتجهت اليك أنصاف الأنظار، بعضها مشفق من طول السباق ومن قلة الخبرة بقانون الركض وحيل الراكضين، والبعض الآخر إستهزأ بك قائلاً أن الولد سر أبيه، ومؤكد يحفظ عبر سراديب عقله المتلئة بخفافيش الظلمة المتوارثة مقولات أبيه، وأنك بالكثير ستهرول قليلاً فى براح السفوح ثم تنقطع منك الأنفاس لأن لين عظامك لن يساعدك على الإستمرار ، وانطلقت الى الأمام ،رأيت الحواجز تعترض طريقك، والليل يدور بك والأعين ترصدك، والسقوط يتعقبك، لم تبال بشىء، هرولت بكل جهدك وصورة أبيك لاتفارقك، هرولت ولم تضع فى حسابك إمكانية التعثر أو احتمال السقوط، حتى الآن وأنت فى مكانك على جانب الطوار وحيداً الا من عينيك اللتان ترصان المضمار ومن فيه، وصدرك الذى لاتهدأ ناره لاتفكر فى الشكوى، ولاتلعن من أوقعك، ولاتبكى لعدم وجود ساق جاهزة بدلاً من تلك التى لم تعد ذات جدوى، بل تستند على عكازك وتواصل العدو ،صحيح أن خطوتك تأثرت كثيراً باصابتك لكنك تمضى ماوسعك المضى، المهم أن تكون داخل المضمار، وهذا يحسب لك !!

قصة تركمانية

خِربة (حَسن قولو)

فاضل ناصر كركوكلي

ليلعنك اللّه الى يومِ القيامة ..

ليلعنكَ اللّه أينما كُنتَ في هذا الزمن الكافر يا حسن ..

كيفَ تسنّى لك ان تسحبَ ساقكَ العرجاء لتتركنا طعماً لغدر الأيام يا عديم الوفاء يا ظالم..؟

مِن أين أطعمُ صغارك من بعدِك يا قاسي القلب ..؟

ليتني كنت عُاقراً أيها المجرّد من الضمير والوجدان، أيها الخالي من الشهامة والشرف .....

كيفَ تترك إمرأةً ضعيفة مع أفواه صغارٍ أربعة تزقزق طوال النهار من الجوع ...؟؟

ليتكَ كنتَ هنا لتنظر الى ثيابهم المرقّعة والى سيقانهم التي لا تقوى على حملهم والى أحداقهم المفتوحة على إتساعها خوفاً من مآلهم البائس ، نعم ، لتنظر بعينيك اللّتين يصيبهما العمى إن شاء اللّه يا عديم النخوة والرجولة، آه .. لا أدري كيف أذعنتُ لك راضيةً ووضعتُ رأسي المكدود فوق صدرك القاسي كالحجر يا ناكرَ العشرة و مفرّقَ القلوب و قاطعَ الأرحام و مُحطّم الآمال و هادمَ البيوت يا حسن .. يا قولو ... ليلعنك اللّه و يفتح قدامَك أبوابَ الجهنم في غدوك و رواحك يا إبن أمةِ الأباليس و عبدة السعالي و شاربي الصديد و الزقّوم ..!!

فليشهد عليّ الآن جميع الجيران وأنا ارفع صوتي عالياً بأنكَ لم تترك لنا في فناءِ هذه الخربة المتهالكة غير طاحونةٍ تكسوها الطحالبُ و الدمن و يتراكم عليها زرقُ الغربان و خراءُ الهوام و بأنكَ قايضتَ بغلَنا الضامر بأتانٍ حرون هرب من الطاحونة بمجرد ما دخل هواءُ الربيع بمنخارهِ فبقيتَ تتقافزُ ورائه بساقك العرجاء حتى غبتما عن الانظار معاً في السُهب، ثم قبعتَ طوال الخريف في باحة الخربة تندبُ حَظّك العاثر و تلّف تبغَ سكائرك حالماً بحصانٍ شديدُ البأس

برقبة ٍ قوّية وقوائم ٍ قُدّت من حجر ٍ صوّان يسحبُ الطاحونةَ فوق صخور ٍ مسنّنة حتى أعالي الجبال ، ثم تناخيتَ شرفاً بعد أن جرعتَ نصف قنينة عَرق من رأس الفُوهة مباشرةً وانبريتَ تهوي بقبضتك على صدرك المُشعر أمام أطفالك المشدوهين بأنكَ تعملُ المستحيل من أجل الخربة تزرعُ فيها الشقائقَ البرّية وتسقيها الماءَ الزلال و تعلي أسوارَها أمام السرّاق و تجعلَ حتى عمائم الصيف تهمي قطراً فوق رؤوسنا ثم قبعتَ غافياً تحت الشمس المفروشة أمام غرفتنا المتداعية في الخربة حتى أجهزتَ على آخر ِ نتفة من التبغ في كيسك المتسخ و إلتهمتَ كلَّ مؤونة الشتاء في العنبر ، وأخيراً وضعتَ عدلَ الاتان على كتفك و تسللتَ من الخربة في منتصف الليل هارباً تحت جنح الظلام بدون أن تنبس بكلمة ...!!

بدأ القمرُ المحتبس طويلاً بين الغيوم يتدحرجُ نحو خربة (حسن قولو) المنزوية في بقايا جدران ٍ متهدّمة مركونة خلف أسوار ِ (باب الطوب) في قلعة كركوك ، ثمة ظلال تتهادى برفق في ضوء القمر ترتعش في أنوار ٍ خافتة تنوسُ حولَ برذعة ٍ قديمة ومخلاة ٍ لا زالت في قعرها بقايا تبن ٍ مهروس تحولت الى هشيم ذو رائحة نفّاذة إنتشرت بين الاحجار الضخمة التي تكومت في أقصى زاوية الخربة يتوهّج في لصقها تنّورٌ صغير تطقطقُ فيه شرارات ُ الحطب والبَعر تنحني فوقه إمرأةٌ متّشحة بالسواد يضفي الوهجُ لعصّابة رأسها و نصف وجهها الطويل ومضات خاطفة في حلكة الليل ، تتكيء المرأةُ على الملقط الحديدي للتنور وتدمدمُ مع نفسها بصوت ٍ مسموع يتعالى ليصبح اناة ٍ هادرة...

نعم ..نعم ... ياحسن يا إبن الأوادم إنك لم تنبس حتى بكلمة ِ وداع ٍ تثلج لهيبَ صدري، ولم تقبّل خدودَ صغارك المخطوفة الوانُها من ألم ِ الجوع ..، فها أنا أقولُ بالفم ِ الملآن ليشمتَ بي الجيرانُ ما شاؤوا بأن قلبي الآن يحترقُ عليك رغم كل سفالاتك يا عديم الإحساس لأنكَ لازلتَ وستبقى الى الأبد أباً لأطفالي و سقفاً لجداري و ركناً لملاذي .. آه .. لو لم تعلم مدى لوعتي لدفء أحضانك ومدى إشتياقي الى صمتك وشرودك الدائم والى إبتساماتك المشرقة من تحت شاربيك الكثّين والى أعماق عيونك التي كانت تلتهمُ جسدي كلَّ يوم و أنتَ متربّعٌ على دكّة الطاحونة تقضمُ أطرافَ شاربيك الصهباوين وتمسحَ قطراتَ العَرق عن جبينك المتغضّن وكانت أجمل لحظات عمري حين كنتُ أجلبُ لك قربةَ الماء في أوقات راحتك عن العمل أو أقلبُ لكَ البرغلَ المطبوخ تواً و أحملُه اليك مع رأس بصلة ٍ نيئة قبل أن .. قبل أن ... قبل أن تزدردهُ سمّاً .. يا إبن الكلب يا حسن ... والآن مرّت على رحيلك عنّا شتاءاتٌ مريرة إنطحنت فيها أمعاؤنا لهفةً للقمة ٍ تسدّ أودنا يا معدوم الوفاء ... ليتها قبورُ (المصلّى) (١) تفتحُ أشداقَها لتبتلعني من بعدك، فالموتُ أشرفُ لي من هذه العيشة الدنيئة التي أمدّهُ فيها يداً ذليلة للناس لأطعم صغارَك خبزَ النخالة و نحن أصحابُ طاحونة ٍ تهتزّهُ التلالُ من دوي دورانها لتدرّ لنا ذهباً ، ماذا كان ينقصنا يا حسن يا إبن الحثالات غير بغل ٍ لا يفكرُ الا بالتبن ليجعلَ المتربّصين بنا يموتون غلاً و حسداً والذين يتقوّلون الآن

بشماتة أمام أرنبة أنفي إفتراءات جارحة بأنك نفقت كالجحش ميتاً بين أحضان العاهرات في بلاد الغربة و إنكَ قطعت أرض اللّه الواسعة سيراً على ساقك العرجاء لتستجدي الخبزَ من الناس ولتنام في خانات تشبه الزرائب بعد أن تقفل الحانات أبوابَها ، وبعد كل هذه التخرّصات علناً بدأت النسوة تحرّضن نغولتهن علينا ليهاجموا الخربة بالحجارة لإخراجنا من الحارة عنوةً فإشتكيت أمرهن للمختار الذي قال لي بالحرف متهكماً بأن (بيتاً بلا رَجُل ولا أسوار تأتيه الحجارة من السماء .. يا مجنونة ..) .. نعم يا حسن قولو لقد أصبحت بنظر الناس مجنونة بعد رحيلك ، أكلّم الحيطان وأفزع بشعري المنفوش وأسمالي الرثة صغارَ الحارة الذين يتقافزون من ورائي بالصيحات كلما لمحوني بالأزقة ، وسبب كل هذا البلاء هو أنت يا حسن فلولا غيابك عنّا ما كان يتجرأ أثخن شارب بالحارة على المرور حذو الطاحونة ولا تقدر النساء على تحريض أولادهن للقيام برجمنا وكأننا كلاب جرباء سائبة....

إنقذني يا إلهي بجاه أوليائك من هذه المحنة ، انجدني لأجل صغاري وفلذات أكبادي الذين يتضورون جوعاً ، أين كراماتهم أيها الاسياد؟ ، أين أنتم أيها المباركون بالمعجزات؟، إنقذوني من أنياب الوحوش ومخالب اللئام ، إنجدوني، النجدة ، النجدة .... النجدة ... الـ ....

في منتصف الليل، يتوسط القمر سماءَ الخربة تماما، تنفتح نوافذ الجيران دفعة واحدة لتطل منها رؤوس شوهتها ملامح الغضب ترسل سيل الشتائم و اللعنات يعقبها وابل الحجارة والقناني الفارغة وفردات أحذية عتيقة تنهال صوب الخربة ، تترك المرأة من يدها الملقط الحديدي للتنّور مرعوبة لتهرول نحو الغرفة وتسدّ بابَها المتداعي بقوة ، تتلمس في ظلام الغرفة أولادها الذين إستفاقوا من النوم فزعين على هدير اللغط الصاخب ثم تصرخ مستنجدة من أديم عتمة الغرفة بأعلى صوتها بشكل هستيري فيختلط عويلُها وصراخُها الحاد ببكاء صغارها المذعورين الذين يتدافعون كالعميان نحو زوايا الغرفة الخانقة، تبدأ أصوات الرجم وشتائم الجيران بالتراخي والخفوت حتى يُخيم سكون تام في جنبات الخربة فلا يُسمع الاّ الأنين الخافت والمتقطع للمرأة وأنفاس صغارها الرتيبة الذين بدؤوا يغطون بالنوم، يرفع أحد الأطفال رأسه من حضن المرأة ليحبو مقترباً بكل تؤدة من خصاصات باب الغرفة لينظر بتوجس الى باحة الخربة التي بدت في تلك اللحظة الساكنة تتنهد بأنفاس متراخية دافئة في الضوء الأزرق الكامد للفجر فترآى للصغير في النور المغبش شبح حصان ضخم يطرق الأرض بقوائمه القويّة واقفاً في فناء الخربة وعلى مقربة منه ظلال رَجُل متلحف ببرذعة قديمة يتوسّد دكةً الطاحونة ، يتراجع الطفل من الباب لينحشرَ في أحضان المرأة متثائبا... بنشوة ...!!

كوتنبورغ –السويد

(1) المصلى / من اكبر المقابر التركمانية في كركوك

غفوة أخرى لحلم..لم يكتمل

بلقيس خالد

هل الماء والنور ..هما كل جذورنا؟

لماذا كلما غررت الحرب صواعقها.. إستهدفت ، تلك الجذور؟

على شاطئ النهر .. تلك النساء.. ... : بساتين

يرقص النهر كلما اغترفت قدورهن شفاه امواجه.

وحدها تبحر في تموجات حريره.. ثمة لغة يهمسها، ماذا يقول النهر..؟

تمسك حجرا، تنحت طين شاطئه: لوحات طينيه:لغتها.. حين يهامسها بثنيات الخرير..

تبتسم ..تميل برأسها غنجا .. يداعبها نسيمه تغمض عينيها تقهقه يمازحها.. خفيف الرذاذ.. ؟

ينأى عن جفنيها..، صوت يسحبها من نسمات عشقها..

(فيء) ..كفى أحلامك جنونا.. !! املئي قدرك سنذهب ..

صحن بها ، بنات الحي.

رعد الطائرات وزلزال حممها يطارد ماتبقى من فلول جيش مهزوم ..

على جانبي الطريق العام الذي يربط رمل.. الزبير بإسفلت المدينة،وجوه الجنود:.. صيرتها الخيبة.. مرمدة،

..لهم تلفت المذعور.. من فرق الفوهات المسعورة المتأهبة. جنود لايتوقفون عن المشي والغمغمة بشتائم محظورة.. وسرا بما تبقى من دعاء النساء يتمنون للأرض عافية الأشجار.

أستند ت على حجر تتأمل لوحة رسمتها على طين الشاطئ التفتت صوب النهر هامسة:

– رسمتك صوتا لحنجرتي ،لماذا... لاتصرخ؟

ارتفعت الأمواج.. ضحكت فيء ،ثم...

– يها النهر المسكين ...

ارتفعت ألأمواج ثانية وبللت همساتها :

– أنت أيضا تستعين بأ حجار الشاطئ لتتكلم !!

ضحكت متسائلة: أيتها الأحجار من

رسمك حنجرة لهذا .... الأبكم؟.
تكدر النهر..
سحب نسائمه..
أمسكت فيء بإطرافه معتذرة
– أيهـا ..... النهـر..أنت تعـزف .. الأحجار نغما .. يزودني بالأجنحة..
أما انا..؟
فأنا الحجر: صوتي المخربش.. بوجه من يضايقني...
عاد أليها.. يمازحها النسيم يرفعها الموج تلامس سرب نوارس ثمة نورس يخطفها يقف بها على لوحة.. صاحت خائفة من رسمني..؟ ماهذا..؟.
خاوية بيوت ذلك الحي هجروها كرها.. حين مرضت الشمس والتحفت أنفاسها سحب سود تزفرها آبار نفط يحترق..
بيوت خوت ..ألا من .. لم يسعفهم الحظ بمال أو أقارب..... ظلوا ينتظرون الغراب المسلح تحت سقوف بيوت يراقصها رعد القنابل وزوابع شباط.
بطراوة غصون كفها ..تداعب أمواج وجه..
لن يضمحل نهرا على صفحاته رسمت الأشرعة..
صمت..،
بين يديها امتثلت محارة.. مال برأسها عليل النسيم قالت:
أيها النهر يالسان الشجر .. اخضرار همسك فضح سر وطني..
فاستفحلت الريح.
يد بقوة الصوت انتزعتها..
ضوء يحذف خمول ذلك النهار..
الغربان بصواريخها تلاحق غبرة أذيال جيش هوت به النجوم.
بنات الحي يتراكضن....
بنات الحي يتراكضن ويعلو صياحهن المشروخ بالنداء
إلى.. ماتبقى من رجال عجزة..أباء وأجداد:
أنهم جرحى ...
هموا... بغسل الجراح وتضميدها بما في بيوتهم من شراشف ومعقمات وأعشاب برية .. أصبحت البيوت ردهات مستشفى لها سعة الحي.. الجنود يتساءلون:
أين النور؟، لا يجيب سوى الصمت:
لماذا النساء محملات بالقدور.. أين الماء؟
... الصمت ثانية...
لا احد عن هذه النار الدامية النهمة : يعلم شيئا؟
من صيرها لغزا؟
.. أين ستنتهي؟
هل ستترك على أرضنا بشرا؟
ضحك احد الأطفال قائلا:
هل سينتهي العراق ونكون مثل عدنان ولينا؟
نظر إليه الجد يسكته.
أفل النور..
تلفتت متسائلة: من سرق ألوان الأزهار أيتها الظلمة؟
النهر: خيط يتلوى بين ضفتين،
دمعا صامتا من رسمه؟
راقصة رئتي..
ثمة عزف..
عبرتي من رسمها؟
ضحك الطفل ثانية وهو يركض إلى أصحابه ليخبرهم انه سيبقى هو مثل عدنان واختار احد أصحابه ليكون عبسي.. التمعت عيناه وهو ينظر إلى .. الأسلحة.. هم وأصحابه بقطع أغصان الشجر..
زعق النورس..

كقطة لحست بعينيها محارة ماثلة بين يديها ماتزال.. خدر يسري بشريانها سؤال..: أيها العذب من أين لك بثمرة الأجاج؟
النورس يزعق... : ماذا يقول النورس؟
تساءلت..
ثمة صوت: احتمي بمحارتي حتى يأتيك قمرا يحيلك لؤلؤة
فقد رسمتكِ ..
رملا...

مطبوعات وصلتنا

- **شهادة على زمن عاصف وجوانب من سيرة ذاتية/ عبد الرزاق الصافي / الجزء الثاني / دار المدى للثقافة والنشر**
- **من ذاكرة الزمن / احداث وشخصيات عراقية / عبد الرزاق الصافي / دار المدى للثقافة والنشر**
- **شمس النارنج / شعر / مقداد مسعود / 2011**
- **بقية شمعة: قمري / شعر/ بلقيس خالد / 2011**

تنويه

ملاحظات حول مقال "سوق العمل والحد من البطالة المنشور في الثقافة الجديدة العدد 342

– فقرة "وفي العراق لم تجر مسوحات دقيقة للسكان منذ العقد التاسع من القرن الماضي حتى الآن" ص16 الأصح لم ينظم التعداد السكاني العام منذ تعداد1997 والذي لم يشمل كردستان ويفترض أن ينظم التعداد في عام 2007 لأن العراق درج منذ تعداد1947 على تنظيمه كل عشر سنوات باستثناء تعداد 1965 علما قد نظمت مسوحات مهمة بالعينة عام 2004 و2007 وهناك فرق كبير جدا بين تعبير المسح والتعداد حيث يكون الأخير شاملا لكل السكان.

– جملة "أما الفئة الثانية وهي السكان في سن العمل من15 سنة 45 سنة ..." ص 18 الأصح أن فئة السكان في سن العمل في المعتاد تكون من15– 64 سنة. وهذا ما ورد في الفقرة قبل هذه الجملة.

– والمقال يتحدث عن تغير نسبة هذه الفئة في بعض السنوات ويذكر عام 1970= 8.49% هذه النسبة خطأ وقد يكون الخطأ مطبعي ولعل الصحيح 49.8% لأن هذه الفئة كانت 47% في عام 1987 أي انخفضت قليلا. ص 18.

– الفقرة "وحسب تعداد عام 1965 بلغ عدد الأسر التي أفرادها من 5–10 أشخاص5.6%(الصحيح 60.5%) وبلغ عدد الأسر التي أفرادها من 10– أكثر أشخاص 11.3%.

وفي عام 1987 بلغ المتوسط العام لحجم الأسرة المعيشية 7.14 كانت في الحضر 6.94 وفي الريف 7.65 وفي عام 2004 بلغ المتوسط العام لحجم الأسرة المعيشية 6.4 كانت في الحضر 6.1 وفي الريف 7.4" ص 19 هذه الفقرة أخذت مع تعديل بسيط من مقال لي بعنوان "الخصوبة السكانية والمتغيرات الاجتماعية –الاقتصادية في العراق" نشر في الثقافة الجديدة عدد 321 عام 2007 ص 90 ولم يرد ذكر المصدر مع المصادر الأخرى.

– فقرة "ولعدم توفر البيانات الوطنية عن علاقة الخصوبة بالعوامل الأخرى يتعذر استخلاص نصيب الفرد من الدخل القومي والقدرة على الاستهلاك وتوزيع القوى العاملة حسب القطاعات الاقتصادية والإنتاجية غير الزراعية ودرجة التحضر العمراني وغير ذلك." ص19 ربط الجملة باللون الأحمر بما بعدها غير موفق فالعوامل التي تؤثر في الخصوبة كثيرة ومتشابكة اجتماعية، اقتصادية، ثقافية، حضارية، دينية الخ ولكن عدم معرفة تأثيراتها بدقة في الخصوبة لا يؤثر كثيرا على معرفة ما ورد بعد هذه الجملة.

– "وطارد" الصحيح الطرد لأن الذي سبقها ظاهرتي الجذب... ص 19

مع خالص تقديري

هاشم نعمة

18 مايس 2011